أبو القاسم محمّد كرّو

دراسات في الادب والنقد

منشورات دار المعارف للطباعة والنشر
سوسة/تونس

العدد المسند من طرف الناشر : 90/269
تم ابداعه بالمكتبة الوطنية في شهر جوان 1990
* * *
« تدمك » : 6 ـ 070 ـ 712 ـ 9973 ـ ISBN

مقدمة

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من الدراسات والمقالات التي عالجت فيها قضايا أدبية ونقديّة مختلفة وفي فترات متباعدة. كما شمل القسم الثاني منه عددا من رجال الفكر والأدب كان لهم دورهم الريادي في الفكر القومي والنهضة المعاصرة والتجديد الأدبي. وهم على التوالي ساطع الحصري ومالك بن نبي وعباس محمود العقاد وسلامة موسى وعادل زعيتر وبدر شاكر السياب. والأول والأخير كانت بينهما وبيني علاقات صداقة ومراسلة، وكان لي شرف تنظيم اربعينية لهما بتونس، ولهذا كانت كلمتي عنهما « ساطع كما عرفته » و« السياب كما عرفته ». أما العقاد وزعيتر وسلامة موسى فلم يحصل لي تعرف أو علاقة شخصية بهم، ولكن أثرهم في ثقافتي وثقافة كُتّاب ومثقفي هذا القرن أمر لاشك فيه. وإذا كان عادل زعيتر قد تخصص في الترجمة ونقل عيون التراث العالمي إلى العربية فانه بذلك قد جعل الأجيال تستوعب آداب وثقافات الشعوب الأخرى، وأثرى بمترجماته لغتنا القومية ومكتبتنا العربية بما هو ضروري لها لتدخل عصر الحداثة وتواكب حضارته وتكتشف كنوز اللغات الأخرى.

أما مالك بن نبي فهو مفكر اسلامي جزائري له تجديده الخــاص ومشروع نهضوي قائـم على التنــوير الاســلامي المعقلن . . وليس على الفقـه الديني . ولعله كان يحاول أن ينقـل المسلمـين إلى عصر الحـداثـة والتكنولوجيا ويجعل من الاسـلام قوة روحية متجـددة تتفـاعـل مع الحضارة وترقى بالانسان المسلم إلى مستوى عصره أو ما بعد عصره ؟ !

ولست أشك في أن كثيرا مما سيمر به القارىء من صفحات هذا الكتاب سيجد فيه متعة ذهنية وأدبية وتاريخية . . لكن هل سيتفق معي في جميع الآراء والتحليلات والاحكام المبثوثة في تلك الصفحـات ؟ ذاك أمـر لا أطمـح إليه ولا أحـرص عليه ، لأنني أريد القارىء المستقل الناضج ، الذي يقبل ، ما يقبله ، بقنـاعـة وعقـلانية ، ويرفض ـ عنـد اللزوم ـ بدون تعصب وبلا غضب !

ا . م . ك .

تونس 17 . 1 . 89

الأدب التونسي وصداه في الشرق
(قديما وحديثا)

من عيون الكتب المغربية، التي الفت للدفاع عن الأدب والأدباء في الأندلس والمغرب، ولاعلاء شأنهم وابلاغ صوتهم وبيان فضلهم وعالي مكانتهم لدى المشارقة، كتاب « المطرب من اشعار أهل المغرب » (1) الذي ألفه أبو الخطاب عمر بن حسن الشهير بابن دحية. (2)

وابن دحية توفي في القاهرة عام (633/1235) أي في الثلث الأول من القرن السابع . . هذا القرن الذي شهد أكبر عدد من المؤلفات المغربية وأكثرها أهمية ومكانة في تاريخ الأدب. وكلها تقريبا، وهي تبلغ العشرات ـ فضلا عما جاء قبلها ـ يمكن ان تدرج في هذا السياق . . . سياق المنافسة والمنافحة بين أدباء المغرب وأدباء المشرق.

يقول الأستاذ ابراهيم الأبياري ـ وهو من أهم المعاصرين المصريين عناية بتراث المغرب والأندلس، وأكثرهم معرفة به وتحقيقا لنصوصه وانصافا لأهله ـ يقول في تقديمه للكتاب، وشرح الدواعي الحقيقية لتأليفه :

« . . . في الكتاب أكثر من إشارة، تعبر في صريح عبارة،

عن علم الرجل باهتضام المشارقة للمغاربة، وانزالهم في الأدب منزلا غير لائق، والغض من شأنهم الفائق . . . ».

« وهو في ذلك إما نازع منزع غيره من مغاربة سبقوه، أو مصدر عن خاطر يحدوه . . » (3)

هكذا ـ إذن يتصدى للمشارقة إبن دحية المغربي رغم أنه كان يعيش بينهم في كنف ورعاية تلميذه الملك الكامل الأيوبي، الذي أسس لشيخه في القاهرة وبنى خصيصا له المدرسة الكاملية، وهي ثاني مدرسة تأسست في الاسلام لتدريس الحديث (4)

والقاهرة كانت، في هذا التاريخ وفي كامل القرن السابع، تعج بالمغاربة، علماء وأدباء، حجاجا وطلبة، تجارا وموظفين، حتى لتكاد الحياة العلمية والأدبية فيها أن لا تقوم إلا عليهم.

وكانت للأيوبيين علاقات خاصة مع المغاربة منذ عهد صلاح الدين وحتى نهاية حكمهم. ولعل ذلك كان استمرارا للعهد الفاطمي، الذي قام كله ـ عسكريا وثقافيا واداريا واقتصاديا ـ على المغاربة وحدهم (5)

ففي عهد الملك الكامل (615 ـ 635 هـ) (6) فقط كان

عشرات الأفذاذ المغاربة ـ تونسيين وأندلسيين وغيرهم ـ يزخر بهم بلاطه وتزدهر بهم مدارس القاهرة العلمية ومحافلها الأدبية . . ومن بينهم احمد بن يوسف التيفاشي (7) والمكرم (8) الأنصاري الباجي والد ابن منظور مؤلف لسان العرب (9) وابن دحية (10) وابن سعيد المغربي (11) وجميع هؤلاء كانوا سفراء وأصواتا عالية للأدب الافريقي والأندلسي في الشرق، طوال القرن السابع . . . فكيف كان الحال بعده إلى اليوم، بل وكيف ظهرت القضية في القرون السابقة ؟

منذ البداية ـ بداية الاسلام والعروبة في المغرب ـ قامت حساسيات ومواقف معقدة بين المشرق والمغرب . . . لعل ابن حزم (12) عبر عن واحد منها حين أعلن بلسان معاصريه (13) :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة
ولكن عيبي أنّ مطلعي الغرب

وقد ظن أكثرهم أن في قولة ابن حزم أحد ردود الفعل المغربية وصوتا من أصواتهم الاحتجاجية التي جاءت كجواب صارخ على ما أعلنه الصاحب بن عباد ـ وقد تصفح كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه ـ قائلا : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » (14) وما وصف به ابن حوقل أهل الأندلس وبلادهم من صفات لا تشرف (15) وما أعلنه المعري عن شعر ابن

هانيء بأنه أشبه برحى تطحن قرونا لما فيه من القعقعة (16).

والغريب هنا أن المغاربة اعتبروا تلك الأقوال إستنقاصا لأدبهم وتحقيرا من شأنهم . . والحال أنها مجرد آراء شخصية لا تمثل إلا أصحابها . . مع العلم أنها في أغلبها آراء سليمة وصحيحة ؟ . فالصاحب ابن عباد كان يتشوّف إلى معرفة الأدب الذي أبدعه المغاربة، بداية من القيروان وانتهاء بالأندلس فإذا العقد الفريد يضع بين يديه نصوصا وأدبا مشرقيا . . فماذا عساه أن يقول أو يعلق ؟ والمعري لم يلتفت إلى دواعي الشعر عند ابن هانى، وهو شاعر مشحون بالعقيدة الاسماعيلية (17) وبظروف الصراع المذهبي والسياسي والعسكري في مواجهة خصوم الدولة الفاطمية وأعدائها الكثيرين في المشرق والمغرب، فجاء شعره ـ لذلك كله ـ شعر حماسة ومناضلة عن العقيدة والدولة. لم يهتم المعري بأي شيء من ذلك لأن ذوقه الشعري قد صدمته جلبة الألفاظ وجرسها المصم (18).

وقد التجأ المغاربة بعد ذلك، وخاصة منهم أهل الأندلس، إلى التحلي بألقاب الشهرة المشرقية، فكان لهم أيضا بحتري ومتنبي ومعري . . . ولكنهم سرعان ما أدركوا أن في هذا ما يزكي تهمة التقصير والتقليد (19) فتحولت ردود فعلهم لتصبح أعمالا أدبية بدأت برأي أو قصيدة كما عند ابن

هانىء (20) أو ابن الربيب (21) ثم صارت كتبا كما عند ابن رشيق (22) وابن القطاع (23) وابن بسام (24) وابن بشرون (25) وابن دحية (26)وابن الأبار (27) فضلا عن التيفاشي (28) والتجيبي المرسى (29) وانعقد الصلح على يد ابن سعيد المغربي (30) الذي توزعت كتبه المشرق والمغرب، فكانت تحمل الاسم نفسه تكريسا للمشابهة والمصالحة وتجسيما لوحدة اللغة والشعور، فهي ـ كما تعلمون ـ حلى واحدة . . أجزاء منها للمغرب وأخرى للمشرق (31)

ولعل ابن سعيد في هذا متأثر جدا بطريقة معاصره وصديقه الطبيب الموسوعي أحمد بن يوسف التيفاشي القفصي، وإن كان التيفاشي قد تميز عنه بمزج الأدب المشرقي بالمغربي في معظم كتبه، لاسيما في موسوعته الضخمة (32) التي هي أعظم كنز أدبي وعلمي تونسي ضاع من تراثنا . . يدل عليها ما بقي سليما من أجزائها أو مختصرا من مسوداتها مثل « سرور النفس بمدارك الحواس الخمس » (33) و « متعة الأسماع في علم السماع » (34) ونزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب » (35) وكتابه في البديعيات الذي اعتمدهواقتفى طريقته علماء البلاغة حتى القرن العاشر (36) ولقد سررت جدا . . . وأنا اكتشف ـ في هذا الشهر ـ وجود نسخة وحيدة من هذ الكتاب جاءني العلم بها صدفة من خلال بحث كتبته

عن التيفاشي باحثة سورية فاضلة خصتني به للاطلاع عليه قبل نشره .

على ان التيفـاشي وابن سعيد لم يهملا الحديث والتأليف المستقـل عن محاسن بلادهمـا ، اي إفريقية والأندلس ، فقد نسب للأول كتاب « الدرة الفائقة في محاسن الأفارقة » (37) ونسب المقري لابن سعيد كتاب « الشهب الثاقبة في الانصاف بين المشارقة والمغاربة » (38) .

نخلص من هذا إلى أن شكوى المغاربة قديما من إهمال المشارقة لهم واستنقاصهم أدبهم كانت شكوى معقدة ومفرطة في الحسـاسية . . لكنني أزعم بأنهم كانـوا السبب الـوحيد فيهـا ! فقـد كانت بداياتهم في التـأليف الأدبي ، وحتى في الشعر ، بدايات عقيمة ، فإلى نهاية القرن الثالث الهجري لم يظهر لهم تأليف واحد في الأدب كما لم يظهر بينهم أي شاعر ذي شأن سوى بكـر بن حماد ، ولـكـنـه كان شاعـرا مقـلا . . ومـذبـذبـا بين المديح والزهد ، وانتهى صداه يوم موته ، ولم يبق من شعره ، في بلاده الافريقية نفسها سوى نتف لا تبين (39) .

ومنذ بكر بن حماد إلى اليوم لم يقل أحد للمشارقة في ميدان الشعر : ها أنا ذا سوى الشابي . . وربما نضيف ابن هانىء

وابن زيدون . . ولعل في هذا ما يفسر أن عناية المشارقة بهؤلاء كانت أكثر من غيرهم .

ومع ذلك فان المؤلفات الأدبية الجيدة التي وضعها المغاربة مع إطلالة القرن الخامس والسادس وحتى في السابع والثامن . . قد لقيت جميعها عناية كبيرة وأصداء قوية في المشرق عامة وفي مؤلفات المشارقة ومجاميعهم وموسوعاتهم الأدبية بوجه خاص .

فقبل القرن الخامس لا نكاد نجد أثرا يذكر لشاعر أو أديب مغربي . . الا لمن استقر منهم في المشرق أو انحدر من أصل مغربي . . كأبي القاسم المغربي (40) أو المتيم الافريقي (41) وهذه مؤلفات ابن النديم والثعالبي والباخرزي شاهدة على ذلك ، إذ ليس فيها سوى عدد قليل من المغاربة ، أغلبهم أندلسيون (42) .

ولكن الموقف يتغير بعد القرن الرابع ، والصدى يقوى ثم يزداد اتساعا وإشعاعا . حيثما إنتشرت مؤلفات المغاربة الخاصة بهم والحاملة لأدبهم وابداعاتهم في الشعر والنقد والتاريخ والتراجم . . لذلك لم تتجاهل المؤلفات المشرقية ولا أدباء المشرق أدب ومؤلفات المغاربة عامة منذ هذا القرن . . بل زاد الاهتمام وظهر التقدير والاعجاب . . فقد

To: www.al-mostafa.com

بهرهم ابن رشيق بعمدته وكتابه عن شعراء القيروان فاغترفوا منه ونقلوا عنه ما استطاعوا، وكذا كان الحال مع ابن القطاع وكتابه « الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة » وابن بشرون وكتابه « المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر »، وابن بسام في ذخيرته . . إلى آخر القائمة وهي طويلة جدا.

وهكذا تجسمت منذ القرن السادس وحدة الأدبين في كتب المشارقة . . والسبب في هذا واضح جدا . . إنهم يملكون الآن أصولا ومصادر عن أدبنا . . وهي أصول ومصادر هامة جدا . . وقد زادها قيمة ومكانة أدباء مغاربة أفذاذ عاشوا بين أدباء المشرق وأثروا فيهم وحملوا إليهم مؤلفات المغاربة وأشعارهم . . بل وألفوا لهم خصيصا كتبا للتعريف بأدب المغاربة من صقلية إلى الأندلس، نذكر من هؤلاء عائلة ابن منظور . . وابن دحية والتيفاشي القفصي وابن سعيد. وإلى هذين الأخيرين يعود الفضل الكبير في انتشار أدب المغاربة في المشرق. وأنت لا تكاد تراجع كتابا موسوعيا من كتب الأدب والتاريخ في المشرق الا ولهما فيه ذكر متعدد . . وعنهما نقول لا تحصى.

ولقد بلغت عناية بعض المؤلفين المشارقة بالأدب المغربي أن خصصوا له أجزاء من موسوعاتهم، كما فعل العماد في الخريدة (43) والعمري في المسالك (44) . . وفي هذا دليل على أن

عنايتهم بنا قد صارت كبيرة وعادلة . بل ان مؤلفات بعضهم أصبحت اليوم هي المصدر الوحيد عن عدد كبير من شعرائنا وأدبائنا . . ذلك لأن الأصول التي نقلوا عنها قد ضاعت كلها تقريبا ولم يعد لها اليوم وجود، وكيف ينكر أحد اليوم هذه الحقيقة وذلك الفضل ونحن لم نعرف ولم نكتشف العشرات من شعرائنا ومؤلفاتنا إلا من خلال موسوعات ياقوت (45) والعماد الاصفهاني والصفدي (46) والعمري (47) أو في مؤلفات البيهقي (48) وابن ظافر (49).

وخلاصة ذلك كله أن وهما سيطر على أجدادنا في قرونهم الاسلامية الأولى . . ثم انتبهوا له وعالجوه بأسلوب فعال وعملي . . أي أسلوب الحضور في المكان والمجابهة بالانتاج الجيد وبالفائق المبهر.

إن القوم هنالك ظلوا لا يعرفون عنا شيئا . . لأننا لم نقدم لهم شيئا أو قدمنا نماذج غير صالحة أو غير جيدة . . ويوم قرأوا لنا ما يستحق الاحترام اعتبروا العمدة والمقدمة . . وحتى العقد الفريد وزهر الآداب (50) من أمهات الكتب في الأدب، وعنوا بأصحابها وباخبارهم ومؤلفاتهم . . بل عنوا حتى باصحاب العاهات من شعرائنا، فهذه بعض كتبهم المختصة بهذا (51) تحدثنا عن نوادرهم

وأشعارهم . . كنوادر ابن رشيق الأحول وابن شرف الأعور وابن الناجحون الأعمى . . و . . و . . ؟

كل ذلك وهم يعيشون في عصور تباعدت فيها المسافات . . وساد في معظمها الاستبداد والظلم والفتن وعدم الاستقرار . . كما كثر فيها اللصوص وقطاع الطريق الذين لم يسلم منهم حتى ابن خلدون ـ على براعته في التخلص والهروب ـ فسلبوه في مرة واحدة جميع ما كان معه حتى الثياب التي يرتديها.

ولكن . . ماذا عن أدبنا في هذا العصر ؟ هذا العصر الذي ظهرت فيه الطباعة وزالت بين أقطار الأرض المسافات وأخطار الطريق . . وصار المسافر يقطع في ساعتين الرحلة التي كان أجدادنا يقطعونها بحرا في شهر أو شهرين وبرا في ستة شهور أو سنة. وارتبطت شعوب الأرض واقطارها بشبكة من الاتصالات والمواصلات البحرية والبرية والجوية بل والفضائية مما لم يكن في القديم حتى مجرد أحلام . . إذا استثنينا بساط الريح وتلك المغامرة العلمية الفريدة العجيبة في آن . . والتي كانت الأولى في تاريخ الطيران . . اعني مغامرة العالم الفلكي الرائد ابن فرناس الأندلسي (52).

اليوم . . والمطابع التونسية تضيف كل يوم كتابين إلى

الرفوف، وتسحب ربع مليون نسخة من الدوريات . . وعندنا وزارة للثقافة منذ ربع قرن . . وعشرات الصحف والمجلات التي صدرت في الماضي أو تصدر اليوم، وبالطبع عندنا سفارات في جميع العواصم العربية، وبها ملحقون ثقافيون وآخرون اعلاميون (53)

يضاف إلى ذلك أن تونس، ومنذ عشر سنوات أصبحت مركزا دوليا وعاصمة لعديد المنظمات والمؤتمرات العربية، والوفود المشرقية تأتي إلينا كل يوم، ووفودنا الرسمية والعلمية والأدبية تذهب لعواصم العرب الشرقية بلا انقطاع وبشكل مكثف . .

اليوم، وفي ظل هذه الظروف المساعدة والأوضاع المواتية يحق لنا ويليق بنا أن نتساءل : ما هو صدى أدبنا في المشرق ؟

للحقيقة التاريخية نؤكد هنا أن ذلك التواصل العريق وتلك المعرفة القديمة بنا وبأدبنا لم ينقطعا قط . . وإن اعتراهما في فترات معينة فتور أو تناقص، خاصة في زمن الاضطرابات أو الحكم الأجنبي للجناحين . .

وللحقيقة التاريخية نقول ونؤكد أيضا بان عددا غير قليل من العلماء والأدباء التونسيين قد اسهموا في نهضة المشرق

العربي والاسلامي منذ مطلع القرن الماضي (54) وقد استمر ذلك حتى إعلان الاستقلال الرسمي عام 1956، والأسماء هنا كثيرة بل ان فترة الاستعمار الفرنسي بالذات كانت سببا في هجرة العديد من رجال السياسة والعلم والأدب التونسيين الـذين إستقروا كامل حياتهم أو بعضها في عواصم العرب الشرقية وخاصة القاهرة ودمشق وبغداد (55) وبالطبع كان لهم حضورهم المكثف في عاصمة الخلافة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، بل وإلى سنوات قليلة خلت حيث توفي آخر مهاجر تونسي ذو ثقافة عربية عاش في الآستانة زهاء سبعين سنة من عمره المديد وهو الشيخ محمد الصفائحي (56) ابن المصلح الثائر الشيخ اسماعيل الصفائحي (57).

وبالمقابل أسهم عدد غير قليل من أعلام الشرق وأفذاذه في نهضة تونس الأدبية والثقافية الحديثة انطلاقا من منتصف القرن الماضي وحتى مطلع الحرب العالمية الأولى.

ومن ينسى تلك الأسماء اللامعة مثل رشيد الدحداح (58) السمسار الكبير؟ وعلاقاته الحميمة مع محمود قبادو وما أفرزته من أدب (59) وحمزة فتح الله (60) ودوره الهام في جريدة الرائد التونسي وصداقته العميقة للوزير حسين، وفارس الشدياق (61) الذي اعتنق الاسلام في تونس لأسباب وفي ظروف لم يكشف عنها النقاب حتى الآن، ثم ابنه سليم ومحمد طلعت

ونـجـيـب ملحـمـــة وجميل خوري الـــذي جمع ديوانـــا من خصوصياته ومدائحه في اعيان الادارة التونسيين (62).

ولا ننسى هنا دور الأميرة نازلي (63) التي كانت أول إمرأة شرقية أو تونسية جعلت من بيتهـا في القـاهرة ثم في تونس صالونا يلتقي فيه رجال الأدب والفكر والاصلاح وتوضع في جلســاته مشاريع النهضة والتغيير. ففي بيتها بالقاهرة نبتت أفكار قاسم أمين حول تحرير المرأة بإيحاء منها (64) وإلى بيتها وصالونها في تونس جاء يسعى رجل الاصلاح والنهضة ومجدد الفكـر الاسلامي الحديث الشيخ محمد عبده (65) وكان من رواد صالـونها في القـاهـرة. ولعلني أزعم بأن زيارته الثانية لتونس (1903) كان من أسبابها الخفية أشواقه إلى اللقاء بالأميرة نازلي المرأة الذكية المثقفة بعديد اللغات والمتفتحة على العصر والتقـدم . . مما لم يصـل إليه كثـير من اعيان الفكر الذين كانوا يزورونها.

والأميرة نازلي هي زوجة المثقف التونسي خليل بوحاجب (تزوّجها 1898/1315) وهي في الأصل بذرة تونسية من بذور الاصلاح والأدب التي تكوّن بها والدها الأمير مصطفى فاضل حفيد محمد علي باشا على يد شيخه ومعلمه التونسي محمد بن علي التميمي في منتصف القرن الماضي (66) تماما كما كان طه حسين مدينا في شطر من تكوينه الأدبي والسياسي بل

وحتى في بناء مستقبله إلى شيخه ورائده التونسي عبد العزيز جاويش (67) هذا الرجل الفذ الذي لم ينصفه المصريون ولا التونسيون . . رغم عبقريته ونضاله العظيم من أجل وحدة المسلمين أولا ثم في سبيل تحرير مصر والعرب وتقدمهم ونهوضهم .

وكمثله في أيامه وبعدها كان لعديد التونسيين حضور مكثف في عواصم الشرق حيث توالت الأسماء وتطور أثرها من التدريس والمحاضرة والاشعاع عن طريق المجالس الخاصة والعامة إلى التأليف والكتابة في الصحف والمجلات والخطابة في النوادي والجوامع والمؤتمرات بل وإلى تأسيس الصحف والاشراف على تحريرها كما فعل خير الدين التونسي (67 مكرر) وبيرم الخامس (68) وبشير الفورتي (69) والهاشمي المكي (70)

ويقفز هنا اسم الشيخ عبد العزيز الثعالبي العلامة الرحالة والزعيم الأكبر . . الذي كان أمة وحده في علمه وجهاده وحيويته ونشاطه وفي شخصيته الفذة المؤثرة .

وإني لأزعم بأن أحدا من التونسيين المناضلين حديثا والجوابين بعلمهم قديما لا يضاهيه فيما حققه من إشعاع وتركه من صدى في معظم أنحاء اسيا والعالم الاسلامي . وها هي

كتبه وآثاره الأدبية وحقائق تاريخه المجيد العريض التي كانت محجوبة بالطاغوت المحلي والأنانية العمياء ـ تزاح عنها سجوف الظلمات والظلم، فإذا هو آية في العلم والبلاغة وفي الوطنية والجهاد وفي الحضور والاشعاع، وسوف نزداد إعجابا به وتقديرا لانجازاته وجهاده الأكبر بحق، يوم تجمع وتنشر آثاره المشتتة في صحف ومجلات العالم العربي وعند عشرات المشارقة والمغاربة الذين اتصلوا به وتتلمذوا عليه. ولعل شبابنا المثقف والجامعي لا يعلم أن دور الشيخ الثعالبي في نهضة الشرق هو أكبر من دوره في نهضة تونس لاسيما في العراق ومصر وفلسطين.

ويأتي بعد الثعالبي مباشرة رجل وديع ومتواضع ويكاد أن يكون خجولا خافت الصوت إذا ما جالسته وتحدثت إليه .. ولكنه جبار في علمه وفي أدبه رغم سلفيته ونزوعه إلى المحافظة، بحكم انتمائه العائلي وتكوينه العلمي .. عنيت الشيخ الجليل محمد الخضر حسين (71) .. هذا الذي جاهد الاستعمار الفرنسي في تونس وفي كامل بلادنا المغربية حتى حكم عليه غيابيا بالاعدام ومصادرة املاكه .. لأنه كان أحد الذين ساهموا في بعث الثورات المسلحة بالجنوب .. وكان هو والشيخان صالح الشريف (72) واسماعيل الصفائحي (73) القادة الحقيقيين للنضال التونسي في أوروبا، خلال الحرب

العالمية الأولى، ولكن بعض المزورين للتاريخ يحاولون سرقة هذا الشرف واسناده كاملا لمن كان دورهم يأتي حتما في الدرجة الثانية وذلك بشهادة الوثائق التي بدأ الآن ظهورها في أرشيفات المانيا وفرنسا وتركيا (74)

هذا الخضر حسين الذي استطاع بضلاعته النادرة في الأدب والشعر والبلاغة والعلوم الدينية أن يتصدى - كما لم يتصد عالم أو أديب غيره - في أكبر معركتين من معارك الأدب والفكر في مصر العشرينات، معركة طه حسين وكتابه « في الشعر الجاهلي » (75) ومعركة علي عبد الرازق وكتابه « الاسلام وأصول الحكم » (76) وما أثاره من قضايا حول الخلافة وهل هي من الاسلام وضرورية اليوم للمسلمين أم لا ؟

ومن يرد أن يعرف مكانة الرجل وقيمة كتبه وردوده العلمية والأدبية على هذين الكتابين فليعد إلى كتاب « مصادر الشعر الجاهلي» (77) للدكتور ناصر الدين الأسد، وإلى الدكتور محمد عمارة فيما كتبه عن قضية الخلافة وبخاصة ما نشره عنها في مجلة الدوحة الخليجية (78) .

إن ما يعنينا هنا الآن، ليس ذلك فقط بل حضوره الأدبي الطويل في مصر (40 سنة) بعد حضوره القصيرُ - نسبيا - في دمشق والاستانة، وما تميز به هذا الحضور من إسهام كبير

ومتـواصـل، لا في نهضـة مصر الأدبية والعلمية وفي تطوير أزهـرهـا بالخصوص وارتقائه إلى أعلى درجات المسؤولية فيه حتى تولى مشيخته في فجر الثورة الناصرية (52 ـ 1954) ليس ذلك فقط بل وما قام به من نشاط أدبي وصحفي ومن إشعاع تونسي في شتى الميادين (79) ويكفي دليلا على ذلك عدد المجـلات التي تولى إدارة تحريرهـا فضـلا عن مجلاتـه الخاصة وأهمها مجلة « الهداية الاسلامية » التي عاشت معه، ومع جمعيتها التي تحمل اسمها، مدة ثلاثين عاما، وكانت كما كان هو صوت تونس الأدبي والوطني والديني والثقافي في مصر وفي أنحـاء العـالم العربي، هذا فضلا عن عشرات الكتب والمحـاضرات وفي طليعتها كتاباه الفائقان « نقض كتاب في الشعر الجاهلي » و « نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم » (80) يضاف إلى ذلك كله مئات المقالات التي كانت ـ كما كان هو ـ بحق إشعاعا للأدب التونسي في معظم أوساط الأدب والثقافة في مصر والشام وخاصة أوساط الأزهريين.

صحيح أن تركيز الشيخ الخضر، من النـاحيتين الأدبية والتاريخية كان على جماعات الزيتونيين، وخاصة منهم شيوخه وأصـدقـاءه الـلامعـين، كعمـر بن الشيخ وسالم بوحـاجب والطاهر ابن عاشور وعلي النيفر . . لكن هذا بالنسبة إليه كان أمرا منطقيا بحكم ظروفه وانقطاع صلاته بتونس إلا مع هؤلاء.

وصحيح أنه قامت بتونس في مطلع الثلاثينات معارضة لأفكاره الأدبية والدينية المحافظة، كموقفه هو من دعوة الحداد إلى تحرير المرأة (81) وموقف الشابي والمهيدي (82) والسنوسي (83) من آراء الخضر الأدبية.

لكن من الصحيح أيضا أن كتاب الشابي «الخيال الشعري عند العرب» (84) كان في عمقه الخفي معارضة لكتاب الشيخ الخضر حسين «الخيال في الشعر العربي» المطبوع لأول مرة في القاهرة عام 1922، اي قبل طبع كتاب الشابي بسبع سنوات، وأنا، وإن كنت أعتز بالرجلين العظيمين فاني أختلف معهما في الكتابين.

لقد توسعت كثيرا في الحديث عن الثعالبي والخضر حسين لأننا نعتقد أن دورهما في المشرق هو الذي لفت أنظار واهتمام المثقفين العرب هناك إلى أن تونس لها تاريخ أدبي وثقافي هام جدا، وأن فيها نهضة حديثة وأدبا جديرا بأن يعرف ويدرس، ثم لأن إشعاع الرجلين مازال قائما يضيء الكتابات والعقول إلى اليوم، خاصة في مصر والعراق وبلاد الشام.

وبالطبع هناك أسماء أخرى كان لها أيضا دورها وان اختلف في حجمه وطابعه وربما في بعض أهدافه عن دور الرواد من أمثال الفورتي وبيرم والثعالبي والخضر حسين.

ومع ذلك كله وبعد ذلك كله فان ما يعنينا أيضا هو صدى الأدب التونسي الحديث الصادر من تونس نفسها .

في الثلاثينات كان هذا الصدى المنبعث من تونس مسموعا بشكل جزئي ومحدود في مصر والعراق وسوريا . . وكان السبب فيه هو التبادل الأدبي . . سواء عن طريق المبادلات الصحفية أو العلاقات الشخصية التي كان الرائد فيها بلا جدال ، الشابي والفورتي والسنوسي وآخرون من الكتاب والصحفيين من أمثال الطيب بن عيسى ومحي الدين القليبي ومحمود أصلان ، وهذا الأخير له دور هام في التعريف بالأدب التونسي في مجلات وصحف القاهرة وبيروت الناطقة بالفرنسية وله دور مماثل في باريس والجزائر فضلا عما قام به في تونس[85].

ونحن نجد آثار هؤلاء وغيرهم في مجلات الهلال والرسالة والاخاء وغيرها في مصر. وبالطبع نجد الصدى أقوى في المجلات التي أصدرها وأشرف عليها صديق الشابي وصديقي المرحوم أحمد زكي أبو شادي وجماعته الأدبية وعلى رأسها الصديق المرحوم مصطفى عبد اللطيف السحرتي وبالخصوص مجلات « أبولّو » و« الامام » و« أدبي » .

أما في سوريا فان الصدى أضعف والاهتمام أقل وان كانت الريادة هنا للمرحوم حسن حسني عبد الوهاب من خلال ما

نشره (86) في مجلات القبس والمقتبس وكلتاهما لصديقه محمد كرد علي ثم في مجلة مجمع دمشق . . ونجد بعض الصدى في مجلة الحديث الحلبية للصديق المرحوم سامي الكيالي . .

ثم نعود لمصر لنذكر بعد مجلة المنار مجلات الزهراء والفتح والرابطة العربية والرسالة والثقافة.

ويتطور الأمر بعد الحرب العالمية الثانية فيبرز الاهتمام بنا في المجلات الجامعية أو المجلات المختصة مثل حوليات كليات الآداب ومجلات المجامع ومجلة الكتاب والمجلة التاريخية المصرية. ثم مجلات الأديب والآداب والعرفان والقلم الجديد . . .

أما في مجال التأليف والدراسات والكتب المدرسية فان الأب لويس شيخو كان سباقا بكتابه « تاريخ الآداب العربية » بأجزائه الثلاثة (87) فقد اظهر عناية ملحوظة بعدد من أعيان أدباء تونس في القرن التاسع عشر والربع الأول من هذا القرن وان كان اهتمامه جاء محدودا في اسمائه ومعلوماته (88) ويأتي بعده مؤرخو الأدب العربي الذين يمكن اعتبارهم الوحيدين الذين امتازوا بالتقصير المخل، والمخجل أحيانا، تجاه الأدب التونسي قديمه وحديثه على السواء، فكلهم تقريبا، الا بعض المتأخرين منهم أمثال عمر

فروخ وحنا الفاخوري الذي تدارك نفسه في كتبه المتأخرة، وذلك عقب لقائنا بلبنان، اكثر من مرة في مطلع الستينات، كلهم تقريبا كانوا في متابعتهم لعصور الأدب العربي ومراكز الحياة الأدبية، يقفزون من مصر إلى الأندلس وكأن ما بينهما من أقطار وشعوب ليست عربية ولا تنتمي إلى حضارات العرب وآدابهم. لذلك فهم لا يكادون يذكرون شيئا ذا بال عن فكرنا وأدبنا الا بعض الأسماء التي هي، في نظرهم، أندلسية أو مقيمة في مصر . . كابن هانىء وابن زيدون وابن منظور وابن خلدون.

في طليعة هؤلاء نذكر جرجي زيدان والزيات والرافعي وطه حسين واحمد أمين ومارون عبود . . (89).

ومايزال الأمر كذلك تقريبا في الكتب اللاحقة، وان كانت البرامج المدرسية في معظم الأقطار الشرقية تعنى اليوم، بعض الشيء بنهضتنا وتاريخنا السياسي أكثر من عنايتها بأدبنا، ويكاد الشابي أن يكون الشاعر الوحيد المقرر في جميع البرامج المدرسية.

وهنا يجب أن نستثني مبادرة وحيدة قام بها طه حسين عام 1944 حين سعى بنفوذه لدى وزارة المعارف المصرية لتطبع على نفقتها كتابا كاملا من نصوص الأدب التونسي وضعه

حسن حسني عبد الوهاب . . وسماه « المنتخب المدرسي من الأدب التونسي » وكانت طبعته الأولى قد تمت بتونس خلال الحرب العالمية الأولى (٩٥) ولكن هذه المبادرة لم تتكرر . . وهي نوع من المجاملة والتقدير الخاص من طه حسين نحو صديقه التونسي، أكثر مما هي موقف رسمي أو اختيار دائم بدليل ان اية اشارة لم ترد في هذه الطبعة نحو الغاية أو السبب الذي تولت من أجله وزارة المعارف المصرية طبع الكتاب .

وننتقل بعد ذلك إلى المستوى الجامعي لنقول بان الجامعات المصرية منذ الثلاثينات وجامعات سوريا والعراق منذ الخمسينات قد ظهرت فيها أجيال جديدة ازداد اهتمامها باقطار المغرب العربي تاريخا وأدبا بل وحتى في ميادين السياسة والاقتصاد والجغرافيا، وهنا تجب الاشادة بدور الرواد في هذه الدراسات الجديدة المتسمة في معظمها بالطرافة والمنهجية .

في الطليعة يجب ان نذكر محمد عبد الله عنان وحسين مؤنس ومحمد محي الدين عبد الحميد وأحمد أمين وطه حسين وزكي مبارك وعبد العزيز الأهواني ومحمود مكي وشوقي ضيف وحسين نصار ومحمد أبو الفضل إبراهيم وابراهيم الأبياري وطه الحاجري وجمال الدين الشيال وغيرهم من المصريين . . أما في العراق وبلاد الشام فنكتفي بذكر فؤاد

البستاني ويوسف أسعد داغر واحسان عباس ووداد القاضي وعدنان الخطيب وعبد الرحمان ياغي وهلال ناجي ومحمد رضا الشبيبي وأمين الطيبي . . . الخ

غير أننا نلاحظ أن معظم جهود هؤلاء وغيرهم قد إنصرفت إلى الآثار الأندلسية وكأنهم بهذا يؤكدون شهادة ابن خلدون في قومه المغاربة بأن ملكة العربية فيهم ضعيفة. على أن البعض إنصرف إلى ابن رشيق والحصري وابن شرف والقابسي وابن خلدون وبخصوص هذا الأخير ينبغي أن نشير إلى أنه منذ أن أشرف الشيخ نصر الهوريني على طبع المقدمة في منتصف القرن الماضي لم يتصد أحد للبحث حول ابن خلدون، سواء عن حياته أو مقدمته، برغم ان المقدمة أعيد طبعها في بيروت عدة مرات. ولكن بعد ان نقل للعربية محمد عبد الله عنان أطروحة طه حسين عن « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » (91) . . تغير الوضع. غير ان طه حسين ـ للأسف الشديد ـ أراد أن يتملق بعض أسَاتِذَتِهِ الفرنسيين، لهذا جاءت رسالته مملوءة بالتحامل وسوء الفهم إن لم نقل سوء القصد. . مما حمل العديد من أهل القلم للرد عليه في تونس وفي الشرق، وبالخصوص بعد أن ظهرت تأثيراتها السيئة في كتابات تلاميذ طه حسين وبعض معاصريه وفي الأجيال الموالية، أمثال محمد عبد الله عنان وسامي الكيالي وأحمد أمين

وسلامة موسى وسامي شوكت الذي دعا جهارا وفي خط حماسي رسمي إلى حرق مؤلفات ابن خلدون ونبش قبره (2 مما حمل المفكر الرائد والصديق الراحل المرحوم سـ الحصري إلى اصدار كتابه الكبير « دراسات عن مقدمة خلدون» في منتصف الأربعينات للرد عليهم والتنبيه أخطاء طه حسين بالذات . . .

وإلى ساطع الحصري يعود فضل ريادة أخرى ع تأسس على يديه، في مطلع الخمسينات بالقاهرة مع الدراسات العربية العالية، فقد بذل جهودا جبارة طيلة ا لهذا المعهد، بأن يتخرج فيه أساتذة وبحاثون ملمون بشـ المغرب العربي كلها أدبية وسياسية وفي الجـو الأخرى . . . وتحقيقا لهذه الغاية دعا العديد من علماء بـ المغربية ومثقفيها للاسهام بمحاضرات طبعت كلها في عن تلك الجوانب. ونحن مدينون له بأنه كان المحرك وا والباعث على إعداد وطبع تلك الكتب التي وضعها عن تـ وباقي بلادنا المغربية أمثال الفاضل ابن عاشور (93) وعبد كنون (94) ومحمد الفاسي (95) والحبيب بن الخوجة (96) و الكعاك (97) وأبو القاسم سعد الله (98) وآخرون (99).

ويعود الفضل لرجال آخرين، في طليعتهم الدكتور الرحمان بدوي، إلى اعادة الاعتبار لعلامتنا عبد الرحمـ

خلدون بتنظيم أول مهرجان عالمي عنه أقيم في القاهرة عام 1962 مع إقامة تمثال له بهذه المناسبة (100) أي قبل ان تفكر تونس في ذلك بعشرين عاما ؟ !

على أن الدراسات حول الأدب التونسي في المشرق، لئن اقتصر معظمها في الجامعات على الآثار القديمة والأندلسية بوجه خاص فانها خارج الجامعات شملت القديم والحديث معا . . ويمكن أن نعتبر في طليعة الذين توجهوا إلى العناية بالأدب التونسي الحديث : أبو شادي ومختار الوكيل وأنور الجندي ورضوان ابراهيم ووديع فلسطين ومحمد مندور وفوزي الميلادي ورجاء النقاش وطه حسين بما كتبه عن السد والناعوري ورفائيل نخلة اليسوعي وداغر وسهيل ادريس وهلال ناجي وشكري فيصل والبير أديب وزكي المحاسني.

ونستطرد هنا لنقول بأن أكثر الكتابات والأصداء الأدبية التي تمت في الشرق خارج الجامعات قد كانت نتيجة لعلاقات شخصية قامت بين هؤلاء وبين عدد من الأدباء التونسيين إما مباشرة وإما عن طريق المراسلة . . تماما كما حدث في النصف الثاني من القرن الماضي حين قامت علاقات حميمة وتبادل دائم في مجال الأدب بين أدباء تونسيين وآخرين من مصر ولبنان وسوريا . . مما نجد بعض نتائجه فيما أثبتته المجاميع الأدبية التي وضعها اليسوعيون في لبنان أو تقاريظ الكتب التي

نشر الـرائـد التونسي بعضها ونشر أكثرها في لواحق الكتب المعنية ككتاب خير الدين (101) وديوان قبادو (102) ورسائل المكي بن عزوز (103) هذا فضلا عن صدى تلك العلاقات في جريدة الجوائب وفي منشورات الهادي الأبياري المصري وابراهيم الأحدب والشدياق والدحداح اللبنانيين ورزق الله حسون الحلبي.

وهنا اذكر . . أنني عندما كنت في بغداد أواخر الأربعينات ومطلع الخمسينات انتقدني بعض أدباء العراق بأني متعصب لمغـربيتي لأني لا أكتب ولا أحـاضر إلا عن تونس والمغـرب العـربي مدافعـا عن قضـاياه الـوطنية وحقـه في الحـرية والاستقلال، أو معرفا بأعلامه وأدبائه كالشابي وكرباكة والحداد . . .

ولكن عندما عدت في منتصف الخمسينات لتونس ورغم مواصلة الانتاج في الاتجاه نفسه، فقد تحرك العنصريون عام 1965 لالقـاء تهمـة التمشرق على كتـاباتي ؟ والحال أنهم بالخصوص أكثر الناس جهلا بتاريخ حياتي ونوعية تلك الكتابات . .

ومن غرائب تلك الحملة الضـالة الظالمة معا، أن المقال الذي حرك عنصريتهم كان بعنوان « أدبنا ـ أي التونسي ـ بين

الانطلاق والانكماش » (104) دعوت فيه الأدباء التونسيين إلى ضرورة العمل على نشر إنتاجهم في دوريات المشرق وأسواقه، حتى يكونوا معروفين لدى نقاده وأدبائه وعامة القراء هناك. وكان ذلك مني سعيا لمزيد التعريف بالأدب التونسي وللخروج به من عزلته وانكماشه المعهود إلى حيث المجال أرحب وأوسع وليلقى الصدى اللائق به. وكان هذا هدفي دائما ومنذ أن أدركت مع نهاية الأربعينات أن المشرق العربي لا يعرف من أدبنا القديم والحديث إلا الأسماء الكبيرة كابن رشيق وابن خلدون وخير الدين والشابي (105) ثم هم لا يكادون يعرفون شيئا يذكر عن الآخرين.

واليوم ومنذ الاستقلال وبفضل الجهود التي تواصلت عن طريق العلاقات الشخصية والمراسلات وتبادل الزيارات والوفود ومعارض الكتب تحسنت معرفة المشرق لنا وزادت عنايتهم بأدبنا. غير أن ما تحقق مازال دون طموحنا ودون ما بلغته بلادنا وأدبنا من تطور وتنوع ونهضة. إذ لم يشمل الا عددا محدودا من الأسماء. لا تكوّن إطارا متوازنا عن انتاجنا أو صورة متكاملة لأدبنا، ولكنها مطابقة تماما لمستوى جهودنا وعلاقاتنا (106).

وعلى ذلك يمكن القول، وبكل تأكيد بأن أدبنا معروف اليوم في الشرق في جملته وبرموزه الكبيرة أكثر، مما هو معروف

بعامته وتفصيله وكافة أعلامه . والناس في الشرق ، أعني أهل الكتابة والاختصاص، يتفاوتون في معرفة أدبنا وانتاجنا وأدبائنا . . وليس هناك بالتأكيد من يعرفنا معرفة تفصيلية قط . ولا تصدقوا أن توفيق الحكيم أو نجيب محفوظ أو حتى طه حسين يعرفون أكثر من اسم واحد أو اسمين . وما نشر في تونس منسوبا اليهم من مقابلات أو مقالات أو مقدمات كتب انما هو منحول أو كتب على لسانهم مقابل منافع شخصية (107)، لكن مع ذلك يوجد فعلا عدد من الأدباء والمؤلفين الجادين، وبعض الباحثين المتخصصين الذين يحاولون صادقين أن تكون معرفتهم لنا وكتاباتهم عنا أعمق وأشمل وأدق .(*)

تعاليق واحالات

1) طبع في القاهرة 1955 بتحقيق ابراهيم الابياري وزميله ومراجعة طه حسين وتقديم الأبياري .

2) راجع عنه التقديم والأعلام للزركلي ج 5/44 من الطبعة 5 و جميع الاحالات في هذا البحث تعود إليها

3) ص « ص. ك . م . » من التقديم .

4) ص « تس » .

5) راجع بحثنا « كيف تأسست القاهرة منذ ألف سنة » ملحق العمل الثقافي عدد 4 ـ 4 ـ 1969 .

6) راجع عنه : الأعلام ج 7/28 . وتوفي عام 635 هـ أي سنتين بعد وفاة ابن دحية .

7) توفي 651/1253 ـ الأعلام 1/273 . الورقات لحسن حسني عبد الوهاب ج 2 ص 448 ـ 460

8) توفي بالقاهرة عام 645/1247 وكانت ولادته بها وأبوه من باجة الافريقية : راجع عنه دراساتنا المتعددة بكتاب « قفصة وعلمائها » ط 2 197 ومجلة الحياة الثقافية سلسلة جديدة عدد 2 نوفمبر 1977 ص 72 ـ 84 .

9) ت . 711/1311 . الأعلام 7/108 ومراجع رقم 8 و « حقائق جديدة عن ابن منظور » بحثنا المنشور بكتاب الملتقى الثاني لابن منظور بقفصة عام 1972 والمطبوع عام 1974 تونس .

10) رايات المبرزين لابن سعيد . ط . مدريد وط . القاهرة ص 53 .

11) ت . 685/1286 . الاعلام 5/26 .

12) ت 456/1064 . الاعلام 4/254 .

13) يستدل المغاربة بهذا البيت على عدم تقدير المشارقة لهم، والحال أن قائله سجل به عدم تقدير أهل الأندلس له : انظر « روائع البستاني » عدد 53 ص (ط).

14) الروائع الحلقة 8 عن ابن عبد ربه ص (ز).

15) نفح الطيب ج 1 ص 211 ـ 212 طبعة بيروت.

16) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج 4 ص 424 ط. بيروت 1974.

17) راجع المهدي والمهدوية لأحمد أمين.

18) لابن خلكان رأي آخر حيث يدافع عن شاعرية ابن هانىء، ويتهم المعري بالتعصب للمتنبي شاعره المفضل : (المرجع السابق ص 424).

19) استنكر أدباء القيروان نزعة التقليد التي شاعت في الأندلس ـ لدى الأدباء والأمراء ـ وقولة ابن رشيق عنهم مشهورة في كتب الأدب.

20) ديوانه بتحقيق زاهد على ص 330.

21) ت. 430 هـ. كحالة 3/277 ومجمل عبد الوهاب ص 124.

22) العمدة وقراضة الذهب وأنموذج الزمان في شعراء القيروان.

23) علي بن جعفر الصقلي ت. 515/1121. الأعلام 4/269.

24) الذخيرة في 8 مجلدات وهي مطبوعة.

25) عثمان بن عبد الرحيم الصقلي المهدوي ت. بعد 561/1166. الأعلام 4/208

26) المطرب من أشعار أهل المغرب، وله كتب أخرى.

27) مات بتونس مقتولا بأمر السلطان الحفصي عام 658/1259. وكتبه كثيرة وأهمها في هذا السياق : « الحلة السيراء » و « اعتاب الكتاب » و « تحفة القادم » وكلها مطبوعة.

28) من كتبه الباقية : « سرور النفس » و « نزهة الألباب » وكتاب في البديع.

29) كتابه « زاد المسافر » وهو أبو بحر صفوان بن إدريس ت. 598/1201 وكتابه مطبوع.

30) كتبه كثيرة جدا، وأهمها هنا : المرقص، رايات المبرزين، والغصون اليانعة وكلها مطبوعة. كما طبعت أجزاء من الحلى.

31) معلوم ان الأجزاء الخاصة بالمشرق تسمى « المشرق في حلى المشرق » والخاصة بالمغرب تسمى « المغرب في حلى المغرب ».

32) سماها التيفاشي : « فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب » وهي التي اختصر معظمها ابن منظور في كتاب متعدد الأجزاء وصلنا منه جزآن باسم « سرور النفس . . ».

33) طبع بيروت عام 1980

34) نسخته الوحيدة مازالت مخطوطة، ومعظمها بخطه.

35) منه نسخ قليلة ولم يطبع مع أنه ترجم للفرنسية وطبع عام 1971 بباريس.

36) لنا متابعة للنقول والكتب المتصلة به في دراستنا المخطوطة عنه (راجع عنها جريدة العمل 22 ـ 9 ـ 72).

37) هدية العارفين ج 1 ص. 94 لاسماعيل باشا البغدادي. ط. تركيا 1951.

38) نفح الطيب ج 1 ص 210 ـ 211. ويندرج في موضوعنا كتاباه المطبوعان المرقص والمطرب ورايات المبرزين.

39) عن بكر بن حماد راجع : اعلام الجزائر ومجمل عبد الوهاب ص 72.

40) توفي عام 418/1027. كحالة ج/30.

41) توفي نحو 400/1010. الاعلام 5/313.

42) في كتاب دمية القصر للباخرزي ـ مثلا ـ ذكر مغربيا واحدا هو تميم الفاطمي.

43) طبعت الأجزاء الخاصة بافريقية والأندلس طبعتين بتونس (3 مجلدات) وطبعة مصرية بها نقص في مجلدين.

44) خصص الجزء الحادي عشر بشعراء تونس وباقي المغرب والأندلس.

45) معجم الأدباء وتناثرت معلومات متفرقة في معجمه للبلدان

46) في كتابه الكبير: الوافي بالوفيات: وقد تم طبع زهاء العشرين مجلدا منه

47) اعتمد العمري بالخصوص على كتاب ابن رشيق عن شعراء القيروان ونقل معظمه في الجزء الحادي عشر المذكور سابقا.

48) في كتابه المخطوط « وشاح الدمية ».

49) في كتابه « بدائع البدائه » وهـو مطبوع.

50) للحصري أبي اسحاق القيرواني، وهو شبيه بالعقد الفريد في جمعه لنصوص أدبية كلها مشرقية الا ما ندر. وهو مطبوع عدة طبعات بتحقيقات مختلفة، كلها تمت في القاهرة باشراف محققين مصريين، ومثله كتابه « جمع الجواهر . . ».

51) انظر عنهم « نكت الهميان في نكت العميان » وهو مطبوع و « الشعور بالعور » وهو مخطوط. وكلاهما للصفدي.

52) عالم أندلسي مدهش (ت 887/274) فهو أول من صنع قبة فلكية للبحث العلمي وكان عالما بارعا في الفلك والرياضيات ومخترعا. وقد حاول الطيران وحقق فيه بعض النجاح. لكن أحدا من العرب لم يواصل تجاربه. راجع عنه الأعلام 3 / 264.

53) جميعهم، مع الأسف الشديد، لا علاقة لهم لا بالاعلام ولا بالثقافة.

54) انظر دراستنا عن « دور الزيتونة في النهضة العربية الاسلامية المعاصرة » في مجلة « المنهل » السعودية عدد سبتمبر 1987 والمعاد نشرها في جريدة الصباح عدد 19 ـ 1 ـ و 5/2/1988.

55) انظر بحثنا عن المهاجرين التونسيين في كتاب « ملتقى الذاتية الثقافية

والضمير القومي داخل المجتمع التونسي » ط 1974 .

56) تعرفنا عليه شخصيا في استنبول في مطلع السبعينات. ترجمته غير كافية في معجم محمد محفوظ « تراجم المؤلفين التونسيين » حيث أشار إليه عرضا في ترجمة والده ج 3 ص 233 ـ 235 .

57) لنا عنه وعن ابنه السابق دراسة مخطوطة (أذيعت عام 81) وانظر ما ترجمه به محفوظ في الاحالة السابقة .

58) ترجمته في « مصادر الدراسة الأدبية » لداغر ج 2 ص 361 .

59) راجع كتاب الدحداح « قمطرة طوامير » المطبوع بباريس 1880 .

60) من أصل تونسي، ترجمته في الاعلام ج 4 ص 17 . وتوفي عام 1929 .

61) مراجعه كثيرة ويكتفي بالأعلام 1/193 ومصادر الدراسة الأدبية ج 2 ص 471

62) له ديوان صغير مطبوع عام 1926/25 جمع فيه شكواه من غربته وعددا من قصائد المديح والاخوانيات.

63) راجع عنها بالخصوص الجزء الأول من مذكرات محمد فريد ومعجم أعلام النساء لكحالة واركان النهضة الأدبية بتونس للفاضل ابن عاشور. ولنا عنها دراسة مخطوطة.

64) مذكرات محمد فريد ج 1 ص 19 و 134 .

65) راجع عن رحلتيه إلى تونس حوليات الجامعة التونسية عدد 1966/3 .

66) ترجمنا له في البحث المذكور برقم 54 .

67) الاعلام ج 4 ص 17 .

67) مكرر أسس في الاستانة جريدة « السلام » وانتدب لتحريرها صديقه جبرائيل دلال الحلبي وصدر عددها الأول يوم 23 ـ 7 ـ 1879 . وانتهت بعدد 11 .

68) أسس جريدة الاعلام عاشت في القاهرة نحو خمس سنوات من 1884 إلى أن توفي عام 1889 .

69) ترجمنا له في جريدة الرأي عدد 1987/3/20 وله دور صحفي كبير في عديد الصحف العربية بالمشرق والمهجر الأمريكي. وكان محررا بجريدة « الهلال العثماني » في الاستانة لصاحبها عبد العزيز جاويش.

70) ترجمنا له في دراستنا المطولة، المذكورة برقم 54 ولصديقنا على مصطفى المصراتي كتاب عنه بعنوان « كفاح صحفي ».

71) انظر كتابنا عنه « محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق » ط. تونس 1973.

72) و 73) لنا عنهما دراسة مخطوطة (أذيعت عام 81) راجع عنهما أيضا تراجم محفوظ. وكتاب د. محمود عبد المولى عن الجهاد التونسي الليبي (1914 ـ 1918) وهو بالفرنسية.

74) انظر ما كشف عنه باحث الماني من مكانة كبيرة ودور بارز لصالح الشريف (من خلال وثائق المانية) حوليات الجامعة التونسية عدد 24 سنة 1985.

75) حوكم من أجله طه حسين وأتلفت نسخه لكننا نحتفظ بنسخة أصلية منه في مكتبتنا.

76) طبع في ظروف سياسية معقدة عام 1925 فور الغاء الخلافة ونحتفظ بنسخة من طبعته الأولى التي تمت باشراف مؤلفه. أما طبعات بيروت اللاحقة فهي تجارية وفي بعضها تصرف غير علمي.

77) صدرت طبعته الأولى عن دار المعارف بالقاهرة عام 1952 والثانية 1962.

78) أعداد سنة 1987.

79) للشيخ الخضر نشاط سياسي ووطني للدفاع عن تونس والمغرب العربي : راجع ذلك في كتابنا عنه.

80) طبع الأول عام 26 والثاني قبله بسنة.

81) انظر كتابه « رسائل الاصلاح » ج 3 ص 29 أو كتابه « بلاغة القرآن

ص 132 وهو من تنسيق حفيده للأخ.

82) عن موقف الشابي راجع « رسائل الشابي » التي جمعها الحليوي وقدمنا لها ونشرناها عام 1966 وعن موقف المهيدي مجلة الندوة عدد خاص بالشابي (اكتوبر 1953).

83) راجع مجلة السنوسي « العالم الأدبي » وكتابه عن الشابي.

84) طبعته الأولى عام 1929.

85) توفي أصلان في 1981 وله كتب أدبية مطبوعة بالفرنسية، ومخطوطة بها وبالعربية عدا الصحف والمجلات التي ساهم بتأسيسها والتحرير فيها.

86) مما نشره « رسائل الانتقاد » لابن شرف وقد أعاد صديقه محمد كرد علي نشرها مع اعمال اخرى في كتابه « رسائل البلغاء » عدة مرات.

87) طبع الأول عام 1924 والثاني والثالث عام 1926

88) ابرز الأسماء التونسية في الكتاب : محمد بن عمر التونسي، سليمان الحرائري، سالم بوحاجب، ابن أبي الضياف، بيرم الخامس، الباجي المسعودي، صالح السويسي..

89) لم يذكر عبود في كتابه « أدب العرب » الذي أرخ به الأدب العربي في جميع عصوره وأقطاره سوى أدب الأندلس، مقحما فيه ابن حمديس الصقلي، ذاكرا قبله سطورا قليلة عن ابن هانىء، وابن رشيق. والشاعر التونسي الحديث، والوحيد، الذي تحدث عنه باطلاق هو مصطفى خريف؟ ولكن في كتاب آخر له هو « دمقس وارجوان » ؟ وهو سابق في الطبع عن كتابه « أدب العرب ».

90) طبع عام 1336 هـ بعنوان : « المنتخبات التونسية للناشئة المدرسية » ولم تختلف عنه من حيث المادة والتبويب طبعة مصر.

91) ط. 1 ـ القاهرة 1925 باشراف لجنة التأليف والترجمة والنشر.

92) راجع ردودنا عليهم جميعا في كتابنا « العرب وابن خلدون » في أي من طبعاته التونسية أو اللبنانية.

93) في كتابه « الحركة الأدبية والفكرية بتونس » الذي حاضر به طلبة المعهد عام 1955 وطبعه المعهد 1956 .

94) أحاديث عن الأدب المغربي الحديث ط 1964 .

95) التعريف بالمغرب ط 1961 .

96) يهود المغرب العربي . .

97) مراكز الثقافة في المغرب العربي ط 1958 والحضارة في حوض المتوسط 1965.

98) تاريخ الجزائر الحديث ط 1958 .

99) من المغرب عبد العزيز بنعبد الله والجزائري صالح خرفي ومن المشرق محمد رضا الشبيبي وصلاح العقاد ونقولا زيادة . . الخ .

100) راجع عن ذلك كتاب « أعمال مهرجان ابن خلدون » الذي جمع بحوث الندوة الدولية وصور عنها وصورة تمثال ابن خلدون . ط ـ القاهرة 1962 .

101) طبعته الأولى والوحيدة للآن في المطبعة الرسمية 1867 .

102) طبعته الأولى في الرسمية 1295/1878 وأعيد طبعه مرتين .

103) توفي المكي بن عزوز في الاستانة عام 1916 وله دور رائد في زرع البذور الأولى للمقاومة السياسية للاحتلال . وله عشرات الرسائل والكتب، طبع الكثير منها .

104) نشر في العمل عدد 1965/10/29 ومقالنا الحاسم « أدبنا ضد الحقد » المنشور في العمل عدد 65/12/3 .

105) انظر المقدمة والقسم الأول من كتابنا « آثار الشابي وصداه في الشرق » ط بيروت 1961 .

106) من مظاهر تقصيرنا أن أكثر من 90 ٪ من كتب تراثنا المغربي والأندلسي قد تم تحقيقه ونشره في المشرق مما ينفي تماما دعاوي بعضهم بان المشرق قليل العناية بنا ماضيا، اما الحاضر فان الاهتمام على مستوى جهودنا وحضورنا .

107) انظر مقالنا بتوقيع « ابن المقفع » في الملحق الثقافي لجريدة الحرية عدد 14 يوم 88/6/23 . وكذلك جواب نجيب محفوظ الذي يؤكد انه لا يعرف عن الأدب التونسي الاكتاب اسمه « السد » ولا يتذكر اسم مؤلفه ؟ إ راجع مقابلة البلاجي معه في الملحق نفسه عدد 13 بتاريخ 88/6/16 .

(*) مجلة المسار س 1 . ع 1 . (خريف 1988) .

الأدب العربي
من الوثنية إلى التطور

لقد مر الأدب العربي بأطوار كثيرة وعانى تجارب شتى ومحنا متعـددة، شأنـه في ذلك شأن كل الآداب الأخرى التي لها جذور عميقة وتاريخ قديم، لكننا نريد فقط أن نقف وقفة تأمـل واستنتـاج مع العصر الحـديث بعـد ان نمر مسرعين بعصور أدبنا الماضية ملاحظين عنها ما نراه أكيدا وضروريا في هذا السياق.

كان الأدب في الجاهلية شعرا كله تقريبا، وهو يكاد يقتصر على حدود ضيقة جدا من الحياة، فقد كان الشعر الجاهلي مرآة حياة الفـرد، وصـدى مفاخر القبيلة. وكان الشاعر للقبيلة لسانا يذود عنها ويحمي أعراضها ومفاخرها بين القبائل، لهذا كان اعتـزاز القبائل بشعرائها يساوي تماما اعتزازها بأبطالها الشجعان وسيوفها المظفرة. وهكذا كان الشعر الجاهلي يمثل تعصبـا أعمى كما في شعر المهلهل، وحمية قبلية كما في شعر حسان بن ثابت قبل الاسلام وحتى بعده، وفوضوية ساخطة كما في شعـر الحـطيئة، وشهوات جامحة كما في شعر امرىء القيس . . وحكما إختبارية كما في شعر زهير. وباستثناء هذا

الأخير - اي زهير - الذي تظهر في شعره نزعة انسانية معادية للحرب ، فاننا نكاد لا نجد في الشعر الجاهلي مزايا أو صفات تؤهله لأن يكون المثل الأعلى، يحتذيه كل الشعراء وفي كل العصور. ولكن الذي حدث فعلا في التاريخ هو العكس تماما . . فقد بقي الشعر الجاهلي الوثن المقدس عند كل الشعراء وفي جميع العصور.

وإذا كان الاسلام قد قضى على الوثنية الدينية والاجتماعية والفكرية التي كانت شائعة بين العرب في الجاهلية ، فان الوثنية الأدبية قد استمرت في اداء دورها المدمر إلى يوم الناس هذا .

ورغم تطور الحياة والثقافة العربية تطورا كبيرا ، وخطيرا أحيانا ، في مختلف العصور الاسلامية وخاصة بالأندلس وبغداد في عهد العباسيين ، فان الأدب ، والشعر منه بوجه خاص ، قد احتفظا بروحهما القديم وخصائص الجاهلية كلها ، ولم يحدث فيهما من الانقلاب والتطور ما كان منتظرا حدوثه في آداب امة جمعت اطراف الدنيا القديمة تحت سلطانها وثقافات البشر في عقول أبنائها .

نعم . . . لقد ثار عدد من الشعراء على تقاليد الشعر القديمة وطرائقه الجاهلية ، من مثل الوقوف على الاطلال

وبكـــاء الآثـــار، أو استهـــلال القصيدة بالغـزل الكـاذب المصطنع، فكان بشّار يقول :

كيف يبكي لمحبس في طلــول
مـن سيفضي لحبس يوم طويــل
إن في البعث والحساب لَشُغْلاً
عن وقـوف برســم دار محيــل

أما أبو نواس فكان أوضح من بشار في فكرته التحررية ودعوته إلى الانطلاق من قيود الشعر الجاهلي، وذلك في قوله مثلا :

عاج الشقيّ على رســم يسائلـهُ
وعجـت أسأل عن خّمـارة البلـد
يبكي على طلل الماضين من أســد
ثكلت أمك . . قل لي من بنو أسد

لكن هذه الثورة كانت جزئية وعلى الهامش فقط، ذلك أن شكل القصيدة بقي كما هو بحذافيره.

وأما الموضوعات فقد تغيرت ألوانها وبعض معانيها ولم تتغير هي نفسها، بل أن الثائرين على القديم قد عادوا فتمسكوا هم أنفسهم بقواعده وأساليبه وخضعوا له مختارين كما فعل بشــار وصــاحبــه في مدائحهما بالخصوص، مما يقرب اعتبار ثورتهما ثورة شعوبية هدامة لا نزعة أدبية مجددة.

أما النثر فان سيره كان اوفق ومصيره احسن ، فقد تطور مع العصور في الأساليب والبحث والموضوعات بما يتفق وسير الحضارة الاسلامية والفكر العربي المتكر، لكنه لم يسلم أيضا من عثرات جسام أودت به في النهاية إلى التدهور والانحطاط ، فقد انحصرت غايته في كتابة الرسائل السلطانية ودواوين الخلفاء ولولا ميادين العلوم والتدوين الأخرى لكان حظ النثر أسوا من حظ الشعر، بل انه قد انحط تماما عند ما اصابه وباء الأساليب الصناعية فصار سجعا ركيكا وألفاظا منمقة لاهدف لها ولا موضوع . وقد كان هذا هو الحال طيلة سبعة قرون تقريبا، اي من سقوط الخلافة العباسية ببغداد تحت ضربات المغول في منتصف القرن السابع إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري . ولم تلمع خلال هذه الفترة الطويلة المظلمة الا اسماء قليلة اعظمها، وأهمها اسم علامة تونسي فذ هو (عبد الرحمان بن خلدون)، الذي فتح بمقدمته الشهيرة آفاقا شاسعة مضيئة ، لا بتفكيرها وابتكاراتها فقط ، ولكن أيضا بأسلوبها وبما عبر عنه هذا الأسلوب من مشاكل حضارية عميقة وقضايا انسانية خالدة .

وقد كانت مقدمة ابن خلدون أساسا قويا من أسس اليقظة الأدبية والفكرية في العصر الحديث ، بالرغم من زيف التهم وأباطيل الأبحاث التي دبجتها أقلام عدد من كبار أدباء العرب في الشرق .

وعلى هذا يمكن القول دون مجازفة أو مبالغة بأن الأدب العربي في عصوره الماضية لم يتصل بالحياة الشعبية ولم يقف مع الجماهير في كفاحها المرير وثوراتها الباسلة من أجل العدالة والحرية ورفع شأن الانسان في الأرض. (١)

وإذا استثنينا نزعة السلام عند زهير، ولمحات العدالة والكفاح في شعر الشعراء الصعاليك والخوارج، وثورة أبي العلاء المعري على تقاليد عصره وما كان يعانيه الانسان من امتهان وظلم في كرامته وحقه وفكره وانسانيته . . اذ استثنينا هذا . . فاننا نكاد لا نظفر بشيء يمكن اعتباره بحق غذاء صحيا نافعا لعقول ناشئتنا وأجيالنا وحياتنا الثائرة المتحركة الصاعدة.

وقد أدرك هذه الحقيقة الخطيرة الضخمة عدد يتزايد باستمرار من أدباء عصرنا منذ فجر نهضته إلى اليوم. فحاولوا بمستويات وامكانيات وافهام متفاوتة ان يتداركوا هذا الفراغ الكبير، وان يساهموا في حياة امتهم ونهضتها ـ وفي ثورتها أحيانا ـ بأقلامهم وألسنتهم وبايديهم وحياتهم أيضا.

فكان الرصافي والزهاوي في العراق، وأبو ريشة ومردم في سوريا، وطوقان وعبد الرحيم في فلسطين، وجبران والريحاني في لبنان، وحافظ ومطران في مصر، وخزنه دار والحداد وسعيد

أبو بكر والشابي في تونس. وغيرهم كثيرون في أقطار عربية أخرى.

كما توالى الشعراء الثائرون والمكافحون بعد ذلك، واتسع وعيهم وفهمهم لوظيفة الشعر ورسالته الاجتماعية والانسانية.

أما الكتاب فكان وعيهم ابكر ونضجهم أقوى، فقد ثار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وسليمان الجزائري وخير الدين التونسي[2] على أوضاع عصرهم الاجتماعية والفكرية والدينية، ونادوا بالاصلاح الديني والفكري الشامل، في شجاعة رائعة وجرأة نبيلة، اعتقادا منهم بان امتهم لا يمكن لها ان تنهض من جديد، وان تقف بين الأمم القوية المتحضرة الا إذا تحررت من أوضاعها المتعفنة الراكدة، تلك الأوضاع التي تكونت وتراكمت بفعل عصر الظلام والانهيار الذي أصاب الأقطار العربية على أيدي الهمج البرابرة من صليبيين ومغول وعثمانيين على حد سواء، وكذلك بفعل مظاهر الانقسام والاستبداد التي رافقت حكم ملوك الطوائف، اي من كل عدوان أجنبي خارجي أو نظام اقطاعي استبدادي داخلي.

وقد ادرك الافغاني ومحمد عبده ان الدين . . أو على الأصح تقاليده المنحرفة تلعب دورا خطيرا في حياتنا وتفكيرنا

بل وفي عدم نهوضنا ولحاقنا بالقافلة المتحضرة، فكانت ثورتهما متجهة اولا بالذات ضد الجمود والتحجر في التفكير والتعليم الدينيين ثم ضد الرجعية الدينية والسياسية التي يستند إليها الظلم ويعتمد عليها الاستعمار.

وقد اتسع نطاق هذه الثورة وتبلور وعيها على ايدي قاسم امين وعلي عبد الرازق وطه حسين والثعالبي والطاهر الحداد وعبد الحميد بن باديس وخالد محمد خالد . . إلخ . .

وقد اقترنت هذه الثورة الدينية والفكرية وتفاعلت بثورة أدبية قادها وساهم فيها رواد كثيرون اشهرهم احمد لطفي السيد ونجيب الحداد وطه حسين وسلامة موسى والريحاني وفرح انطون وشبلي شميل وآخرون كثيرون في جميع الأقطار العربية.

وهكذا توالت الثورة وتكاثرت كتائبها الباسلة، حتى باءت الرجعية وأيضا الاستعمار بالاندحار والهزيمة.

وها نحن اليوم نعيش فجر نهضة شاملة، سواء في حياتنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية.

وقد كان الأدب ـ ولا يزال ـ رائد هذه النهضة ومحركها الدائم. وما كان ذلك ليكون، وعلى الصورة الرائعة التي

حدث بها، لو لم يتحـرر الفكر العربي من جموده وتقاليده، والأدب العربي من وثنيته الجاهلية ورواسب عصور الظلام والانحطاط.

---

(1) يستثنى من ذلك أدب الجاحظ فهو الصق بالشعب منه باي طبقة أخرى.

(2) رائد تونسي مات غريبا عن وطنه عام 1877 . وهو أسبق من خير الدين ومحمـد عبـده في الدعوة الى الاصلاح . . بل أعظم جرأة وريادة في أفكاره الاصلاحية والدينية.

(*) مجلة الرواد س 4 ع ا (يناير 1968)

ملامح الماضي

ان البلاد العربية المعروفة اليوم بهذا الاسم، والممتدة من حدود مراكش الغربية على المحيط الأطلسي إلى خليج العرب جنوب العراق، ان هذه البلاد قد كانت عند ظهور الاسلام واقعة تحت الحكم الأجنبي، أو تعيش في فوضى وذعر دائمين. والقليل جدا من هذه البلاد كان يتمتع بحياة مستقرة أو باستقلال سياسي نسبي أشبه ما يكون بما يسمى بالحكم الذاتي أو الاستقلال الداخلي. ومن هذا النوع الأخير كانت دولة الغساسنة على حدود بلاد الشام، والمناذرة في سواد العراق، وقد اصطنع هاتين الدولتين كل من الفرس المستعمرين للعراق يومئذ، والروم المحتلين للشام، وكانت مصر وشمال افريقيا خاضعة كلها تقريبا للحكم البزنطي الذي كان يعاني حالات الشيخوخة والانهيار. أما أواسط الجزيرة العربية كنجد والحجاز . . وكذلك جنوبها كاليمن والبحرين وحضر موت فقد كانت تعيش في استقلال تام تقريبا، لكنها تعاني من الفتن والحروب القبلية والانقسام والتشتت ما لا يعطي لحياتها واستقلالها اي معنى تاريخي أو حضاري ذي أهمية، ولكن مع هذا كله كانت هذه الأرض بالذات تستعد لأحداث كبيرة، وتتركز فيها جذور نهضة حقيقية فعالة، بدأت مظاهرها الايجابية في مكة، وأسواق

العرب الكثيرة، وفعلت فعلها في نشر وعي محدود بين عدد ليس بالقليل من رجالات الجزيرة، سياسيين وعسكريين وأدباء. ولعل دعوة زهير للسلام، ومحاولات سيف بن ذي يزن وعنترة بن شداد التخلص من حكم الأجانب لأطراف البلاد، لعل هذه جميعا نتائج أولى لوعي صغير بدأ يحرك الأذهان والارادات العربية. ولكن من الثابت أن واقعة ذي قار قد كانت العامل الفعال في بعث الثقة في نفوس العرب بقدرتهم على الاتحاد وعلى ان يبنوا دولة تضارع دولتي الفرس والروم. وقد قدر الرسول نفسه هذه الحقيقة الفعالة، فقال عن ذي قار « انه أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نصروا » وهذه الكلمة التي قالها محمد بن عبد الله هي - كما يقول الأستاذ رئيف خوري - « رمز باق يذكرنا بيوم اجتمعت فيه الكلمة العربية من أجل اثبات الوجود ودفع الحيف » (١).

ولقد كان اثبات الوجود هذا على يد الرسول محمد، الذي جمع شتات العرب ووحد كلمتهم وصفوفهم ودينهم ولغتهم، وبذلك حولهم من قبائل متفرقة وشعوب مستعبدة، إلى أمة متحدة ودولة قوية، وقد قضت هذه الدولة في عهد عمر على دولة الفرس وقصت جناحي الروم شرقا وغربا، وبذلك حرر عمر وخلفاء بني أمية من بعده، جميع الأقطار التي

تعرف اليوم باسم الأقطار العربية وجعلوها أمة واحدة تدين بدين واحد وتتكلم لغة واحدة، ويربط بينها تاريخ واحساس مشترك.

وقد تعاقب على حكم هذه الأقطار متحدة أو متفرقة . . حكومات كثيرة بدأت بالأمويين وانتهت إلى عهد المماليك وملوك الطوائف . . وقد أقام العرب خلال ازدهار حكمهم لبلادهم، أعظم حضارة بشرية صنعها الانسان في العصور الماضية. ولكن هذه الحضارة وذلك الاتساع في النفوذ والازدهار لم يستمر اكثر من ستة قرون أي إلى نهاية القرن السادس الهجري، ثم بدأ عهد الانهيار والظلام يزحف على البلاد العربية . . وقد كانت الانقسامات الداخلية والمطامع الشخصية للرجال الجسورين سببا أساسيا في تدهور الحضارة العربية وانهيار السلطان العربي، كما كانت هناك أسباب خارجية مثل الحروب الصليبية وزحف المغول، وللفرس كذلك تأثير مباشر فيما أصاب العرب من سقوط وتفكك بفعل حركاتهم الشعوبية المخربة لكل ما كان للعرب من سلطان سياسي وعسكري، ومن دين واخلاق وآداب ولغة . . حتى ليمكن القول بان الفرس قد خربوا كيان العرب أكبر مما ساهموا في البناء.

وعندما بدأ العرب في التلاشي والتراجع. كانت أوربا قد

بدأت فعلا في التحرك والنهوض، ومن الحقائق الغريبة التي تلاحظ هنا، ان اوربا كانت سببا مباشرا في انهيار العرب وسقوطهم بينما كان العرب سببا مباشرا في نهوض أوربا وازدهارها.

أما العثمانيون الذين ظهروا كدولة قوية منذ القرن الثامن الهجري الموافق للرابع عشر ميلادي . . فانهم حكموا البلاد العربية حكما استبدادبا قائما على الاستغلال والقهر، تماما كما يفعل أي حاكم أجنبي محتل، ورغم ان الاسلام كان دين الجميع عربا واتراكا، فان العثمانيين قد استنزفوا جميع خيرات الأقطار العربية وطمسوا طموحها وبقايا حضارتها واستعانوا بالاسلام نفسه لتخدير الجماهير وجعلها تستنيم لظلمهم واستبدادهم وبذلك زادوا في تآخرها وانهيارها وافقدوها الشعور بذاتها والثقة بنفسها، وجعلوها فريسة سهلة لأوربا عندما زحفت هذه لابتلاعها بعد ان تمكنت من طرد العرب من الأندلس، وصد الزحف العثماني على اوربا.

وما ان طلع القرن التاسع عشر حتى كانت جميع بلاد العرب في شبه نوم عميق واستسلام تام. وكانت عوامل الانحطاط ومظاهر السقوط قد انتشرت وتراكمت مدى ستة قرون كاملة. وقد كان هذا الانهيار شاملا للسياسة والاقتصاد، والثقافة والآداب والحياة الاجتماعية، بل ان

الحياة والحضارة في البلاد العربية قد عادت في بعض الأقطار وفي ميادين متعددة إلى حالة تشبه حالة الانسان البدائي. وبينما كان العالم العربي يعاني هذا كله، كانت أوربا قد نهضت نهضة كاملة واستفادت بجميع الحضارات السابقة وخاصة بتراث اليونان والرومان والعرب. ولم تقف أوربا عند حد التفوق الحضاري بل ان هذا التفوق نفسه قد مكنها من اكتشاف قارات جديدة، وبسط سلطانها على القارات القديمة، ولم يبق خارجا عن نفوذها غير البلاد العربية التي كانت تحت حكم الرجل المريض أي تركيا. ولم تلبث أوربا ان دفعتها منافساتها الداخلية والخارجية إلى استعمار الأقطار العربية الواحد تلو الآخر منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة 1918.

وإذا كان العثمانيون قد اخضعوا لحكمهم جميع بلاد العرب باستثناء مراكش، فان أوربا اخضعت العالم العربي لسلطانها باستثناء اليمن والمملكة السعودية. ومثلما كان العثمانيون آخر سبب لتأخر العرب وتفككهم اصبحت أوربا سببا جديدا يعمل عمله الهدام ليعوق العرب عن النهوض وعن الأخذ الحقيقي بأسباب التفوق والقوة والحضارة. وذلك طبعا لفائدة اوربا ولكي تتمكن من ابقاء البلاد العربية ضعيفة ممزقة، يسهل عليها استغلال خيراتها وامتصاص منافعها.

والملاحظ هنا، انه عندما بدأ حكم العثمانيين للبلاد العربية يتراجع ويزداد فسادا وظلما، بدأت أوربا تتجه نحو البلاد العربية لتحل محل العثمانيين في استعمار البلاد واستغلالها. لكن أهداف هؤلاء وهؤلاء لم تعد سهلة التحقيق منذ منتصف القرن الماضي بل منذ بدايته. فقد ظهر في الأقطار العربية رجال. لهم طموح شخصي اخذوا ينافسون الحكم العثماني ويقاومونه كما يقاومون المطامع الأوربية في وقت واحد (٤) ولئن لم ينجح هؤلاء الرجال في تحقيق مطامحهم كما يريدونها فانهم قد نجحوا في شيء واحد لم يكونوا يقصدونه ولكنه قد تحقق فعلا وهذا الأمر هو زرعهم بذورا من الوعي في محيطهم اثمرت بعد ذلك تفكيرا سديدا واتاحت المجال للمخلصين من ابناء البلاد نفسها ان يبذلوا جهودا لايقاظ محيطهم من ركوده وجموده واستسلامه. ومن هنا بدأ دور الرواد الأولين في الكفاح من أجل انقاذ أمتهم من الاستبداد العثماني والاحتلال الأوربي، ومن عوامل التأخر والانحطاط التي انحدرت الينا عبر عصور طويلة مظلمة، وقد كان عمل هؤلاء الرواد الأولين صعبا شاقا، لما كان يخيم على مجتمعهم من جهل مخيف، وانحراف عن الاسلام، واستسلام شنيع للظلم والفاقة وللتقاليد الفاسدة. وزاد من صعوبة عملهم انهم كانوا مجبورين على ان يكافحوا في ميادين متعددة : ان يكافحوا ضد الاستبداد والظلم، وضد الجهل والخرافات،

وضد الرجعية والجمود. وهكذا تعددت ميادين الكفاح وتنوعت وكثرت الصعوبات والمشاكل بينما كان عدد المكافحين قليلا لا يتناسب مع قوة الاستبداد والرجعية وقوة الجهل والاستسلام. لكن الأحداث وتطورات الزمن من جهة وبذور الرواد المصلحين من جهة ثانية قد فعلتا فعلهما الصالح المتواصل، وبعثتا بالتدريج روح اليقظة ثم النهضة في الأقطار العربية على مستوى اختلف باختلاف ظروف كل قطر وامكانياته. ولم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت اليقظة والوعي قد انتشرا في جميع البلاد العربية، واخذا يفعلان فعلهما النشيط في الأفكار والحياة العربية رغما عن كل الصعوبات والعوائق الداخلية والخارجية، والفضل في ذلك يعود إلى الكفاح الشريف الباسل الذي قام به جميع المخلصين والمثقفين البصيرين، والذي كان يرمي إلى القضاء على الاستبداد والمطامع الأوربية من جهة، وإلى بعث الأمة واحياء تراثها وطموحها وشخصيتها من جهة ثانية. وبفضل كفاح هؤلاء القادة والرواد من زعماء سياسيين ومصلحين دينيين وادباء شرفاء مكافحين تدعمت نهضتنا الحديثة، وتحررت جميع الأقطار العربية من الحكم الأجنبي، ولم يبق الا جنوب الجزيرة العربية، ثم القطر الجزائري الذي يناضل عن حريته وسيادته واستقلاله نضالا بطوليا جبارا، وسيظفر باهدافه حتما رغم أنف المستعمرين.

وخلاصة القول : لقد تحررنا من الحكم الأجنبي أو نكاد، ووضعنا أسسا قوية لنهضة عميقة شامخة . . وذلك بفضل الكفاح والكفاح وحده، كفاح الجماهير . . وكفاح الشرفاء المخلصين من سياسيين وعسكريين، ومن مفكرين وأدباء .

ميادين الكفاح

ان ميادين الكفاح التي خاض غمارها روادنا الأولون وأدباؤنا المكافحون . . كثيرة متعددة، حتى ليمكن القول بانهم لم يتركوا ميدانا واحدا أو أمرا واحدا من أمور حياتنا لم يقتحموا مصاعبه ويبحثوا شؤونه ويعالجوا قضاياه ومشاكله . . وما أكثر ما كانت تزخر به حياتنا من مشاكل وقضايا ومصاعب تنحدر في جذورها إلى عصور سحيقة جدا . . يعود بعضها إلى الجاهلية الأولى . ومازالت تعيش معنا حتى اليوم تكيف تفكيرنا وتطبع جانبا من عاداتنا وحياتنا بطابع خاص .

أما ميادين كفاح أدبائنا ومفكرينا، فانها كما قدمت كثيرة متعددة، غير انه يمكن حصرها في الميادين الأربعة التالية :

1 ـ الكفاح السياسي ـ 2 ـ الكفاح الثقافي ـ 3 ـ الكفاح الاجتماعي ـ 4 ـ الكفاح الأدبي .

ولكي نفهم طبيعة هذا الكفاح في أي من هذه الميادين

ينبغي أن نعرف الأجواء والظروف التي أحاطت بالمكافحين، وان نعرف أيضا عناصر هذا الكفاح في تلك الميادين نفسها.

اما عن الاجواء والظروف فقد كانت ظروف الكفاح الاصلاحي والسياسي صعبة جدا ومحفوفة بالأخطار والأهوال، خاصة خلال القرن الماضي، حيث كانت المجتمعات العربية مستسلمة استسلاما تاما إلى أوضاعها الراكدة وحاكميها الجبارين، فلما بدأت تفتح عينيها للنور، وتتخلص من ركودها وأمراضها المختلفة كان الاستعمار الأوروبي قد جثم عليها بكلا كله وأحاطها بمخالبه وأمعن في استغلالها وارهاقها والضغط عليها، لكن هذا الضغط الاستعماري قد أدى دوره المعاكس، حيث ساهم في ايقاظ الجماهير وفي احساسها الواعي بالظلم والطغيان . . وكان هذا عاملا قويا من عوامل نجاح الشعوب العربية في كفاحها السياسي الذي انتهى بها إلى الاستقلال السياسي التام. وإذا كان لا يجوز لنا هنا ان ننسى ان نصف هذا النجاح انما يعود إلى المكافحين والمصلحين الأولين، فان من الواجب ان نذكر ان النصف الثاني من النجاح انما يعود إلى تضحيات الجماهير الكادحة وما اعطته من قابليات رائعة وامتثال فعال للقادة الظافرين والزعماء المخلصين.

أما عن عناصر الكفاح في تلك الميادين نفسها، فهي :

أولا في الميدان السياسي : مقاومة الاستبداد في عهد العثمانيين والمطالبة بالعدل والحكم الشوري ، وقد لمعت أسماء كثيرة في هذا الميدان أشهرها خير الدين التونسي ومحمد بيرم الخامس في تونس وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وعبد الله نديم في مصر وسائر أقطار الشرق العربي . أما بعد نكبة العالم العربي بالاستعمار الأوربي ، فقد تطور الكفاح السياسي وتنوعت أساليبه ، فكان كفاحا عسكريا ثم مدنيا ، ثم صار عسكريا ومدنيا . وقد كان الكفاح ضد الاستعمار أقوى وأشد من الكفاح ضد العثمانيين ، وذلك لأسباب كثيرة أهمها ثلاثة وهي :

1 ـ ان العثمانيين كانوا قد نجحوا في تخدير الجماهير باسم الدين باعتبار انهم والمحكومين يدينون بدين واحد هو الاسلام . وهذ المعنى يؤكده ان المصلحين والزعماء الذين ظهروا في ظل الحكم التركي لم يكن أكثرهم ينادي بالانفصال عن تركيا أو يطالب بالاستقلال السياسي عنها بل كانوا ينادون بالاصلاح الداخلي في نظام الحكم أو الادارة أو في جوانب الحياة الأخرى ، ثم ان الحركات الوطنية الكبرى التي ظهرت في الشرق وفي المغرب العربي خلال القرن الماضي وحتى إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى قد كانت تنزع نزعة دينية اسلامية وتسعى إلى الارتباط بالخلافة العثمانية تحت أي شكل من أشكال الارتباط .

2 ـ ان الأوربيين لاختلافهم عن سكان البلاد العربية في الـدين لم يستـطيعوا ان يحكموا العرب بسهولة، بل وجدوا مقـاومـة شديدة حيثـما اتجهـوا وفي أي بلد وضعوا أقدامهم والتاريخ حافل بآيات البطولة الرائعة ومفاخر المقاومة النبيلة التي أبـــداهـــا العـرب ضد الغـزو الأوربي سواء في زحف الصليبيين القـديم أو في زحفهم الحـديث. وهنا يرتفع عدد الأسماء فيصل إلى العشرات بل المئات، ومن منا ينسى بطولة الأمير عبد القادر في الجزائر، وعرابي في مصر، وعلي بن خليفة في تونس، وعبد الكريم الخطابي في مراكش، ويوسف العظمة في سوريا وعمر المختار في ليبيا وسواهم كثيرون.

3 ـ ان الوعي والاصلاح اللذين بذرهما الرواد الأولون في العهـد العثـماني، قد أعـطيا ثمـرهما المفيد في خلال الحكم الأوربي، فكانت الطلائع الأولى المكافحة وجها لوجه مع بدء الاحتلال الغربي لبلاد العرب، فكان كفاحها له عنيدا وكان صـمـودها قويا، فلما ازداد وعي الأمة بازدياد أجيالها الواعية وتقدمها العام، إزداد الكفاح شدة في وجه الاستعمار الغربي، حتى أوشكت نهايته ان تتم، لولا بقية أنفاسه المحمومة في الجزائر وجنوب الجزيرة العربية، ولن يعيش في هذين المكانين إلا أياما أو شهورا معدودات، بل اني على يقين يشبه الايمان بان مصرع الاستعمار في الجزائر سيتم قبل نهاية عام 1957.

ويومئذ ستتم لا فرحة المغرب العربي الكبير باستقلاله وحريته، بل وبوحدته الجبارة، واتحاده الشامل.

هذا . . وقد انقلب الكفاح السياسي في بعض الأقطار العربية في الشرق بعد قيام الحكم الوطني واندحار الحكمين الأجنبيين العثماني والأوربي، انقلب إلى مقاومة لانحراف الحكم الوطني عن المثل والأهداف الوطنية التي كانت مرسومة من قبل.

أما الميدان الثاني من ميادين الكفاح فقد كان ثقافيا. يدعو إلى نشر الثقافة الحديثة وتأسيس المدارس والاقبال على التعليم، والتخصص في العلوم العملية ونتائجها الواسعة التي مكنت أوربا من القوة والسلطان على العالم. كذلك كان دعاة الثقافة الحديثة وروادها يبشرون بما وصل إليه الفكر الانساني في أوربا من قيم جديدة، وحرية واسعة وجد في البحث ودقة في الأسلوب وضبط للمناهج. وفي هذا الميدان تقفز أسماء شبلي الشميل، وفرح انطون، ولطفى السيد وطنطاوي جوهري والبشير صفر والطاهر الحداد والشاذلي خير اللّه وسلامة موسى وفؤاد صروف وآخرون كثيرون.

أما الميدان الثالث وهو الكفاح الاجتماعي. فقد امتاز بصفة خاصة بالدعوة إلى تحرير المرأة وتعليمها كالرجل سواء

بسواء، كما دعا إلى العدالة الاجتماعية، وصور مظاهر الظلم ونتائجه في الحياة، وعمل على اظهار الوعي الاجتماعي الرشيد وتربية الفرد في اخلاقه واحساسه بالمدنية والمسؤولية وكان الاهتمام موجها بصورة خاصة إلى عامة الشعب، وإلى عماله الكادحين وشبابه البائس المحروم، وقد تطور هذا الكفاح بعد الحرب العالمية الثانية فأصبح يستند إلى فلسفة قوية ومبادئ عالمية، ويشترك فعلا مع الجماهير لاَ لِايقاظ وعيها فقط بل وفي كفاحها العملي من أجل حياة أفضل وعدالة أشمل.

أما الكفاح الأدبي وهو الميدان الرابع والأخير . . فقد دعا فيه الأدباء إلى التجديد وكافحوا في سبيل ذلك كفاحا متواصلا في الأساليب والأفكار والموضوعات وقد قام عدد كبير من الأدباء بدور كبير في هذا الميدان لأنه طريق النجاح لكفاحهم في الميادين الأخرى، وهكذا كانت ثورة طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي » على مناهج الأدب ومقاييسه الشائعة عام 1925، مقدمة لثورته على نظام التعليم في مصر بكتابه « مستقبل الثقافة في مصر » عام 1938، وكان هذا الكتاب نفسه مقدمة لكتاب طه حسين « المعذبون في الأرض » ثم كان الأساس لما قام به طه حسين عام 1951 من اصلاح حقيقي في ميدان التعليم عندما أصبح وزيرا للمعارف، ونادى بذلك المبدأ القائل بان التعليم للفرد حق طبيعي كالماء

والغذاء والهواء . وما قيل عن طه حسين يمكن ان يقال بنسب وأشكـال أخـرى عن جبران ونعيمـة في لبنـان، والـرصافي والزهاوي في العراق، والشابي والحداد في تونس .

(1) رئيف خوري : مع العرب في التاريخ والاسطورة ص 115

(2) محمد علي في مصر وأحمد باي الأول في تونس

(*) مجلة الندوة س 5 ع 1/2 (جانفي فيفري 1957).

عوامل التطور ومراحله
في أدبنا الحديث

يمتاز أدبنا العربي الحديث، عن أدبنا في العصور الماضية، بميزات كثيرة، أشدها ظهورا وأعظمها أهمية ثلاث ميزات رئيسية هي :

1) ـ تطعيم أدبنا الحديث بامصال قوية من آداب عالمية غنية بتراثها رائعة بمحتويات هذا التراث، فنا وموضوعا.

2) ـ تطور أدبنا الحديث المستمر مع الحياة والعصر.

3) ـ الاستجابة المتزايدة لمطالب البيئة وتفاعله مع كفاح الجماهير، وما يؤدي إليه هذا التفاعل من تصوير للواقع الانساني وتعبير عن آلام المجتمع وآماله ومشاكله.

وقد مرت هذه الميزات الثلاث ومازالت تمر بعوامل وأطوار كثيرة في سيرها التاريخي المظفر، ابتداء من منتصف القرن الماضي إلى اليوم، ولعل أهم هذه الأطوار وأبرزها تأثيرا في أدبنا المعاصر الأطوار الثلاثة التالية :

الأول : بدء الاتصال الثقافي بأوروبا عن طريق الارساليات العلمية الأوروبية للشرق، ودخول المطابع إلى كل من سوريا ولبنان ومصر وتونس، وما نتج عن هذا الاتصال من نشر لتراث الأجداد ومن ظهور عدد من المصلحين المجددين

والأدباء الباعثين، وكذلك نشر الصحف والمجلات على نطاق ضيق محدود أول الأمر ثم اطرد وازداد كثرة وتنوعا بعد ذلك، مما يعتبر بحق أساسا قويا من أسس نهضتنا الحديثة التي نعيشها اليوم ونخطو بها خطوات أوسع وأثبت نحو حضارة ارسخ وشخصية اكمل.

وقد رافق هذا الطور، الذي ابتدأ في الثلث الأول من القرن الماضي ودام إلى بداية الحرب الأولى، رافقه وعي اصلاحي وثقافي عام اختلف باختلاف الأقطار العربية وما عليه هذه الأقطار يومئذ من أوضاع سياسية واجتماعية. ولا يتسع المجال هنا إلى ذكر أي تفصيل عن أي قطر أو أي ناحية من نواحي حياته أو أوضاعه، ولكن يمكن القول اجمالا بان سوريا ولبنان ثم مصر وتونس هي الأقطار العربية الأولى التي بدأ منها انطلاق الوعي الاصلاحي والبناء الفعلي لدعائم نهضتنا المعاصرة. وقد قامت هذه النهضة منذ البداية على أسس متينة ثابتة ولولا ضعف امكانياتها وسوء ظروفها المحلية لأدت إلى رقي شامل وتقدم عظيم في كل الميادين وفي وقت قصير جدا . . بل أقل من الوقت الذي قطعته اليابان لنهوضها خلال القرن الماضي حتى امكنها الانتصار على روسيا في حرب 1904 ذلك الانتصار الذي دق المسمار الأول في نعش الاستعمار الأوروبي

هذا الاستعمار الذي تولى شعب شمال افريقيا اليوم دق المسمار الأخير في تابوته الأبدي .

أما هذه الأسس التي بنيت عليها نهضتنا المعاصرة فيمكن تلخيصها في النقاط التالية :

أ) التعليم الحديث من ابتدائي وثانوي وعال وقد كانت مصر في عهد محمد علي هي التي فتحت هذا الطريق ودعمته ببعثاتها العلمية إلى أوروبا ثم انتشر في سوريا ولبنان على أيدي النبهاء من رجالها وعن طريق الارساليات الأجنبية، وقد ضربت تونس في هذا التحفز العلمي المبكر بسهم صائب عندما اسست مدرسة الصادقية عام 1875 وارسلت بعوثها العلمية إلى فرنسا وايطاليا فكانوا من البناة الأولين لوعي شعبنا المكافح ونهضته المتوثبة اليوم .

ب) المطبعة وما قامت به من دور خطير في نشر عدد كبير من نفائس تراثنا مثل مقدمة ابن خلدون التي طبعت اربع مرات خلال النصف الثاني من القرن الماضي، ومثل كتاب الأغاني ولسان العرب الذي هو أكبر موسوعة لغوية وقد وضعها علامة تونسي الجد هو (جمال الدين بن منظور) المتوفى سنة 711 هـ 1311 م .

ومن المهم ان نذكر هنا ان تونس قد اصدرت ثالث جريدة

عربية ظهرت في العالم العربي وهي جريدة (الرائد التونسي) التي مازالت تصدر إلى اليوم باعتبارها الجريدة الرسمية للدولة التونسية وقد كان لها دور محمود في الحركة الأدبية قبل نكبة الوطن بالاحتلال الفرنسي البغيض عام 1881 .

ج) الترجمة بدأت منذ النصف الأول للقرن الماضي حركة محدودة في الترجمة .

بدأت في مصر في عهد محمد علي حيث ترجمت كتب علمية تهم المعاهد أو خريجيها ، وفي لبنان حيث كانت أكثر المترجمات أنواعا شتى من القصص والروايات التي قام بترجمتها عدد قليل من أدباء ذلك العصر أمثال نجيب الحداد وطانيوس عبده وأكثر هذه الروايات لا تغنى شيئا .

أما خير عمل أدبي قام به أديب في ذلك العصر فهو ما قام به كل من سليمان البستاني اذ ترجم الياذة هوميروس الشاعر الأعمى اليوناني الذي سجل في ملحمته الطويلة (الألياذة) بطولات الأساطير اليونانية حول حرب طروادة والاسبارطيين وشبلي شميل الذي نقل إلى العربية أخطر كتاب ظهر في أوروبا خلال القرن الماضي وهو كتاب العلامة الانقليزي (داروين) عن (**التطور وأصل الأنواع**) غير ان كلا الكتابين لم ينتجا شيئا في الحياة والفكر والأدب العربي بسبب تراكم الجهالات يومئذ وركود البيئة وتحجر العقول واكتفاء

المتعلمين بالكتب التي انتجتها عصور الظلام والتدهور.

وهكذا لم يحدث هذان الكتابان العظيمان في أجيالنا الماضية ما أحدثاه في أوروبا من ثورة في العلم والفكر وبعث في الأدب والفن.

وفي هذه النقطة بالذات - أي الترجمة - قامت تونس بنصيب محلي فقد ترجم طلبة معاهدنا العسكرية من اللغتين الايطالية والفرنسية حوالي أربعين كتابا في الفنون العسكرية ومازالت الأكثرية من هذه الكتب مخطوطة عند بعض الثقات من أبناء أو حفدة أولئك الرواد الأولين.

د) الاصلاح.. ويشمل المناداة بالاصلاح وتنفيذه.. وفي الميدان الأول يبرز عادة إلى اذهان الناس اسم (**جمال الدين الأفغاني**) والشيخ (**محمد عبده**) ولكن توجد في الواقع أسماء أخرى لا يقل اصحابها عن هذين الرجلين حبا للاصلاح وتعلقا به، أمثال عبد الرحمان الكواكبي وخير الدين التونسي.. وهذا الأخير ألف كتابا عظيما سماه (**أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**) نادى فيه بالاصلاح ورسم خطوطه وناقش المحافظين والرجعيين في عصره، وما أكثرهم يومئذ، ناقشهم بالأدلة الواقعية والبراهين العلمية والدينية وارتفع في أسلوبه ومنهاجه عن الشقشقة اللفظية والضيق

الفكري وأثبت في قوة أحكامه وحرارة كلامه مدى اخلاصه لوطنه وخوفه على مصيره وغيرته عن الاسلام الحقيقي . . اسلام القرآن والرسول لا اسلام التقاليد والمصالح العاجلة لفئة من الناس . . ثم لم يكتف بذلك بل أنه قد نفذ الاصلاح تنفيذا علميا حين اتيحت له الفرصة فتولى رئاسة الحكومة التونسية سنة 1290 هـ 1873 م وسوف نعود إلى الحديث بتفصيل عن هذا المصلح العظيم في مناسبة أخرى .(١)

ونعود الآن إلى الطورين الآخرين من الأطوار الثلاثة لنهضتنا الحديثة :

الطور الثاني بدأ بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة على اثر اعلان الرئيس الأمريكي (ولسن) لمبادئ تقرير المصير، فكانت خيبة العرب في نيل حقوقهم والظفر باستقلالهم سواء من مؤتمر (فرساي) أو منذ تنكر الحلفاء لوعودهم التي قطعوها لبعض الأقطار العربية خاصة للشريف حسين الذي أعلن الحرب ضد الخلافة العثمانية وانضم إلى الانجليز فكان مصيره النفي والموت بعيدا عن الأرض التي كافح لتحريرها من الحكم العثماني فأصبحت تحت حكمين أجنبيين فرنسي وبريطاني . كان كل هذا صدمة هائلة في نفوس الزعماء والقادة القليلين في ذلك الوقت ولكنهم جميعا لم يعرفوا اليأس ولم

يخلدوا إلى السكينـة بل كانوا يقاومون في كل ميدان و بكل وسيلة . وهنـا يقفـز إلى القمة اسم الحزب الحر الدستوري التونسي الذي كان تأسيسه في الواقع نتيجة عملية من نتائج الحرب الكونية الأولى وكذلك نذكر حركة الدكتور محمد على القابسي النقابية التي ظهرت سنة 1925 لتكون عملا فعالا في ايقـاظ الجـماهـير الكـادحـة وتجميع صفوفها للدفاع عن حقوقها الخاصة ثم لحماية وصون حقوق الوطن .

أما في مصر فظهرت حركة حزب الوفد وثورة 1919 .

وفي سوريا ظهرت مقاومة فيصل الباسلة للغزو الفرنسي وأثبت البـطل يوسف العظمة 1920 في واقعة ميسلون ان أرض الوطن واستقلاله أعز من الحياة فصمد في وجه الزحف الفـرنسي حتى استشهـد هو وجنوده ، وبذلك أضيف اسم ميسلون إلى أسماء القادسية واسم يوسف العظمة إلى أسماء خالد بن الوليد وطارق بن زياد وعبد الرحمان الغافقي وأسد بن الفرات .

أما في العراق فكانت ثورة 20 جوان 1920 التي انطلقت من الرميثة قد كبدت البريطانيين خسارة ستين ألف جندي بين قتيل وجريح .

ومن هذه النتـائج كلها للحرب الأولى انطلقت أصوات

جديدة في الأدب . . تترنم بأغاني الحرية وأناشيد الثورة وتحث على الكفاح . . وتنادى إلى التماسك والاتحاد للنضال ضد الاستبداد . . والاستعمار وضد الدعائم التي يقوم عليها الاستبداد والاستعمار . . وهي دعائم الجهل والفقر والرجعية والاستسلام .

الطور الثالث - بعد الحرب العالمية الثانية حيث قويت أصوات الحرية وارتفع شأن الشعوب وتماسكت قوى النضال التحريري في كل مكان من العالم فكان الأدباء المخلصون وخاصة الشباب الذين تطهروا من رواسب الماضي وتسلحوا بأفكار جديدة وأدركوا حقائق عصرهم . . فاندمجوا في غمرة الكفاح الشريف، وجعلوا أقلامهم سيوفا على أعداء الوطن وناضلوا مع الجماهير وفي صفوفها دون خوف أو تردد . . وهنا ظهر مذهب الالتزام واضحا بين أدباء الجيل الجديد. وكان قبل الحرب لمحات عابرة أو اتجاها عفويا عند بعض الأدباء البصيرين أمثال سلامة موسى وحافظ ابراهيم في مصر والجواهري والرصافي في العراق وسعيد أبو بكر والطاهر الحداد في تونس،

(*) مجلة الشعب عدد 127 (16 - 5 - 1969) .

بين الجديد والقديم

قل لمن لا يرى المعاصر شيئا
ويرى للأوائل التقديما
إن ذاك القديم كان جديدا
وسيغدو هذا الجديد قديما
« ابن شرف »

بين الجديد والقديم معركة عريقة في التاريخ قديمة قدم الانسان نفسه وما من أمة أخذت بنصيب من الحضارة أو ساهمت في إقامة صرح من صروحها الا وفي تاريخها مشاهد حافلة بهذه المعارك الرائعة بين الجديد والقديم.

خذ اليونان والرومان قديما والفرنسيين والألمان وغيرهما من أمم أوربا حديثا تجد تاريخ آدابها حافلا بمثل هذا الصراع الرائع الجميل.

والأمة العربية في حضارتها الماضية في عهد العباسيين بالخصوص حفلت حياتها بضروب كثيرة من هذا الصراع. ولم يكن صراعا قائما في ميدان الأدب فحسب كما قد يتبادر إلى

الـذهن بل كان أيضـا في ميادين أخـرى من الحياة فكـرية واقتصادية واجتماعية، فعندما قال أبو نواس :

عاج الشقـي على رسـم يسائلـه
وعجـت أسـأل عن خمـارة البلـد

لم يناهض المحافظين في الأدب فحسب بل دعا أيضا إلى حياة اجتماعية جديدة مليئة بالمتع والترف والسرور وهو بذلك يناهض في سخرية ظاهرة، قد تكون شعوبية منه، حياة الخيمة والشاة والبعير .

وليس أبو نواس وحده هو الذي كان يدعو إلى جديد الحياة والأدب، بل كان غيره ـ في عصره وبعد عصره ـ يدعو إلى الجديد أيضا. فما من شاعر مولد الا وحاول ان يجدد في حدود طاقتـه الشعـرية وظـروف حياتـه الاجتماعية. غير ان جميع الشعراء المولدين لم يحدثوا ذلك الانقلاب الأدبي الذي بات منتظرا منهم ان يحدثوه وذلك بسبب احتفاظهم الكامل بتقاليد الشعر الصناعية وطرائقه الجاهلية.

كذلك يمكن القول بان محاولات ومجادلات كثيرة قد جرت في فهم الأدب ـ شعره ونثره ـ بين رجال الكتابه والبلاغة في تلك العهود السالفة. ولعل من ابرز دعاة هذا الفهم الجديد وممـن اشـترك في ذلـك الجـدل الجـاحظ وابـن قتيبـة

والجـرجاني . . الا ان محاولات هؤلاء جميعا، ومحاولات من جاء قبلهم أو بعدهم، انما كانت تدور حول الألفاظ والمعاني، أي انها تناولت الأدب من الخارج. ولم تذهب أكثر من ذلك. فلم تبحث مثلا : المثل العليا والمفاهيم الخاصة التي تربط الأديب بالمجتمع وتصل الأدب بالحياة. ولو حاول أحد منهم درسها وكشف حقائقها لبعث في الأدب تيارا جديدا ومدارس محدثة تختلف عن كل ما كان في الأدب الجاهلي، سواء في الأسلوب أو في الروح والاتجاه.

وهكذا لم يحدث في الأدب العربي ما كان منتظرا ان يحدث في أدب أمة قامت بأعظم انقلاب في التاريخ، وبلغت قمة شامخة في الحكم والسياسة والفلسفة والعلم.

وليس من غرضي هنا ان أبحث الأسباب والظروف التي أدت إلى تلك النتيجة، اذ يكفي انها حدثت فعلاواهم سبب لذلك عدم ترجمة العرب آداب اليونان والرومان. فلم يتلقح الخيال العربي والأدب العربي بآداب الأمم الأخرى، كما تلقح الفكر العربي بفلسفة اليونان وعلومهم فإذا هو يبدع ـ بعد التلقي والهضم ـ اثارا خالدة في هذين الحقلين الواسعين.

واليوم وقد انقضى الماضي بكل ما فيه من خير وشر، وبكل ما حوى من سيئات وحسنات، وبقيت لنا منه امجاده الكبيرة

وأيضا اخطاؤه الجسيمة فمن حقنا نحن ان نعرف كيف نتجنب تلك الأخطاء وان ندرك ان الحياة ليست جمودا أو ركودا انما هي نشاط دائم وتطور مستمر .

ان الأدب لم يعد « تسلية وملأ فراغ » كما كان يفهم منه قديما وكما لايزال هذا الفهم يعشش في رؤوس بشرية كثيرة . .

الأدب اليوم : رسالة سامية، وقوة تدفع بالكثرة الكاثرة من الجماهير إلى الأمام، طلبا لحياة أفضل وقيم أسمى . وفي هذا ما يكفي للدلالة على مدى خطره ومكانته، ومقدار مسؤوليته وواجباته .

لقد اخطأ أجدادنا الماضون أيام شباب حضارتهم ، بعدم تطعيم ادبهم بآداب أجنبية ، وبعدم ادراكهم الاتجاه الصحيح للأدب ، وفهم رسالته الاجتماعية . أما نحن فمن حسن الحظ اننا لم نقع في تلك الأخطاء وبالرغم عن سيرنا البطيء في ميدان الترجمة والتطعيم ، فان الخطوات التي خطاها أدبنا الحديث تبشر بطلوع فجر جديد . ومهما يكن من حرص المحافظين وتزمتهم ومحاربتهم لكل جديد وكل تطور فان القافلة تسير بخطى ثابتة نحو أهدافنا .

انه لصراع هائل عنيف ذلك الذي حدث بين احلاس القديم ودعاة الجديد منذ تيقظت الروح العربية والوجدان

العـربي، وان التاريخ ليحفظ في اعتزاز بين صفحاته صورا مشرقة وأمثلة رائعة من مواقف الأبطال السباقين الذين دعوا إلى ايجاد أدب جديد وحياة جديدة على اختلافهم في الفهم والوسيلة والفكرة والهدف.

ولابد ان استعرض لحضراتكم أمثلة من التاريخ الماضي البعيد، بل هاكم أمثلة من نهضة العرب الراهنة ومن دعاة الجـديد المعـاصرين أولئك الذين لاتزال أسماؤهم حية أكثر وأشد من حياة أناس يعيشون بيننا.

فهذا جمال الدين الأفغاني، وتلميذه الشيخ محمد عبده ثم قاسم أمين وعلي عبد الرازق، وطه حسين وسلامة موسى، والـطاهـر الحـداد وأبـو القاسم الشابي، وخالد محمد خالد وسـواهم كثيرون في كل بلد عربي . . هؤلاء جميعـا نادوا بالجـديد والتطور والاصلاح، كل في ميدانه الخاص ورغم اتهـامهم بالكفر والالحاد، ورجم بعضهم بالحجارة واحراق مؤلفات البعض الآخر، فانهم اليوم تاريخ كامل لأمتنا وتراث مجيد في ثقافتنا وأبطال خالدون من مفاخرنا. ومهما قيل عنهم أو يقال من سدنة القديم ودعاته فان أحدا ممن وهبه الله بصيرة ثاقبة ونفسا واعية، وضميرا حيا . . لا يستطيع ان ينكر انهم كانوا رواد حياة عقلية حرة، وطليعة بعث اجتماعي جديد. واننـا مدينون لهم بهذا الوعي الفكري الخصب الذي يملأ

اليوم قلوب واذهان الجيل الجديد ويبني لنا أدبا قويا فعالا يساير الحياة والحضارة، ويتصل بالمجتمع اتصالا وثيقا صادقا.

وأود أن يكون مفهوما هنا، ان دعاة الجديد وانصاره لم يكونوا ـ ولن يكونوا ـ ضد كل قديم لأنه قديم، وانما هم يريدون ان يسيروا مع الحياة، آخذين بكل صالح ومفيد سواءا كان جديدا أم قديما.

وفي هذا المعنى يقول الكاتب المعاصر الأستاذ سلامه موسى، ما نصه :

« . . . يجب ان نميز بين قديم وقديم، ذلك ان هناك قدماء قد يفصل بيننا وبينهم ألف أو ثلاثة آلاف سنة ولكنهم قدماء معاصرون. اي يشتغلون بهمومنا البشرية او الاجتماعية العصرية ».

ثم يسوق امثلة متعددة . . فيقول عن ابن رشد ما نصه :

« . . وهل انسى هذا العظيم الآخر ابن رشد، وبيني وبينه نحو الف سنة أيضا، حين يعزو تخلف الشعوب إلى ان المرأة قد ضرب عليها البيت فلا تخرج ولا تختلط بالمجتمع ولا تشتغل بشؤون الرجال، ولا ترتزق بكدها ولا تملأ وظائف الدولة ».

ومن هذا نفهم ان ابن رشــد معاصر لنا بأفكاره الجريئة وعقله الحر، فكأنه يعيش حياتنا ويبحث نفس المشاكل التي يعانيها مجتمعنا ويشكو منها كل يوم.

لقد حورب ابن رشد في زمانه. كما حورب دعاة الجديد في كل زمان، ومكان، ولكن النصر كان لهم دائما لأنهم يمثلون ناموس الحياة. وفلسفة التطور، ويرسمون للانسانية أهدافها الســامية النبيلة. ولســوف يستمــر الصراع هائلا عنيفا بين الجــديد والقــديم أو قل: بين دعــاة الجــديد واحــلاس القــديم.. إلى ان يؤمن جميع النــاس ايمانــا صالحــا عميقا بقــانــون التــطور.. ويســاهمــوا في تحقيق مظاهره ومثله في حياتهم، بدافع من نفوسهم، وتلبية لنداء ضمائرهم. (*)

* جريدة الأسبوع عدد 335 و 336 (25 ماي و 1953/6/1).

النزعة الافريقية في الأدب الحديث

يعتبر تكوين منظمة الوحدة الافريقية حدثا تاريخيا وانطلاقة افريقية جبارة ستكون عاملا من عوامل المستقبل الحاسمة، في تاريخ ومصير الشعوب الافريقية كافة.

ولا شك ان مؤتمرات القمة، ومؤتمرات الشعوب الافريقية تمثل هي الأخرى قمة من قمم الوعي الافريقي الصاعد، وصورة رائعة من يقظة افريقيا وزحفها المتواصل نحو الحرية والاستقلال ونحو التضامن والاتحاد.

وما من شك أيضا في ان هذا الوعي العارم، واليقظة الجارفة، وهذا الاتجاه العملي نحو التضامن والتكتل والاتحاد على مقاومة الاستعمار والتخلف .. ليس شك في أن هذا كله لم ينشأ دفعة واحدة، ولم يظهر ويؤثر في تفكير وكفاح الشعوب الافريقية من تلقاء نفسه .. بل ثمة عوامل سياسية واقتصادية وعالمية وفكرية، تفاعلت كلها وتحولت في أعماق الشعوب الافريقية إلى طاقة ثائرة وقوة بانية.

وفي هذه النـاحية وذاك المجـال يقـوم الأدب، وخـاصة الشعر، بدور أساسي في اذكاء الوعي واثارة الجماهير، وغمر النفوس بروح من الحماس والاخلاص والاندفاع نحو الكفاح والتضحية من أجل الوطن والشعب، والمستقبل الكبير المنتظر.

طلائع رائـــدة

وعمل الأدباء - كتابا وشعراء - في هذا التطور التاريخي يكون أول الأمر محليا منصرفا كله إلى القوم والوطن اللذين ينتسب إليهما الأديب الكاتب أو الشاعر والفنان.

ولكن الوعي يتطور ويتحول لا في نفوس الجماهير فقط بل وفي نفـوس الأدبـاء والشعراء والمفكرين، بل ان هؤلاء هم الذين يسبقون إلى التطور ويبشرون به ويدعون إليه ويعملون على نشره وارتفاع نسبتـه في وعي الشعوب.

مثـال من تونـس

وعندنا في تونس مثال كامل على هذا التطور من حدود القومية أو الوطن إلى مجال أبعد . . انساني أو قاريّ شامل. هذا المثال هو أبو القاسم الشابي الذي نزع نزعة انسانية كاملة تعـاطف فيها وعـبّر بها عن كل الشعـوب الـواقعة في براثن

الاستعمار والتخلف عن موكب الحياة العصرية، أي موكب الحرية والحضارة.

وهـذه النـزعة الانسانية تمثلت في قصائد كثيرة من شعر الشابي الأخير وليست قصيدته (إرادة الحياة) الا واحدة من كثيرات، تفاعل فيها الشابي مع الحرية والكفاح التحريري في أي أرض يكون وفي أي عصر يتحرك.

والشابي قبل ان يصل إلى هذه الدرجة من الوعي الانساني ويقول متجاوبا مع كل كفاح في كل شعب:

إذا الشعـب يومـا أراد الحيـــاة
فلا بد ان يستجيب القـــدر
ولا بد للظلـم ان ينجلــــــي
ولا بـد للقيـد ان ينكســـــر

قبـل ان يصـل الشـابي إلى هذا الاتجاه مر بحدود وطنه وتفاعل مع أبناء أمته فكان يقول مخاطبا ابن بلاده:

خلقت طليقـا كطيـف النسيـــم
وحرا كنـور الضحـى في سمـــاه
فمالك ترضـــى بذل القيـــود
وتحنـــى لمن كبلـــوك الجبـــاه ؟
الا انهـض وسـر في سبيل الحيـــاة
فمـن نـام لم تنتظـره الحيـــاه

سحر الحماسة

كلنا يعلم ما فعلته وتفعله القصائد الحماسية في كفاح الشعوب . . وما من كفاح شعبي في أي قطر من الأقطار الا وله حداة يلهبون المشاعر والقلوب بأناشيد الحماسة وأغاني الوطنية .

وكمثل الشعراء تمر الشعوب بطور الكفاح الخاص من أجل وطنها وحريته الخاصة ، ثم يتطور وعيها ويمتد إلى آفاق ابعد من حدود الوطن إلى التضامن مع القارة التي تنتسب إليها ومع كل شعب يجاهد جهادها ويشترك معها في الأوضاع والأهداف .

ومن هنا كان تضامن الشعوب المضطهدة والنامية في آسيا وافريقيا ومن هنا كان أيضا اتحاد الشعور والوعي بين الشعوب ثم الدول الافريقية التي زاد من حدة شعورها وتضامنها ان القارة البيضاء ـ اعني قارة اوروبا ـ قد ازداد تضامن حكامها ضد مصير ومستقبل القارة السمراء والسوداء اي افريقيا .

وهكذا نرى ان القارة التي تكاد تكون كلها ثائرة انما هي قارتنا الافريقية وان القارة التي تحارب ثورتنا وتضطهد شعوبنا وتحاول ان ترتكب ابشع جرائم التاريخ باغتصاب الأوطان

من شعوبها كما هو الحال في جنوب افريقيا وروديسيا الجنوبية هذه القارة هي القارة البيضاء اي اوروبا.

ضرورة المجابهة

وامام هذا التضامن الأوروبي الذي له مظاهر عديدة في الماضي والحاضر، كان لابد للشعوب وبالتالي للدول الافريقية ان تتضامن وان تتحد في وسائل كفاحها وفي تقرير مصيرها ومن أجل تحقيق اهدافها.

وكان لابد من ان يسبق هذا الوعي السياسي والجماهيري وعي فكري ونفسي يهيئه ويعمل على نشره اهل الفكر والأدب والفن، كل بوسيلته التعبيرية الخاصة.

شعراء آخرون

وكما كان الشابي شاعرا انسانيا وعالميا، كان هناك شعراء وكتاب وفنانون آخرون في أقطار افريقية متعددة حداة للكفاح ودعاة للتحرير والانعتاق. بل ان الكفاح الافريقي بعد ان تعددت ميادينه وازداد عدد الشعوب القائمة به ازداد صداه في العالم وتجاوب معه شعراء ومفكرون أحرار من أقطار كثيرة من الدنيا، لاسيما من الأقطار الاسيوية التي تشترك معنا في أوضاعنا وكفاحنا المتصل ضد التخلف والاستعمار.

وكما رأينا الشابي يجتاز حدود وطنه إلى آفاق انسانية ابعد، نرى اليوم شعراء وكتّابا تجاوزوا هم أيضا سواء في تونس أو في غيرها - حدود أوطانهم إلى آفاق ابعد وأوسع، وكان تجاوبهم أشد وأعمق مع القارة الافريقية التي ما فتئت منذ الحرب العالمية الثانية تواصل كفاحها وثورتها للتحرر والخلاص.

ومن انطلاقة الشعراء والأدباء الأفارقة ومن تجاوب زملائهم الأحرار في الأقطار الأخرى تكون اتجاه جديد ظاهر وقوي في الآداب المعاصرة - خاصة الافريقية والعربية - يمكن ان نسميه بالنزعة الافريقية في الأدب وهي نزعة تدعو إلى تحرير القارة السمراء من الاستعمار وإلى تضامن شعوب افريقيا واتحادها ضد الغاصبين وضد التخلف والاستبداد.

اهداف ثورية

ويمكن القول بان النزعة الافريقية هذه تقوم على أسس ايجابية فعالة، يمكن حصرها في العناصر التالية :

1 - دعوة سياسية ثورية، تنادي بان افريقيا للافريقيين وان على شعوب افريقيا ان تتحد في كفاحها السلمي والمسلح لتحرير جميع الأقطار الافريقية.

2 - دعوة حضارية، تدعو إلى القضاء على التخلف الذي

عاشت فيه افريقيا مئات السنين والذي حافظ عليه ودعّمه الاستعمار الغربي.

3 ـ دعوة اقتصادية تنادي بالمساواة الاقتصادية وتوزيع الثروة العامة توزيعا عادلا شاملا وتتعاطف مع الكادحين والبائسين وتعمل على الخروج من جميع مظاهر التخلف الاقتصادي.

4 ـ دعوة انسانية تتضامن مع كافة المظلومين ودعاة الحرية في العالم.

تجاوب عالمي

ولاشك ان الكتّاب والشعراء الأفارقة هم أكثر من غيرهم تفاعلا واندفاعا نحو تحقيق هذه الأهداف والامال عن طريق استخدام الكلمة والفن للتضامن الافريقي وللتجاوب الانساني عامة.

وبالاضافة إلى شعراء افريقيا ومفكريها، نلاقي شعراء ومفكرين آخرين من آسيا وأمريكا وحتى من اوروبا نفسها يتجاوبون هم أيضا مع كفاح القارة الافريقية ومع أهدافها وآمالها ومن هنا كان لابد من اعتبارهم هم أيضا من دعاة وانصار النزعة الافريقية في الأدب.

سنبـدأ هنا بشعراء افريقيا ونأخذ كمثال منهم : الشاعر (محي الدين فارس) في ديوانِهِ (الطينُ والأظافر) حيث تبدو نزعتـه الافـريقية واضحـة في قصائد كثيرة سواء في الناحية السياسيّة كما في قصـائـده : (افـريقيا لنـا) و(بلادي) و (القرصان الراحل) أو في النواحي الأخرى كما في سائر قصائدِه .

ومحي الـدين فارس شاعـر سوداني ولكنك لا تشاهد في لوحـات ديوانه ملامح سودانية بقدرما تشاهد صورا افريقية كاملة ورغم نشأة الشاعر في الريف فان احساسه بوطأة الرجل الأبيض والحكم الأوروبي ـ المركز في المدن ومناطق الخصب والثروة ـ يظهر عنيفا حادا في اشعاره وهو يتألم وينفعل إلى حد التشنج حينما يشاهد مظهرا من مظاهر الاستغلال الأوروبي للانســان الافــريقي أو حين يرى صورة من صور البؤس والحرمان والتخلف التي يعيش عليها وفيها الانسان الافريقي .

بائعة الزهـــور

هو ذا يصف لنا ـ في انفعال خصب ـ مشهد امرأة افريقية بائســة تبيع الـزهور للرجل الأوروبي بثمن بخس ثم تمضي جائعـة مكدودة في الحياة بلا خبز ولا أمل ولكن (فارس) يبشرهـا بالأمـل وبـالفجـر الجـديد الـذي سينهار به ظلام الاستعمار وظلام البؤس والتخلف معا .

هو ذا يثير فيها آلامها ووعيها بانسانيتها وحقوقها ليبعث في نفسها الأمل والثورة :

(. .
كـم تحجبيـــن
لفح الجراحات العميقة والأنين
في بسمة قلبية الاشراق، ساذجة حنون
كـم تبسميـــن
وبصدرك المحموم أمنية تموت، ولا معين
وتواجهين سحابة الآمال دكناء الحواشي والمتون
لكنها الغد في ضمير الليل يا سمراء يكبر كالجنين
وغـــدا تهـــون
ويطل فجر الكادحين، يطل من خلف الدجون
ويشق جدران السجون
وتعود أفراح الحياة
تعود مورقة الغصون ! !)

وأنـــاشيد محي الـــدين فارس ـ كقصـــائـده ـ تشرق هي الأخـــرى بالأمـــل وتبشر بالفجر دائما، حتى عندما يتضخم الهدف وينمو وتشتعل الثورة وتطول، وتندفع الجماهير الافريقية في كل قطر من أقطارها، لتحطم (الصنم الأبيض) الذي تاله فيها زمانا طويلا .

وهو إلى ذلك ومن أجل ذلك لا يرى طريقا للخلاص غير طريق، الكفاح - بكل أنواعه - وغير سواعد الجماهير الكادحة لتبني مستقبلها، أي مستقبل افريقيا كلها.

افريقيا لنا

وانك واجد صدى ذلك كله يجلجل به الشاعر على لسان كل افريقي وكأنه القدر المحتوم في قصيدته الهادرة (افريقيا لنا)، وفيها يقول :

(أنا لن أحيد
أنا لست رعديدا يكبل خطوه ثقل الحديد
وغدا نعـــود
للقرية الغناء، للكوخ الموشح بالكروم
ونسير فوق جماجم الأسياد مرفوعي البنود
وتزغرد الجارات، والأطفال ترقص والصغار
وسنابل القمح المنور، في الحقول وفي الديار
والنخل والصفصاف والسيال زاهية الثمار
لا، لن أحيد عن الكفاح
لا، لن أحيد عن الكفاح
ستعود افريقيا لنا،
وتعود أنغام الصباح) ! !

مع كفاح تونس

ويتجاوب محي الدين فارس مع كفاح تونس التحريري أعوام (52 ـ 1954) فينظم قصيدة طويلة رائعة، بعنوان (أحـرار الباستيل) نلمس فيها انفاس الشابي قوية بارزة، فكـانـه أراد ان يستمد من شاعريته أقباسا يستضيء بها في موضوع عن كفاح تونس، بلد الشابي ومبعث الهامِهِ.

هذا مقطع واحد تلمس فيه كل ذلك :

وقيل هنالك منفى عجوز
وأمعاؤه اتخمت بالبشر
على بابه الحجري العتيق
زبانية من بقايا العصر
تغني على صرخات الضحايا
وترقص فوق اللظى المستعر
ولكنهم رغم نار السياط
وزمجرة العاصف المكفهر
مضوا يعزفون نشيد الصباح
ويستلهمون الغد المنتظر . . !

وهـذا مقـطع آخر فيه فوق ذلك حب انساني جارف، وبسمة أمل زاحف،وايمان **بالنصر** جازم :

أخي في متاهات سجن الحياة
تجلد، لتعبر ظلماءها
لئن اخمدوا جذوات الحياة
فما أخمدوا بعد أضواءها
فبعدَ الغيوم يطل الصباح
فتكسو النضارة أرجاءها
لنا في غد ثمرات الحياة
تغني، وتبدع آلاءها
أخي قد نفت غبار السنين
وواريت في الأرض ارذاءها
ورحت أعانق كل الشعوب
وأدفن في النور ظلماءها
فأحسست أحسست اني أحب
أحب الحياة وأبناءها ! !

شعراء آخرون

ويتجاوب شعراء آخرون مع كفاح تونس ويثورون لما أصابها زمن الثورة من تنكيل وتدمير وقمع، وما تساقط فوق ارضها من ضحايا وشهداء، يساندون ويمجدون كفاحنا وبطولاتنا ويهتفون بالمجد والخلود لشهدائنا ويرثون بقصائدهم ثامر وحشاد والهادي شاكر. وشعرهم في هذا المجال جدير وحده بالجمع والدراسة والتعريف.

ومن هؤلاء بعـد فارس سليمان العبيسي وشوقي البغدادي وعـدنـان الراوي وعلي الحلي وكاظم جواد والحوماني وفوزي العنتيل وغيرهـم كثيـرون . . هذا فضلا عن شعراء تونس المناضلين وشعرهم في هذا الباب معروف .

ثورة كينيا

وتنـطلق ثورة كينيا ويمـلأ الاسماع والأجواء اسم (الماو ماو) فينشر الرعب في أوروبا وينشر الحبّ والاعجاب في آسيا وافـريقيا ويحتضن الاسم والكفـاح شعـراء القـارتـين كاحتضـان الحبيب للحبيب في شوق وحب وولاء وتنـطلق عشرات الكتب والرسوم تسجل كفاح شعب (الماو ماو) .

ومن وادي الرافدين ينطلق صوت عبد الوهاب البياتي قائلا :

احراج كينيا يا ينابيع الضياء
يا كوكبا في ليل قارتنا الحزين
يهدي الرفاق السود في أفق الصراع
ومن السهوب
(ماري) رفيقتنا تعود من السهوب
والموت والانسان يصنع فجره
في ليل افريقيا الحزين

شعب الجزائر

وينطلق شعب الجزائر من اغلال القرون ويرتفع اسمه في سماء البطولة فوق كل الأسماء وتغدو بطولات أبنائه أساطير تشبه المعجزات ويعلو به نجم افريقيا في العالم وفي التاريخ لأن الجزائر جزء منها ولأن كفاحها كان طريق خلاص وتحرر لشعوب افـريقية عديدة،فإذا الشعـراء والمفكـرون والكتاب يتجاوبون مع الجزائر الثائرة فيما لم يقع مثله لأي كفاح في أي شعب.

هلال ناجي

ويكفي هنـا صوت واحـد من آلاف الأصـوات التي انـطلقت تمجـد كفـاح الجـزائـر وبطولاتها الفذة وشهدائها الكادحين والمفكرين على السواء هذا الصوت هو مقطع من قصيدة لشـاعـر العـراق الثـائر هلال ناجي يرثي بها المفكر الجـزائـري الشهيد (مولود فرعون) الـذي اغتاله الارهابيون الفرنسيون في الجزائر قبل بزوغ فجر السلام بأيام فلم يكحل محياه بمولد الفجر العظيم (١).

يقولون : مات ولف التراب
جبينا تألق كالفرقد
أيا مشعلا في احتلاك الدجى

تسامى وضو للأبعد
أحقا طواك الردى غيلة
قبيل إنطلاق الصباح الندى ؟
أحقا مضى من أغاريده
بحار من الفكر لم يوصد
وسفر من الأدب المجتلى
تظل القرون به تهدى
سألت الضحى عنك في الموعد
فادمت جراحاته معبدي

أغاني افريقيا

وأخيرا وليس اخرا نصل إلى قمة الشعر الافريقي الحديث المتمثل في ديوان (أغاني افريقيا) للشاعر محمد الفيتوري وهو أول شاعر افريقي فيما اعلم تغنى في ديوان كامل بكفاح افريقيا كوحدة ومجد ثوراتها وتشوق إلى مستقبلها وبشر بفجرها الحر وصور مأساة أمسها وتمرد يومها وبهجة الغد المنتظر.

وقد بلغ الفيتوري كماله الفنى وذروة نبوغه الشعرى في قصيدته الخالدة (نشيد افريقيا) هذا النشيد الهادر الذي صور آلام افريقيا كلها وماضيها البائس المنكود تحت حكم الرجل الأبيض كما صور حاضرها الماجد المندفع نحو الحرية ونحو التقدم.ولن يكون بعيدا ذلك اليوم الذي يصبح فيه هذا

النشيد أغنية بل نشيدا رسميا (2) لكل شعب افريقي أو للوحدة الافريقية.

جبهة العبد ونعل السيد
وأنين الأسود المضطهد
تلك مأساة قرون غبرت
لم اعد أقبلها لم أعد
كيف يستعبدني مغتصب
كيف يستعبد امسي وغدي
كيف يخبو عمري في سجنه
وجدار السجن من صنع يدي ؟
انا زنجي وافريقتي
لي لا للأجنبي المعتدي
أنا فلاح ولي أرضي التي
شربت تربتها من جسدي
انا انسان ولي حريتي
وهي اغلى ثروة من ولدي
انا حر مستقل البلد
وسابقى مستقل البلد

---

(1) عن تقدمة القصيدة بالديوان : « الفجرآت يا عراق » ص 90 .
(2) لحن بتونس وغنته علية في مؤتمر الشعوب الافريقية المنعقد بتونس 1961 .
(*) جريدة العمل عدد 65/8/27 وعدد 1965/9/3 .

النقد عند العرب

من الحقائق المقررة ان النقد الأدبي نشأ مع الأدب جنبا إلى جنب، وتطور معه يوما بعد يوم. وان كل أديب ـ كاتبا كان أم شاعـرا ـ هو ناقد أيضا، وان لم ينقطع للنقد فيحترفه أو يؤلف فيه.

الأديب ناقد بذوقه الأدبي وفهمه الخاص لما يقرأ أو يسمع، بل ولما ينتجه هو بنفسه، إذ يعمد إلى انتاجه فيعمل فيه تنقيحا وتصحيحا إلى ان يستقيم في نظره، ويصير لائقا بان يقرأه الناس أو يستمعوا له.

وهذه الحقيقة المقررة، تنطبق على الأدب العربي وغيره من الآداب الأخرى، فشعراء العرب في الجاهلية كانوا نقادا، وكانت للشعر ونقده مواسم حافلة في أسواق الجاهلية، خاصة سوق عكاظ، الذي كان الشعراء يتبارون فيه بقصائدهم، وكان الناقد أو الحكم بينهم شاعرا اعترفوا له بالتفوق والقدرة على التمييز والحكم اي على النقد.

كذلك كان الأمر عند اليونان، اذ نجد ان نقادهم الأولين كانوا شعراء. فالناقد « أرستوفان » الذي نقد بروايته

« الضفادع » ثلاثة من أشهر شعراء التراجيديا عند اليونان، كان هو أيضا شاعرا.

ومثلما كان النقد في جاهلية العرب يرفع مكانة الشاعر إلى السماء أو يهوي بها إلى الموت الأدبي، كان الأمر كذلك عند اليونان الذين بلغ النقد عندهم في زمن مبكر درجة عالية وخطيرة أحيانا، عالية من ناحية تطور النقد ونضجه وخطيرة لأنها كانت لا تقضي على المنقود أدبيا فحسب، بل تقضي عليه، ماديا أيضا. كما حدث لسقراط اذ حكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم فعلا، نتيجة لنقد وجه لافكاره بواسطة مسرحية ألفها شاعر عنه، وهذه المسرحية هي كوميديا « السحب » التي ألفها الشاعر « أرستوفان ».

غير ان هذا النضج الذي نجده عند اليونان في النقد لا ننتظر ـ بطبيعة الحال ـ ان نجد مثله عند العرب في الجاهلية لاختلاف الظروف والأوضاع بينهما. فاليونان كانوا يبنون حضارة اقتبست أصولها من حضارات سابقة، بينما كان العرب يتهيؤون في بطء لنهضة أدت بعد ظهور رسالة محمد إلى حضارة شامخة.

وعلى هذا لم يتجاوز النقد عند العرب في الجاهلية وكذلك في القرن الأول الهجري، اللمحات القصيرة والخواطر

الصائبة القائمة على الذوق الشخصي قبل أي شيء آخر. وهكذا بدأ النقد في الأدب العربي ذاتيا محضا مثلما كانت بدايته في الآداب الأخرى.

أما في القرن الثاني للهجرة، فقد أخذ النقد يتطور تدريجيا بفعل تطور الحياة العربية وما دخلها من ثقافات وأفكار جديدة من جهة، وبحركات التدوين العلمي ونشأة علوم لسانية ودينية ساهمت في امداد النقد ببعض ما يحتاج إليه من القواعد، مثل النحو والعروض واللغة، وخاصة البلاغة التي نشأت أول أمرها نتيجة للجدل الذي كان يدور حول القرآن، ولفهم أسرار الاعجاز فيه. ثم تطور الفهم الأدبي إلى نقد موضوعي لمعرفة عناصر الجمال والتفوق في القيم التعبيرية الشعورية أي إلى نقد منهجي على ايدي رجال أدباء يمكن اعتبارهم نقادا باتم معنى الكلمة مثل أبي هلال العسكري ومحمد بن سلام الجمحي، وعبد القاهر الجرجاني والأمدي وابن الأثير.

وإذا كان من المؤكد لدى بعض الباحثين المعاصرين الثقاة، ان هذه الجهود الجبارة لم تجعل من النقد فنا مستقلا قائما بذاته بين فنون الأدب العربي، ولم تعط لاتجاهاته ومحاولاته المختلفة أي استقرار يجعل منها مذهبا نقديا كاملا . . . فانها قد خلصت النقد الأدبي في تلك العصور من

الاعتباطية إلى المنهجية ومن الذاتية المحضة إلى الموضوعية المدعمة بالدليل والبرهان، وبعبارة أخرى خلصته من الحكم بالذوق الشخصي والتأثرات الانفعالية، إلى الحكم بقواعد أدبية وصناعية مستمدة من أصول وحقائق قررت في علوم أدبية مختلفة.

ويعتبر محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة 231 هـ أول ناقد عربي ناضج في ثقافته وفي فهمه لوظيفة النقد. فقد حاول في كتابه « طبقات الشعراء » ـ وهو أول كتاب عربي في النقد ـ ان يجعل النقد فنا مستقلا، ومنظما وفق منهج موضوعي خاص. ولعل أقوى نظرياته في هذا الكتاب، هي نظرية الشك فيما وصلنا من شعر نسب إلى الجاهلية. فقد شك ابن سلام في هذا الشعر وأقام البراهين على ان بعضه منحول لأغراض شتى. فإذا تذكرنا انه مات عام 231، اي انه كان اقرب للعصر الجاهلي من كل الذين جاؤوا بعده، أدركنا مدى الصدق والخطورة في آرائه !.

أما الدكتور طه حسين الذين كان أول من أعلن الشك في الشعر الجاهلي، في العصر الحاضر، فانه في الواقع قد اعتمد اعتمادا كاد يكون حرفيا على آراء ابن سلام وعلى ما أضافه إليها المستشرق الانكليزي « مرقليوث » من ايضاحات وأمثلة، ثم عرضها طه حسين مشروحة مبوبة في كتابه « في

الشعر الجاهلي » ثم عوضه بعد عام من صدوره بكتابه المعروف اليوم باسم « في الأدب الجاهلي » ولو أدرك هذه الحقائق، أولئك الذين هاجموا طه حسين عام 1926، لما حملوا عليه تلك الحملة الشعواء، التي كانت ظلما وانتهازا.

أما بعد ابن سلام فقد ظهر نقاد كثيرون، نحا كل منهم منحى خاصا، كما ظهرت اتجاهات جديدة دعمتها المعارك الطاحنة التي دارت حول عدد من الشعراء، والمعارك التي دارت بين المعتزلة الذين دافعوا عن الحرية في البحث والتفكير، وبين خصومهم المحافظين الاتباعيين.

كذلك يمكن اعتبار المعارك الأدبية التي دارت بين انصار الجديد ودعاة القديم ذات يد طولى في تطور الآراء .. لا في الشعر فقط، بل وفيها أصابه النقد من تقدم وتطور كبيرين خلال القرون الثلاثة الأولى من قيام الدولة العباسية.

أما اخصب طور مر به النقد عند العرب فهو فترة الخصومات الحارة التي دارت بين أنصار المتنبي وخصومه، وخير كتاب يمثلها هو كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني. أما الأمدي في موازنته بين البحتري وأبي تمام فقد فتح الطريق لبحث جديد في الأدب العربي وهو الأدب المقارن الذي أصبح اليوم عند

الأروبيين أعلى أنواع البحث الأدبي، وأعظمها قيمة وأكثرها صعوبة.

أما ابن المعتز في كتابه عن البديع، فقد حول النقد الأدبي إلى عمل لفظي جامد مهد الطريق بخطى واسعة، وفي زمن مبكر جدا إلى جعل الأدب والنقد صناعة كلامية متقنة خالية من الفهم والذوق الأدبيين. وهكذا بدأت المدرسة الكلامية في النقد تنتصر وينتشر معها الجمود والموت الماحقان لكل ابتكار وكل حياة نابضة بالشباب والجمال والعبقرية.

واستمر هذا إلى القرن التاسع عشر، ولم تتخلله الا أنفاس عابقة فريدة، تعبق هنا أو هناك بين العصور والأجيال وفي الأماكن المختلفة.

(*) مجلة الندوة س 4 ع 9 (ديسمبر 1956).

حول « النقد في مجلة الفكر »

قسم الأستاذ الشاوش بحثه إلى فصلين، ومسك ختام وخاتمة ؟ ! (1).

وإذا أدرجنا (مسك الختام) في (الخاتمة) كما هو المنطلق . . وكما هو سياق كلامه وبناء بحثه، فان المنتظر ـ كما هو معروف علميا ومنهجيا ـ ان تكون الخاتمة تلخيصا دقيقا لمحتوى القسمين اللذين أقام عليهما بحثه أو حصيلة للنتائج التي توصل إليها وحللها في كامل البحث . .

في ظني انه لم يفعل ذلك حيث جعل الخاتمة استمرارا لمجرى كلامه في القسم الثاني . . ولو حذف لفظ الخاتمة (كعنوان) لما شعر القارئ بأي فرق.

وإذا عدنا إلى كامل البحث بقسميه . . رأينا القسم الأول تحت عنوان (النقد وأغراضه) والقسم الثاني بعنوان (أنواع النقد وخصائصه).

لأول وهلة يبدو هذا التقسيم سليما وقائما على اختيار ذاتي أراده الباحث، هكذا مقصورا على دائرتين، رغم ضيقهما، فانهما تتيحان له، ولأي باحث آخر، ان يقدم لنا حصيلة

جيدة . . من خلال أعمال نقدية معينة محصورة ـ بدورها ـ في زمان ومكان محددين :

المكـان هو مجلة الفكـر . . والزمان هو ثلاثون عاما من عمرها . . ومن انتاجها .

فإلى أي حد استوعب الباحث عمله . . وإلى أي مدى نجح فيه . . وماذا كانت النتيجة ؟ .

يقول الأستاذ الحبيب، في بداية القسم الثاني ما يلي :

(لقد استعرضنا أهم أغراض النقد كما نشرت وانتشرت بمجلة الفكر . .) .

شخصيا لم أجد تبويبا لهذه الأغراض التي يشير الباحث إلى أنـه قد استعرضها في القسم الأول . . ولعله يتفضل علينا مشكورا ببيانها وتعدادها .

ويواصـل الأستـاذ الشـاوش فقـرته السابقة متحدثا عن محتوى القسم الثاني فيقول :

(. . نستعـرض الآن بعض عينات مما جادت به أقلام روادها (أي مجلة الفكر) من الساهرين على حظوظها بوجه خاص وعـلى الثقـافة بهذه الربوع بوجه عام، وهي مناسبة تنصاع لمثل هذاالعرض ـ مناسبة الاحتفال بثلاثينية (الفكر) وما تنطوي عليه من تكريم واحتفاء) ؟ ! .

هذا هو المدخل الذي يبدأ به الأستاذ الشاوش القسم الثاني . . ولا أعلم ما هي الأنواع التي سيتعرض لها الباحث في هذا القسم .

لنتابع كلامه فقد نظفر بها خلال الفقرات أو الصفحات الموالية .

انه يبدأ مباشرة ، بعد الفقرة السابقة بقوله :

(فهذا نوع أول من النقد يتوجه به عبد العزيز قاسم في دراسة له بعنوان "الأدب بين الحقيقة والواقع" إلى معشر الشعراء ببلادنا في لهجة تتراوح بين خفة الأريحية من ناحية ، وحدة اللسان وسحر البيان من ناحية أخرى) .

فما هو هذا النوع الأول من النقد ؟ ما اسمه ؟ ما طعمه ؟ ما لونه ؟ ما مذهبه ؟ ما اتجاهه ؟ ما خصائصه ؟ التي وعدنا بها في العنوان ؟ .

ان صديقي الحبيب يتجاوز كل ذلك لينقل لنا فقرات مما قاله عبد العزيز قاسم عن الشعر وعن القصة وعن النقد أيضا . . ثم لا شيء غير ذلك . .

وينتقل صديقي الشاوش إلى كاتب آخر وموضوع آخر بدون ان أشعر بعلاقة فنية أو نوعية بين هذا وذاك . . ودون أية نتيجة أو تبرير لهذا الانتقال .

وتوالى الأقوال وتتكدس من هذا النص وذاك الكاتب بلا تحديد أو تسلسل .

فهو مثلا لم يحدد للقارئ النوع الأول الذي حشر فيه عمل عبد العزيز قاسم . . هل هو نقد ذاتي أو تاريخي أو موضوعي ؟ وهل هو كما يرى الفقيد الطاهر الخميري نقد تشريعي أو نظري أو وصفي ؟ وهل وهل وهل ؟

ان الاستدلالات والشواهد التي استغرقت معظم صفحات البحث لا تغني القارئ بفائدة تذكر . . إلا إذا كانت في سياق متكامل . . فتوضح قاعدة فنية أو تبرهن على مذهب أو اتجاه نقدي محدد . .

وليسمح لي أخي الحبيب بان اطرح للنقاش : القضية التالية :

ما هي الحصيلة العلمية أو الأدبية التي يمكن ان يحصل عليها قارئ البحث ـ أي بحث ـ حين تغطي معظم صفحاته بـ :

قال الحليوي ، قال الخميري ، قال المسعدي ، قال فلان وفلان إلى . .

ان هذه الأقوال مطروحة أمام الجميع وهي في اعداد المجلة القليلة التي استند إليها الباحث، وهي أكثر من ذلك في

اعداد المجلة الأخرى والتي لم يعتمدها ولم يرجع إليها مع انها تمثل ما يساوي عشرين مرة الأعداد التي رجع إليها.

وإذا كان ممكنا ان التمس له الأعذار والمبررات في أنه اعتمد أربعة عشر عددا من مجموع ثلاثمائة عدد أصدرتها الفكر . . فكيف أستطيع ان أسكت عن تجاوزه أو نسيانه لعدد كبير من الملفات والأعداد الخاصة بقضايا وموضوعات تتصل بالنقد . . ولم يرجع إليها الباحث . . بل انه قد أغفل تماما حتى الاعداد الخاصة بالنقد واعلامه، وموضوعاته التطبيقية مثل :

- العدد السابع من السنة التاسعة.
- العدد الرابع من السنة الثانية عشرة.
- العدد الثامن من السنة العشرين.
- والعدد الخامس من السنة الثالثة والعشرين ؟

في ظني أن ميل صديقي إلى الاستعراض والتعميم بدون بناء منهجي واضح . . هو الذي جعله يكدس الفقرات الطويلة من أقوال الكتاب والنقاد . . دون ان يصنفها في مذهب بعينه ومدرسة بذاتها . . ودون ان يصل بنا وبها إلى أي نتيجة . . مهما كانت كما يقتضي موضوع بحثه الذي هو "النقد في مجلة الفكر" .

وبعبارة أخرى هل ان المقالات والبحوث المنشورة في مجلة الفكر والتي اعتمدها واختار منها بحثه ـ . . تعد نقدا ؟ ام لا ؟ سواء من حيث النظريات والاتجاهات أو من حيث الممارسة والتطبيق ؟ .

وبالتالي . . هل أسهمت مجلة الفكر في ايجاد حركة نقدية . . وخلق نقاد على أي مستوى كان . . وفي أي درجة هم ؟ .

هل هناك مذهب نقدي معين ساندته مجلة الفكر ـ فيما نشرته طبعا ـ اكثر من المذاهب الأخرى ؟وما هو هذا المذهب ومن هم جماعته وما جديدهم او اضافاتهم فيه ؟

إلى غير ذلك من النتائج والحقائق التي كنا ننتظر الوصول إليها من خلال حوالي عشرين صفحة استغرقها جهد صديقنا الحبيب الشاوش .

على اني لم أستغرب كل هذه السلبيات عندما وجدت صديقي ينسى حتى العناوين التي اختارها بنفسه وبوّب بها بحثه . . وعلى سبيل المثال . . القسم الثاني من بحثه والمعنون (أنواع النقد وخصائصه) .

فقد نسي كل الخصائص . . ولم يأت بها تطبيقا واحتراما

للعنوان . . كما انه ينسى حتى الترتيب الذي فرضه على نفسه في العنوان وفي بداية استعراضه لمحتوى القسم الثاني.

فهو في العنوان يقول حرفيا (أنواع النقد) فنتوقع من صيغة الجمع ورود ثلاثة أنواع على الأقل . . فإذا هو يسوق عبارة (النوع الأول . .) ولا يأتي بثان له فضلا عن ثالث ورابع الخ . . علما بانه لا يسمى نوعه الأول ولا يصفه أو يحدده بأي مفهوم أو شرح فضلا عن تصنيفه علميا أو فنيا إلى أي من أنواع النقد هو؟

يقول الأستاذ حرفيا :

(فهذا نوع أول من النقد يتوجه به عبد العزيز قاسم . .)

فأي نوع هذا الذي يتوجه به عبد العزيز قاسم ؟

ثم أين هو النوع الآخر والآخر والآخر ؟

وما طرح من أسئلة حول القسم الثاني يطرح مثله حول القسم الأول . . وحول التقسيم الثنائي الذي وزع به نهاية البحث ـ دون مبرر فجاء بعبارة "مسك الختام" ثم بخاتمة . . دون حاجة علمية أو أدبية تقتضي ذلك.

ولعلني أختصر الجوانب التي لاحظتها أو افتقدتها من البحث . . في النقاط والأسئلة التالية :

1 ـ لماذا تجنب الأستاذ الباحث الخوض في المذاهب والاتجاهات النقدية . . فلم يتعرض أو يستعرض ـ على حد قوله ـ أيا منها لا بالاسم ولا بالوصف ولا ببيان اثرها وانتماء بعض النقاد إليها ؟

2 ـ هل ان ما نشر في الفكر من دراسات ومقالات يمكن اعتباره أوجد حركة نقدية بأي معنى كان ؟

3 ـ هل ظهر نقاد جدد من خلال جيل الفكر. المتواصل في الأدباء والباحثين ؟ هؤلاء الذين ولدوا على صفحاتها وتغذوا بأدبها ونشأوا في مناخها ؟

4 ـ ما هي الحصيلة الحقيقية ـ كمية ونوعا ـ للأعمال النقدية المنشورة في الفكر ؟

5 ـ هل يمكن ان نقارن مثلا بين اثر أو تأثير النقد من خلال مجلة الفكر، في الحياة الأدبية بتونس، مثلما نقارن اثر أو تأثير الفكر على تطور القصة والشعر في تونس أيضا.

وعلى سبيل المثال التطبيقي . . نحن نعرف جيدا ان دور مجلة الفكر في معركة التعريب . . كان دورا ايجابيا وفعالا ومؤثرا . . وكذلك كان دورها في الدفاع عن الهوية الوطنية والشخصية التونسية في اطارهما العربي الاسلامي . .

كل ذلك نعرفه جيدا . . يوم كان بعضهم ينادي بشعاره (فكر تونسيا، وتكلم بأي لغة) . . بينما كانت الفكر تنادي

بان العـربية عنصر ومقـوم أسـاسي من عنـاصر ذاتيتنـا وقـوميتنا . . وان (التعريب ارادة وولاء) ارادة قومية وولاء للعروبة والاسلام تاريخا وحضارة (2)

6 ـ هل كانت في المجـلات التونسية السابقة (للفكر) حركـة نقـدية ؟ ومـا نوعها ومداها واثرها ؟ بالقياس إلى ما حققته مجلة الفكر ؟

لاسيما . . ونحن نعلم ان جيل الثلاثينات ـ جيل الشابي وخريف والبشروش والحليوي وزين العابدين السنوسي ـ قد بذل جهودا محمودة لخلق حركة نقدية جريئة . . لئن اعتمدت في بعض أسسها أو نظرياتها ، وحتى منهجها ، على ما هو وافد من الشرق ومن الغرب فقد كانت حركة قائمة بذاتها ، ولها طموحاتها الرائدة ومميزاتها الخاصة . .

لقد تجاوز اصحابها مجال المقالة والبحث إلى مجال المؤلفات والكتب المبوبة . . كما فعل الشيخ الخضر حسين وأبو القاسم الشابي ومحمد بن حسين .

7 ـ لماذا غاب عن صديقي الحبيب الشاوش التناقض في الآراء والمـواقف . . وحتى في الأحكـام النقدية عند بعض كتـابنـا ونقـادنـا الذين اعتمدهم في بحثه ؟ وقد كان ذلك ميسورا لو أنه رجع في كامل البحث إلى جميع أو أهم ما نشرته

الفكـر في مجال النقـد . . وكذلك ما سبق نشره في مجلات تونسية اخرى، مثل العالم الأدبي والمباحث والندوة والثريا ؟

ان بين ما نشره الحليوي في مجلة الفكـر من آراء نقـدية واحكام على معاصريه وبين ما نشره في مجلات اخرى تناقضا صارخا مما يؤكد ان الحليوي كان لا يناقض نفسه بنفسه فقط بل ويغير ثيابه الأدبية وآراءه النقدية بحسب الظروف والحالات .

هذه جملة من القضايا والمسائل الموضوعية التي ظهرت لي من خلال القراءة الأولى . . اطرحها أمامكم وأمام صديقي الحبيب الشاوش . . آملا ان نجد لها من خلال الحوار . . بعض الحل وبعض الاجابة .

---

(1) راجع مجلة الفكر عدد اكتوبر 1985 حيث نشر الأستاذ الحبيب الشاوش عرضا عن « النقـد في مجلة الفكر » . ومقالنا أعلاه قيل في مناقشته بجلسة علنية . ولم تنشره المجلة المذكورة في حينه ؟

(2) التعـريب ارادة وولاء : عنـوان مقـال للمؤلف نشره في مجلة « الفكر » فيفري 1971 ص 23 ـ 27 .

شكسبير في الأدب العربي

في يوم 23 أفريل من كل عام تحتفل بريطانيا بذكرى ميلاد شاعرها العالمي « وليم شكسبير » .

ومنذ خمس سنوات، وفي مثل هذا اليوم بالذات احتفل العالم كله ـ على اختلاف شعوبه ولغاته ـ بالذكرى المئوية الرابعة لمولد هذا الشاعر الفنان .

وقد ساهمت تونس يومئذ في احياء ذكراه بأسبوع حافل بالدراسات والنقد والحديث حول حياة « شكسبير » وأدبه واثره العالمي العريق .

وتونس بمشاركتها تلك، وما قدمته، وتقدمه من أعمال أدبية وفنية مختلفة، انما تبرهن عن تقديرها لشاعر عبقري قد ارتفع بمكانته وأدبه فوق مستوى العظماء وأصحاب العروش، لا في وطنه فحسب، بل في كل مكان وزمان .

وانه لمن غث الحديث وفضول القول ان نتلمظ بعبقريته مع المتلمظين وان نجتر التعريف به مع المجترين، فلقد أصبح أدبه في غنى عن كل قول، ولا اظن متحدثا عن حياته وعن أدبه في أي لغة وفي أي زمان يأت بعد الآن بما لم يسبق إليه، ولا تحدث عنه قلم أو فكر. فان شكسبير « قد ملأ الدنيا

وشغل الناس » منذ ثلاثة قرون كاملة خلت على أقل تقدير. وأظن نقادتنا (ابن رشيق) الذي كان له شرف ابتكار هذه العبارة الجامعة المانعة « ملأ الدنيا و شغل الناس » أظنه لو بعث اليوم حيا لسحبهـا من المتنبي وأغـدقها على شكسبير ولعاتب بحق عميد الأدب العربي الذي وضعها مجازا حين نعي صديقه الفقيد عباس محمود العقاد.

أجل ان شكسبير قد ملأ الدنيا وشغل الناس كما لم يملأها شاعر من قبل، ولا شغل الناس فنان غيره مهما كان فنه وكان نبوغه، وبأي لسان كتب وفي أي عصر عاش واشتهر.

وهو شاعر يعتبره قومه قمة القمم، وفوق جميع عظمائهم ومشـاهـير الرجال والنساء عندهم، على كثرة هؤلاء بينهم، وعـلى ما عرف به قومه من بصيرة نافذة ونقد حصيف متزن وتعلق أصيل عريق بالتقاليد ومراتب الرجال و النساء.

وهكـذا نكـون قد جئنـا متـأخـرين وليس في ايدينا الا قراضات الكلام ومنقولات التقدير والاجلال على حد قول شاعرنا العربي القديم.

مـــا أرانـا نقـول الا معـارا
أو معـــادا من لفظنـــا مكـــرورا

كل هذا يمكن ان يقال في هذه الذكرى، وان يحتمي به هربا من الحديث عن « شكسبير » حديثا غير معاد ولا مستعاد، لكن عبقرية شكسبير وفنه أوسع مدى واخصب أرضا أمام كل بصر باصر وقلم جائل أو فكر رائد وباحث جديد، فكأن شكسبير المصداق الوحيد لقولة كاتب تونسي معاصر، احاط بها ـ هو الآخر ـ أبا الطيب المتنبي حين جعله فتنة لكل العصور والأجيال. ولست مسرفا ولا متجنبا على الشاعر الكوفي حين استرد منه هذا التاج الأدبي لأضعه على رأس شاعر آخر أكثر منه شهرة وأبعد تأثيرا في آداب العالم وثقافته الانسانية الخالدة.

ولشاعرنا المتنبي مجال في غير هذا الميدان، أما صاحبه اليوم فهو « وليم شكسبير » هذا الذي ولد يوم 23 أفريل عام 1564 ومات بعد سبع وخمسين سنة من ولادته، ولكنه لم يمت حتى الآن في ذاكرة جميع الثقافات والآداب الانسانية.

وعلى الرغم من ان عصر حياة « شكسبير » كان عصر ظلام وجمود في الأدب العربي والثقافة العربية فان أدب شكسبير ما لبث بعد ذلك ان وجد طريقه إلى اللغة العربية منذ عصر الانبعاث الأول للنهضة العربية المعاصرة أي في الربع الأخير من القرن الماضي. ولدينا مجموعة من الوثائق والمعلومات تحدد لنا مراحل تعرف العرب على أدب شكسبير

إت ثلاث. أولاهـا مرحلة الاقتباس والترجمة المحرفة، ـانيتهـا مرحلة الـترجمـة المباشرة ولكن دون المستوى الفني لدقيق، وثالثتها مرحلة الترجمة الفنية الكاملة في نطاق ثقافي خاص.

ولعله من المفيد حقا، ان نقف وقفات قصيرة جدا، حول هذه المراحل كي نتعرف على تاريخها وظروفها وما حققته من أعمال أدبية في هذا المضمار.

تبدأ المرحلة الأولى في الربع الأخير من القرن الماضي وعلى وجـه التحـديد على يد الشـاعـر والأديب الكاتب (نجيب الحـداد)، الذي كان سباقا في ميداني التأليف والترجمة وفي مجال المسرحيات بوجه خاص، ومن من المشتغلين بالمسرح لا يذكر روايته الشعرية الاخاذة (صلاح الدين الأيوبي) وكم كان الجيل الماضي يتغنى بها ويحفظ الكثير من اشعارها.

ولعـــل رواية « روميو وجـــوليت » التي اشتهـــرت باسم « شهداء الغرام » كانت أولى مسرحيات شكسبير المنقولة للغة العـربية، غير ان نقلهـا كان أقـرب إلى الاقتبـاس منه إلى الترجمة، كما كان تعريبها شعرا غنائيا قد جعل منها أوبريت يبرز فيهـا الغناء على التمثيل. ولقد لحنها فعلا ومثلها غناء المطرب المعروف الشيخ (سلامة حجازي) وقد عرفت أيضا

باسم « المروءة والوفاء » . وشاهدها الجمهور التونسي قبيل الحرب العالمية الأولى .

ويقال ان المقدمة وبعض المواقف قد حورت أو حذفت ارضاء للجمهور المصري الذي لم تعجبه المسرحية في حالتها الأولى واحرزت رضاه واقباله بعد التحويرات المحدثة .

ومنذ هذا القرن إلى الحرب الأولى لم يتصد للترجمة ـ فيما نعلم ـ الا شخصان هما محمد عفت والشاعر خليل مطران وبهما دخلت الترجمة مرحلتها الثانية ، فهذان الرجلان ، وخاصة مطران ـ قد نقلا للعربية عددا من مسرحيات شكسبير نذكر منها مترجمات خليل مطران وهي (عطيل) و (هملت) و (مكبث) و (تاجر البندقية) . وقد ظلت مسرحيات خليل مطران هذه شائعة في العالم العربي أكثر من أربعين سنة ، ثم بدأت بعدها الترجمات تزداد عددا وتنوعا في اعقاب الحرب العالمية الثانية فكان ان ظهرت مترجمات جديدة اكثر ضبطا ودقة مما عرف سابقا عنها .

ونذكر على سبيل المثال مسرحية « مكبث » التي ترجمها محمد فريد أبو حديد وجعلها شعرا مرسلا كما تولى الأستاذ محمد عوض ابراهيم ترجمة ست مسرحيات أكثرها لم يترجم من قبل وهذه المسرحيات هي (كما تهواه) و (انطوني وكليو

باطـره) و (هنـري الثامن) و (ريتشارد الثاني) و (الليلة الثانية عشرة) و (العاصفة) وهذه الأخيرة سبق ان ترجمها الشاعر الفقيد الدكتور أحمد زكي أبو شادي .

وإلى جانـب هذه المسرحـيات ، يمكن ان نضيف جميع جهـود المـترجمين الآخرين الذين اسهموا في نقل مسرحيات شكسبـير خلال المرحلة الثانية أي من سنة 1908 إلى سنة 1957 ومن ابـرز المساهمين في هذه المرحلة خليل مطران الشـاعر المشهور ومحمد عفت واحمد زكي أبو شادي ومحمد فريد أبو حديد وأخيرا محمد حمدي الذي نقل للعربية مسرحية « يوليوس قيصر » .

ومنذ عام 1957 بدأت المرحلة الثالثة وهي المرحلة التي بلغ فيها نقل روايات شكسبير درجة عالية جدا من الاتفاق في التعريف والامانة في النقل والحرص الشديد على اظهار جميع محاسن المؤلف في مسرحياتـه . ويكفي دلالـة على ذلـك ان الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية هي التي اشرفت بنفسها على الترجمة بعد ان وضعت مشروعا خاصا يشمل ترجمة جميع آثـار شكسبـير المسرحية إلى اللغـة العربية ، وقد الفت لهذا الغرض لجنة كبيرة تحت اشراف وتوجيه عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين وشرعت هذه اللجنة في عملها منذ عام 1957 ويتـولى الـترجمـة فيها عدد من الاكفاء في اللغتين ،

ويتولى مراجعة كل ترجمة شخصان اثنان لضمان اقصى ما يمكن من شروط الاجادة والكمال .

وفعلا ، فقد تم حتى الآن نشر ستة مجلدات من أدب شكسبير تحتوي جميعها على أحد عشر مسرحية هي (كوميديا الأخطاء) و (ريتشارد الثالث) (وسيدان من فيرونا) و (خاب سعي العشاق) و (روميو وجوليت) و (حلم ليلة صيف) و (الملك جون) و (ترويض الشرسة) وأخيرا ثلاثة اجزاء من مسرحية مسلسلة طويلة هي مسرحية (هنري السادس) ترجمها الأستاذ محمد فتحي وراجعها كل من الدكتور محمد عوض محمد. والدكتورة سهير القلماوي . وترجم الجزء الثاني الأستاذ مصطفى حبيب ، كما ترجم الثالث الأستاذ محمد بدران العريق في ميدان الترجمة ، وكانت مراجعة الجزئين الثاني والثالث من طرف المراجعين اللذين راجعا الجزء الأول .

واشترك في ترجمة بقية المسرحيات الأخرى عدد وافر من رجال الأدب ، وراجع اكثرها كل من شفيق غربال ، ومحمد بدران ومحمد عوض محمد والدكتورة سهير القلماوي .

وإلى جانب هذه الترجمات الجديدة ذات المستوى الجيد الرفيع ، اخذت العناية تزداد بترجمة اشعار شكسبير الأخرى

والتعريف به في دراسات مستقلة سواء بشكل كتب تامة أو دراسات وبحوث تنشر عنه في الصحف والمجلات العربية.

ومن أفضل ما قرأناه في هذا المجال كتابا قيما لفقيد الفكر العربي الحديث عباس محمود العقاد وقد اسماه (التعريف بشكسبير) وهو كتاب يدخل في نطاق العمل الثقافي المنسق الذي رسمت منهاجه الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية، وقد ألفه العقاد خصيصا لها وبتكليف منها.

يضاف إلى هذا الكتاب كتيب شعري صغير وضعه صديقنا الفقيد احمد زكي أبو شادي عام 1926 عن شاعرية شكسبير وعبقريته الفذة في الأدب المسرحي بالخصوص.

ولم تتخلف تونس عن المساهمة في تقديم أدب شكسبير إلى قراء العربية وجمهور المسرح، فكانت تعتمد على مترجمات الشرق في تمثيل مسرحياته على المسرح التونسي، في شيء من التصرف والاقتباس، إلى ان نهض بعبء الترجمة رأسا من الانكليزية إلى العربية الدكتور الطاهر الخميري فنقل مسرحية « عطيل » التي مثلت بنجاح، وفي مستوى عالمي، ثم نقل مسرحية « هملت » وقد تم مؤخرا طبعها في السلسلة المسرحية التي تتولى نشرها (الدار التونسية للنشر) وهما الآن بين يدي القراء.

(*) جريدة العمل عدد 29/4/1969.

المسرح التونسي ومشكلته الأولى

من الكلمات الخالدة التي يتجدد معناها ويحيا في النفوس بتجدد الأيام وتعاقب الأجيال كلمة رائعة قالها احد رجال السياسة في مطالع هذا القرن، وهذه الكلمة هي قوله « **اعطني مسرحا اعطيك شعبا** » وهو يعني بدون شك اعطني مسرحا راقيا جامعا لشروط الفن والتثقيف والتوجيه اعطيك شعبا راقيا جامعا لشروط التربية والحضارة والسلوك الاجتماعي السوي .

فالمسرح هو المدرسة الشعبية التي فيها يتكون المواطن من حيث اخلاقه وذوقه وفهمه الصحيح للحياة وللواجبات والحقوق .

إذا كان المواطن يتلقى تأثيرات اخرى في البيت والمدرسة والمجتمع فان المسرح هو الغربال الذي ينقي تلك التأثيرات مما قد يعلق بها من ادران وانحراف وانحلال، وهو الذي يزيد عناصر الخير والتبصر والفضيلة في الناس، كما يطهرها من عناصر الشر والغواية والانحراف .

وقد ادركت الأمم المتحضرة اثر المسرح في الحياة الانسانية فكانت عنايتها به كبيرة ، وكان اثره في حياتها عظيما ، منذ عهد اليونان إلى اليوم .

وقد بدأت الحركة المسرحية في بلادنا منذ اكثر من خمسين سنة . وكان لها بدون شك دورها الخاص في كفاحنا الوطني ، وفي نهضتنا الفنية والثقافية والاجتماعية . كما كان لها رواد ورعيل طليعي من النساء والرجال ، صعدوا وضحوا بالكثير في سبيل بعثها ونجاحها ، برغم جميع العوائق والظروف السياسية والفنية والاجتماعية والمالية الصعبة التي كانت تجابههم .

وإذا كنا نشكو اليوم نقصا في المؤلفين المجيدين ، وفي الممثلين والممثلات وبقية الاطارات المسرحية ، فان هذا الوضع بالذات من شأنه ان يزيد في تقديرنا واكبارنا لأولئك الرواد السابقين ، الذين شقوا الطريق وبعثوا هذا الفن في تونس ، وجعلوه يتواصل جيلا بعد جيل وعاما بعد عام إلى ان وصلنا منهوكا ولكنه حي ، وضعيفا ولكنه قادر على النمو والتقدم والازدهار .

واليوم ـ في ذكرى خطاب الرئيس التوجيهي لاطارات المسرح عام 62 ـ فاننا نرى امكانيات كثيرة ، مادية وبشرية متوفرة ، ولكن ينقصنا تطويرها وتحسينها ، وزيادة عددها ونشاطها ، وجعلها في خدمة الشعب مباشرة ، حتى يكون المسرح التونسي في صف المسارح العالمية الأخرى .

وقد لمسنا وشاهدنا فعلا تقدما واضحا وكبيرا خلال الأعوام الأربعة الماضية، اذ امكننا ان نزيد في الاطارات، وان نبعث الفن المسرحي والفرق المسرحية في مدن كثيرة وفي معظم المعاهد الثانوية، كما امكننا ان نقدم روايات عالمية مثل عطيل، والعين بالعين او كاليقولا.

والواقع اننا لا نشكو من قلة الاطارات المسرحية بقدر ما نشكو من قلة المؤلفين المسرحيين المجيدين، الذين يستمدون من حياة الشعب ومن تاريخه ومن كفاحه التحريري، ومن تطلعه وجهاده لبناء مجتمع امثل تتوفر فيه العدالة والعلم والتقدم.

ان التقدم العظيم الذي حققته تونس في معظم الميادين منذ الاستقلال، ينبغي ان يشمل أيضا ميادين الفن والثقافة، وخاصة المسرح الذي هو اكثر الوسائل الفنية تأثيرا في النفوس وتصويرا للحياة، وتجاوبا مع النهضة.

ومن ينظر اليوم إلى واقع المسرح التونسي يسره ان يراه قد شرع فعلا في التطور ومجابهة اعبائه وتحقيق رسالته فمنذ خطاب فخامة الرئيس الذي ألقاه يوم 7 نوفمبر 62 وحركة المسرح في اتساع وانتشار، وهو كما سيحقق لها الاقبال والاهتمام من طرف الجماهير وبالتالي ما يجعلها تستجيب لحاجات الشعب

وتعـالـج مشاكله وقضاياه وتاريخه، وبذلك نعود إلى مشكلة التأليف التي هي محور كل حياة مسرحية، وأساس كل نهضة فنية.

ان الاعتماد على المسرحيات المترجمة أو المقتبسة أو المؤلفة في بلد عربي آخر لا يمكن بحال ان يكون حلا لمشكلة التأليف عندنا، كما انه سيجعل رسالة المسرح رسالة لا تحقق ما نؤمله لمسرحنا التونسي من دور فعال في نهضتنا وحياتنا ورقينا بل انه سيجعلنا بعيدين عن الأهداف العظيمة التي ينبغي ان يحققها المسرح في حياة الشعب.

ومن هنـا ينبغي ان تنصرف عنـاية الأدباء التونسيين إلى التأليف المسرحي وان يكون لنا مخطط خماسي أو عشري نحقق في نهايتـه ايجاد عدد معين من المسرحيات التونسية، لذلك ينبغي ان نرصد الجـوائز الكبيرة والمسابقات الدورية، وان تتـولى ذلـك البلديات والفرق المسرحية نفسها، فضلا عن الجهات الرسمية المشرفة على النهوض بالفن المسرحي.

وليس من شك في ان اسبـوع المسرح السنوي، انما هو عمل جاء من جملة الأعمال الكثيرة التي يراد بها نشر التوعية الفنية وتحقيق مرحلة جديدة نحو النهضة والازدهار.

والأمل معقود ومناط اليوم بالجمهور التونسي كي يقبل على المسارح ويزداد اهتمامه وشغفه بجميع الفرق والمسرحيات التونسية، خاصة وان الأسعار قد اصبحت اسعارا ليست معقولة فقط بل زهيدة جدا.

كما ان القصاصين التونسيين مدعوون اليوم أكثر من اي وقت مضى لأن يحترفوا كتابة المسرحيات، وان يسدوا الفراغ الذي نشكو منه في مجال التأليف المسرحي. وبهذا نتحول من التوريد المسرحي إلى الانتاج، وربما إلى التصدير أيضا كما تحولنا من التوريد إلى التصدير في ميادين عديدة اخرى (1).

---

1) الشعب : سلسلة جديدة عدد 68 يوم 1966/11/1.

هل كان المربد بمستوى التاريخ ؟

استهل كلمتي بتوجيه الشكر ـ عميق الشكر ـ إلى اللجنة العليا لمهرجان المربد، على ما بذلته من جهود هائلة في بعث المربد، فكرة، ومهرجانا، وملتقى عربي الوجه واللسان من الخليج إلى المحيط.

إذ لاشك في أن الفكرة رائعة، والقصد نبيل والاختيار في مستوى الظروف وفي مستوى التاريخ!

ولكن . . هل المهرجان ـ أعني هذا الذي عايشناه في أيامنا الماضية وأعني بالذات أمسياته الشعرية ـ هل كان حقا في مستوى التاريخ ؟ وفي مستوى الظروف ؟

إن الافراط في الاسفاف، والمبالغة في الأنانية إلى حد إحتكار المنصة وجلد الجمهور بالسياط ورجمه بالحجارة الثقيلة، وعدم الاكتراث بالغايات النبيلة المرجوة من المهرجان، والسخرية من إنسانيتنا، قد كانت كلها مهنة عدد غير قليل من شعراء هذا المهرجان، وفي الأمس بوجه خاص.

إننا نعتقد بان المهرجان مسؤولية وفن أو لا يكون، فأين المسؤولية والفن في كل ما جرى ؟

إننـا نعتقـد بان مسؤولية المشرفـين على إعداد المهرجان وتنظيمه مسؤولية ضخمة.

وبقـدر ما نكـبر فيهم بعثه فكرة وانجازا رائعا، بقدر ما ندعوهـم إلى البعد به عن كل مجاملة أو تساهل، وأن يوجهوا اهتمامهم أكثر نحو الكيف لا الكم.

وبكلمة صريحة إننا ندعو إلى أن تكون اللجنة أكثر صرامة وأكثر حزما نحو الشعراء، وأيضا أكثر رحمة بالجمهور.

إننا نقترح بأن يكون الانتاج الذي يشارك به المشاركون في المهرجان، معتمدا على شروط مسبقة، وان تكون حصيلة كل مهـرجان وثيقة أدبية وقومية في مستوى التاريخ وفي مستوى ظروف الأمة العربية . . وذلك لا يكون الا :

1 ـ بالاقتصار على عدد قليل جدا من الشعراء، خمسة أو سبعة في كل أمسية.

2 ـ بأن يكـون إنتـاجهم قد أعد خصيصا للمهرجان، وبذلك لا يجوز لهم نشره قبل القائه فيه وبعده أيضا.

3 ـ أن يقدم الانتاج إلى لجنة المهرجان ثلاثة شهور على الأقل قبل موعد انعقاده ليتيسر طبعه وتوزيعه على الباحثين والنقاد.

4 ـ أن تعتمد اللجنة على أعضائها والمراسلين في كل قطر عربي لتحقيق تلك الشروط.

وبـذلك يرتفع مستوى الشعر في المهرجان لا إلى مستوى الفن الحقيقي فحسب بل وإلى مستوى التاريخ ومستوى المسؤولية.

إن المهرجان فكرة ممتازة وغاية جليلة، وإنه لمن الواجب أن يكون كل انتاج يقدم للمهرجان ممتازا وجليلا.

وعلى جميع الشعراء ـ وخاصة الذين فرضوا أنفسهم على المهرجان، ففرضوا علينا الارهاق والاجترار لقديمهم المنشور أو جديدهم الغث ـ على هؤلاء أن يدركوا بأن المهرجان ليس منبرا للخطابة، ولا جمهوره من العبطاء والأميين.

وإذا كانت الحرية، حرية القول وحرية الاتجاه حقا مقدسا لكل واحد منهم ولكل انسان، فان الممارسة لهذه الحقوق لا تعني تجاوز حقوق المهرجان وحقوق جماهيره الغفيرة، وحقوق أمتنا علينا في مثل هذه الملتقيات.

واني إذ أهتف من أعـماقي بكل معاني الاعجاب والحب للشعـراء الـذين أجـادوا في جلسـة الأمس ـ وهم يعـرفون أنفسهم، كما تعـرفونهم أنتم ـ أهيب بالآخرين، أصحاب القوافي المرصوصة والصيغ المكدسة ومهتبلي المناسبات، بأن يريحوا أنفسهم، ويريحوا أدبنا، وخاصة مهرجان المربد، من طوفانهم اللفظي، وإسهالهم الصحفي . . إذ أن في صمتهم الحيكم أروع شعر يقولونه، وخير عمل يقومون به. (*)

---

* قيل في ختام مهرجان المربد (البصرة ـ العراق) ـ 5 ـ 4 ـ 72 ونشر في جريدة المهرجان وفي مجلة الآداب (بيروت ـ ماي 1972).

ألفية لابن هانئ الأندلسي

في سنة 1936 احتفلت عدة أقطار عربية بذكرى مرور ألف سنة على وفاة المتنبي، وفي سنة 1965، احتفل أيضا بألفيته للمرة الثانية، وأصدرت بعض الصحف التونسية بهذه المناسبة صفحات خاصة عنه ودعيت للمساهمة بالكتابة فيها، فكان مقالي « مقارنات خفيفة بين المتنبي وابن هانىء » واغتنمت الفرصة لالفت النظر إلى ضرورة الاحتفال بالفية ابن هانىء صنو المتنبي ومعاصره والملقب أيضا « بمتنبي المغرب » (1).

وفي الواقع فان صلتي بابن هانىء أقدم من هذا التاريخ، ففي عام 1958 نشرت أولى كتاباتي عنه، ضمن كتاب « شخصيات أدبية » الذي وضعته بالاشتراك مع الزميل عبد الله شريط.

وفي عام 1962 اعددت دراسة كاملة عنه حاولت طبعها بتونس اكثر من مرة، فحالت دون ذلك عوائق مطبعية عديدة، ثم كتب لها ان تظهر في سلسلة (اعلام المغرب العربي) عام 1967 في 80 صفحة منها 20 صفحة منتخبات من أشعاره.

وفي هذه الـدراسة جددت النداء والدعوة إلى الاحتفال بالفية ابن هانىء قائلا :

« للمتنبي شهرة عريقة وصيت عريض منذ كان يعيش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري إلى اليوم، فقد كان ـ وما يزال ـ يملأ الدنيا ويشغل الناس وليس الحديث عنه في تونس وبعض الأقطار العربية ـ خلال 1965، سوى دليل جديد على أنه مازال ملء السمع والفكر والقلم في دنيا الأدب العربي.

« ولكن الناس الذين يذكرون في كل مناسبة، وبلا مناسبة اسم المتنبي ويتلمـظون بحكمه وأشعاره قلما يذكـرون معه شاعـرا آخـر عاصره وتشابه معه في جوانب كثيرة من الحياة والشعر والملابسات، ولعل عيب هذا الشاعر الوحيد هو ان « مطلعه كان في الغرب » !

« والغريب ان النقاد القدماء قد فطنوا إلى وجوه التشابه بين الشـاعـرين فأطلقوا على شاعر المغرب لقب « المتنبي » لكنهم لم يزيدوا عن ذلـك شيئا ! ؟ فلم يولوا عنايتهم بشعر وحياة (متنبي المغرب) كما فعلوا مع متنبي المشرق ! ».

ثم قلت :

« ولئن كان المتنبي قد ظفر باعجاب العالم العربي واهتمام

النقـاد والبـاحثـين، منذ ألف سنة إلى اليوم، حتى احتفل بالفيته مرتين، فان ابن هانئ جدير هو الآخر بنفس الاحتفال والعناية والاهتمام من النقاد والدارسين، لا لأنه شاعر عظيم وند للمتنبي فحسب، بل ولأن ديوانه يمثل حلقة هامة جدا من تاريخ المغرب العربي سياسيا وأدبيا ودينيا.

« وعسى ان نرى أدبـاء تونس بل المغـرب العـربي كافة يحتفلون قريبا بألفية شاعرهـم الخالد « ابن هانىء » المشهور أيضا بـ « متنبي المغرب » (2).

واشرت في هامش هذا النداء إلى ان ألف سنة قمرية قد مرت على وفاة ابن هانىء، كما مرت ألف سنة شمسية على ميلاده، وان كلتا المناسبتين صالحة لاقامة مهرجان الفي لابن هانىء.

ثم كررت هذا النداء بهذا المعنى في مقالات عديدة اخرى نشرت في تونس (مجلة الـشـعـب) (3)، وفي ليبـيا (مجلة الاذاعة الليبية) (4)، وجريدة (طرابلس الغرب) (5)، وفي المغرب (مجلة اللسان العربي) (6).

وكـذلك في محاضرات القيتها في عدد من المدن التونسية خلال سنتي 65 و 1966.

وتجدد اهتمامي بهذه المناسبة في منتصف السنة الماضية وذلك أثناء اجتماعات لجان التخطيط للقطاعات الثقافية، حيث تأكدت النية وتحددت المناسبة لتكون سنة 1973 هي سنة الاحتفال بهذه الذكرى، أو على الأقل سنة الاعداد لها، ذلك ان عام 1973 يصادف تمام السنة الألف لوفاته.

وغني عن القول ان الاحتفال بالفيات الاعلام او المدن، ليس يقتضي ـ بالضرورة ـ ان يكون في نفس السنة المتممة للألف، بقدر ما يقتضي ان يكون متناسبا مع القيمة الأدبية أو التاريخية للعلم نفسه.

على ان تقديرا حسابيا لتحديد ذات اليوم لهذه الذكرى قام به الأستاذ محمد اليعلاوي (7). تبين له منه ان اليوم المذكور يصادف التاسع والعشرين من أفريل 1973، وذلك لأن وفاة ابن هانىء قد كانت لسبع بقين من رجب عام 362 للهجرة (8) وهذا التاريخ يوافق التاسع والعشرين من أفريل سنة 1973.

وقد أخبرني بذلك الأستاذ اليعلاوي خلال أيام الملتقى الثاني لابن منظور الذي جرى بمدينة قفصة في منتصف شهر ديسمبر الماضي كما اعلنه بنفسه في الجمهور اثناء محاضرته عن « الشعراء الافريقيين المعاصرين لابن هانىء ». (8)

والواقع ان هذه المناسبة لم تكن غائبة عن الذهن، كما لا يجوز ان تمر دون الاهتمام بها والاحتفال لها على مستوى اسلامي واسع النطاق.

فبالاضافة إلى ما سبقت الاشارة اليه، كنت اقترحت على اتحاد الكتاب التونسيين شتاء عام 1971 « ان يقيم الاتحاد مهرجانا سنويا لعلم من اعلام الثقافة والفكر والأدب التونسيين، على ان يكون المهرجان في مستوى قومي او عربي او عالمي، حسب نوع الشخصية ووزنها التاريخي والأدبي وعلى سبيل المثال يمكن ان نحتفل بألفية ابن هانىء وابن رشيق وابن شرف، واحد في كل سنة على التوالي.
« وان يحيي الاتحاد ذكريات الراحلين من اعلامنا في هذا القرن أمثال السنوسي - الأب، والابن - وغازي وخريف والبشروش . . . ».

لكن موسم (71 - 72) انتهى دون الاحتفال بأي من أولئك أو من غيرهم، ممن يزخر بهم تاريخنا الأدبي قديمه وحديثه على السواء ؟ !

وها نحن نعلن من جديد ضرورة الاهتمام باعلامنا واحياء ذكراهم كي يتواصل الترابط بين الأجيال ونعمق اصالتنا على منهج حديث، ونحيى تراثنا بما يؤكد شخصيتنا ويدعم مستقبلنا الفكري والحضاري.

ولن نكتفي هذه المرة بالنداء تلو النداء او بالاقتراحات التي يطويها النسيان ويمحوها الاهمال، وانما شرعنا في الاعداد والتخطيط، والعمل على مختلف المستويات القومية والجهوية والمحلية »، سواء فيما يخص الفيات ابن هانىء وابن رشيق وابن شرف او فيما يتعلق بذكريات البشروش، والسنوسي وغازي وخريف، وغيرهم من اعلام ثقافتنا وتاريخنا ـ قديمهم وحديثهم على السواء.

بل إن بعض اعلامنا قد أصبح رمزا دائما لنشاط ثقافي سنوي يقام في المستوى الوطني أو في مستوى مغربي، أو على مستوى أوسع منهما معا، كمهرجان يوغرطه بالكاف، وابن منظور بقفصة، فضلا عن المهرجانات الجهوية كمهرجان الامام المازري بسوسة، ومهرجان البشروش الذي أقيم مؤخرا في « دار شعبان الفهري » بولاية نابل، والذي ينتظر ان يتحول في السنة القادمة إلى مهرجان وطني.

وخلاصة القول، فان مهرجان الفية ابن هانىء، لم يعد حلما من الأحلام أو اقتراحا يتناساه الجميع، بل هو الآن، بصدد الانجاز، بعد ان وقع التخطيط له منذ سنة خلت، وسيكون جامعا لمشاركات علمية وحضارية في اعلى مستوى من الباحثين والعلماء ومن مختلف الأقطار الاسلامية والاوروبية التي يعنيها أدب ابن هانىء أو تاريخ الفاطميين

بوجه عام، سواء اكانت علاقتها به تاريخية أو دينية أو مذهبية أو ثقافية محضة (*)

1) العمل 24 ـ 9 ـ 1965 .
2) الكتاب ص 46 و 54 .
3) عدد 52 يوم 1 ـ 2 ـ 66 وانظر أيضا جريدة الصباح عدد 22 ـ 10 ـ 1964 .
4) عدد 7 و 8 من السنة السادسة 1966 .
5) اعداد 31 جانفي و 1 و 2 و 3 فيفري 1966 .
6) عدد 4 شهر أوت 1966 .
7) استاذ بالجامعة التونسية اعد اطروحة دكتوراه عن ابن هانيء، ستجري مناقشتها في باريس يوم 19 ـ ماي 1973 .
8) كتاب « وفيات الاعيان » لابن خلكان تحقيق احسان عباس ج 4 ص 422 .
* نشر في جريدة الصباح عدد 1973/4/30 .

الشعر والعام الجديد

في منتصف الليلة التي سبقت هذا اليوم الأول من عامنا الجديد 1968 . . دقت الأجراس في جميع انحاء الأرض، معلنة ميلاد عام جديد . .

ولم نقل وقتها : لمن تقرع الأجراس ؟ ! كما قال ذلك القصصي العالمي « سومرست موم » على لسان بطل روايته المشهورة بهذا الاسم .

وكذلك لن نردد قول المتنبي في استقباله عيدا سنويا آخر ـ كما نستقبل نحن هذا العيد كل عام ـ (**عيد باية حال عدت يا عيد**) !

ولن ننظر للحياة وللزمن نظرة سوداء متشائمة، كما نظر إليهما شاعر عربي قديم حين لم ير في فرحة الانسان بمولد ليلة جديدة في عمره الا نقصا من حياة المرء، وضياعا من سعادته، واقترابا من العدم والأبدية المجهولة .

وحسب رأي هذا الشاعر فان على الانسان ان يعلن الحداد والحزن على ما تصرم من أيامه ولياليه :

يسر المرء ما ذهب الليالي
وكان ذهابهن له ذهابا

ولكن البشرية قاطبة اعتادت في معظم أنحاء العالم، وفي جميع الشعوب ان نستقبل العام الجديد وتودع عامها السابق بالمرح والحبور والاحتفالات العامة الصاخبة، وكأنهم بذلك يبتهجون بالحياة، ويعلنون انتصارهم على الزمن، حيث أضافوا إلى أعمارهم عاما جديدا.

وهذا عكس ما يذهب إليه المتشائمون الذين لا ينظرون للحياة الا من خلال الظلام والكآبة والحزن.

على أن معظم أهل الفكر والأدب والسياسة، لا يستقبلون العام الجديد الا بالآمال والاحتمالات الخيّرة والأماني الطيبة للبشرية جمعاء.

وبصرف النظر عما قيل في عام 1967 من انه كان عام المساعي الموفّقة من أجل اقرار السلام العالمي، وبصرف النظر عن الآمال المعقودة حول عام 1968 فان كثيرا من شعراء العرب المعاصرين قد اعتادوا هم أيضا ان يستقبلوا العام الجديد .. بما يكون عليه حال بلادهم وحالاتهم النفسية في لحظات الشعور الزاخر وهنيهات التعبير الملهم.

ولدينا عدد غير قليل من هؤلاء الشعراء في تونس، كانوا يستقبلون سنويا مطلع العام الجديد بقصائدهم، ويسجلون بها أحوال معاصريهم في تلك السنين.

ولعـل من أشهـر هؤلاء في هذه الناحية، الشاعر الفقيد المرحوم أبو الحسن بن شعبان الذي ترك لنا مجموعة من هذه القصـائـد السنوية، فيها الكثير من حوادث عصرها وآمال الشاعر في بناء عالم يسوده السلام والعدالة والاخوة البشرية الكاملة.

ولئن كان أبـو الحسن بن شعبـان يخص بقصائده العام الهجري، فانه على كل حال كان يستقبل بها أعواما جديدة في حياة البشر، وكـانت نزعتـه في هذه القصـائد نزعة انسانية مثلى.. اذ هو لا يتمنى الخير والرخاء لمواطنيه فقط بل كان يتمنى ذلك لجميع الجنس البشري، وكان بوجه خاص يندد بالحـرب وبـالـظلم والاستعـمار، ويبشر بالاخـوة والانسانية التامة، وبالتعاون الأممي والتضامن العالمي ضد جميع قوي الشر والعدوان في الأرض.

وهـا هو يستقبـل عاما جديدا قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى بقليل، فيقول:

أهـلا بطلعـة بدر لاح فـي الأفـق
يزيـل مـا في نفوس النـاس من قلـق
لقـد تجلـت لنـا أنـوار طلعتـه
والجـو يختـال في بـرد من الشفـق

ومـذ بـدا والأسـى في القلـب منبعـث
والجسـم في تعـب مـن شـدة الأرق
ناديـت : يا بدر هـل بالبشـر تسعدنـا
فالكـون في قلـق والنـاس في فـرق
وهـل تنيـر قلـوب العالميـن كمـا
انـرت يـا بـدر فينـا ظلمـة الغسـق ؟
إنـي لآمـل ان يبـدو بطالعـه
للنـاس سلـم بـه يرتـاح ذو قلـق
سلـم يعـم بـلاد اللـه قاطبـة
بـه يـزول الذي قد كـان مـن حنـق

بهذه الأماني في السلام والرخاء لبنى الانسان استقبل أبو الحسن بن شعبان العام الجديد في أواخر الحرب الكونية الأولى .

أما نازك الملائكة شاعرة العراق الأولى ، فانها تستقبل عام 1950 بقصيدة من الشعر الحر . . فيها فيض من العواطف المكلومة والأسى الانساني وانين القلب . . قلب الشاعرة الجريح المكدود :

يا عام لا تقرب مساكننا فنحن
هنا طيـوف
من عالم الأشباح ، ينكرنا البشر

ويفر منا الليل والماضي ويجهلنا
القـــدر
ونعيش اشباحا تطوف
نحن الذين نسير لا ذكرى لنا
لا حلم لا أشواق تشرق لا منى
آفاق اعيننا رمـــاد
تلك البحيرات الرواكد في الوجوه
الصامتـــة
ولنا الجباه الساكنة
لا نبض فيها، لا اتقاد
نحن العراة من الشعور، ذوو
الشفـــاه الباهتـــة
الهاربون من الزمان إلى العدم
الجاهلون اسى النـدم
نحن الذين نعيش في ترف القصور
ونظل ينقصنا الشعور
لا ذكريـــات،
نحيا ولا ندري الحياة
نحيا ولا نشكو، ونجهل ما البكاء
ما الموت، ما الميلاد، ما معنى
السمـــاء.

يا عام سر، هو ذا الطريق
يلوي خطاك سدى نؤمل ان نفيق
نحن الذين لهم عروق من قصب
بيضاء، أو خضراء، نحن بلا
شعـــور
الحز ن نجهله ونجهل ما الغضب
ما قولهم ان الضمائر قد تثور
ونود لو متنا فترفضنا القبور
ونـود لو عرف الزمان
يوما إلينا دربه كالآخرين
لو ان أبواب القصور الشاهقات
كانت تجيء قلوبنا بسوى الهواء
لو اننا كنا نسير مع الحياة
نمشي نحس نرى، ننام
وينالنا ثلج الشتاء
ويلف جبهتنا الظلام
أواه لو كنا نحس كما يحس
الآخـــرون
وتنالنا الاسقام احيانا وينهشنا
الألـــم
لو ان ذكرى او رجاء او ندم

يوما تسد على بلادتنا السبيل
لو اننا نخشى الجنون
ويثير وحشتنا السكون
لو ان راحتنا يعكرها رحيل
أو صدمة أو حزن حب مستحيل
أواه لو كنا نموت كما يموت
الآخـــرون

كان هذا . . ما استقبلت به نازك الملائكة عام 1950 ، وهي يومئذ تعاني بأس العانس وآلام الخيبة من الحب الفاشل المحطم .

أما الآن وقد أصبحت زوجة منذ سنوات ، وعاشت حياة المرأة الكاملة فلا نظنها تستقبل عامها الجديد بشيء من هذا الحزن والأسى والنواح ، رغم ما فيه من حدب على الانسانية .

أما عبد الوهاب البياتي ، فانه يستقبل العام الجديد بنبرة انسانية أخرى ، فيحيل شقاء الكادحين والعمال نشيدا رائعا يتمجد به الانسان حيثما كان . . مناضلا عن الحق والعدل والفضيلة . ولـو أصبـح بنضاله عرضة للموت والصلب كما تعرض المسيح في دعوته إلى السماء ورسالته إلى الخير والحق والتســامح . . فانتقل إلى السماء ولما يتحقق بعدما دعا إليه

وتحمل الأذى في سبيله، فكان الصليب عند أهله رمزا للفداء والصبر والاحتمال، وليس الأشقياء والمظلومون في الأرض إلا صلبانا جديدة من الألم والصبر والفداء :

وهـذا الشاعر البياتي يكشف معاناة الأجيال في مختلف العصور . . في قصيدة واحدة فيقول :

في طريقي إلى الظلام البعيد
صلب الليل بالفراغ وجودي
لم أعد، لم أعد سوى بعض شيء
سحقته سخريتي ووعيدي
لظلام الفناء أعصر قلبي
ولا بنائه احز وريدي
كم مشى (قيصر) على لنصر
وتغنى بمجد (فرعون) عودي
وبنيت الأهرام والقيظ يشوي
رأسي المتعب الحزين وجيدي
ولثمت الأيادي التي لطمتني
وتفانيت في هوى معبودي
ولكم روحي المهينة بيعت
رغم املاقها بسوق العبيدي
وقضاة التاريخ داسوا ضريحي
وأدانوا بالافتراء شهودي

ومددت الجناح للأفق حتى
مس قلب الانسان، مس نشيدي
فإذا بالضياء يملأ كوخي
والملايين تلتقي في حدودي

(*) مجلة الشعب عدد 96 (68/1/1) .

مع الروّاد

ساطع الحصري كما عرفته

في الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر 1968 انتقل إلى الرفيق الأعلى المفكر والمربي العربي الأستاذ ساطع الحصري . .

ولا أظن أحدا من رجال التعليم والفكر القومي ، في البلاد العربية قاطبة ، لا يعرفه ، فقد ظهر على مسرح الأحداث القومية والتربوية منذ خمسين عاما خلت. وان كان اثره التربوي والفكري يعود إلى عهد أبعد من ذلك . . إلى عام 1900 على وجه التحديد. ففي هذا العام بدأ ساطع الحصري حياته العملية التي لم تنقطع عن الانتاج والعطاء الا بنهاية عام 1968 ، وخلال هذا العمر المديد تكونت على يديه وتخرجت بكتبه وأفكاره أجيال من الرجال والمفكرين والمربين ، وهذا ما لم يحدث في تاريخ أي رجل أو عالم من رجال وعلماء العرب في العصر الحديث.

سبعون عاما كاملة ، وساطع الحصري يعمل دون كلل أو ملل في شتى حقول الفكر والتربية وفي التبشير بالفكرة القومية ، وزرعها بالتعليم والكتب والمحاضرات والأحاديث والمقالات وبالاتصالات والجهود الخاصة الأخرى. كما دافع الحصري عن أفكاره وعن أمته ـ لا سيما عن تراثها ومقومات

شخصيتها ـ دفاعا مستميتا متصل الحلقات، محكم البناء، قوي الحجة، معتدل الأسلوب في اغلب الأحيان.

ولئن غاب عنا بشخصه المادي، فانه قد قام بأقصى ما يمكن ان يقوم به كاتب أو مفكر أو مرب عربي في العصر الحديث، كما ان روحه وأفكاره ومنهاجه العلمي والقومي ستظل نبراسا للأجيال وأساسا متينا من أسس البناء الفكري والتقدم الاجتماعي والتطور العلمي والانسجام القومي.

وهذا بلا ريب ما يعطينا الصبر والعوض لفقدانه، ويحفز الأجيال للاقتداء به وتحقيق ما لم يتحقق في حياته من آماله وأفكاره.

ذكريات قديمة

وأبدأ حديثي عن حياته ومؤلفاته، بذكرياتي عن أول معرفتي به ذهنيا ثم شخصيا ثم كتابيا.

ففي عام 1949 كنا ندرس في دار المعلمين العالية ببغداد تاريخ العرب . . وقد استعرض استاذنا الدكتور محمد الهادي يره آراء المؤرخين في العرب، وكان بينها رأى ابن خلدون . . فعقبت على رأيه فيهم قائلا : « ومن أجل هذا

الــرأي قيل عنــه انـــه شعــوبي » . . وهنـــا رفعت يدي لأسأل : من قائل هذاالقول ؟

فأجاب الأستاذ بانه أحمد أمين. فاثرت يومها وفي الأيام الموالية نقاشا حاميا داخل القاعة وخارجها، حتى أصبح ابن خلدون موضـــوع الكلية اليومي في أوســـاط الـطلاب مدة أسبوعين أو ثلاثة لاسيما طلبة قسمي الآداب والاجتماع . وقد حفـــزني ذلـك إلى مزيد من القـراءة والبحث عن الحجـج والبراهين العلمية والتاريخية لادعم موقفي في الدفاع عن ابن خلدون .

وفي مكتبــة الكلية الضخمة عثرت على كتاب عظيم جدا يقـع في جزئـين به مئـات الصفحات، وكله دفاع عن ابن خلدون. ولم يكـن مؤلـف هذا الـكتـــاب سوى ساطـــع الحصري . ومن يومها تكون رباط فكري وعلمي بيني وبين ساطع الحصري . . وشرعت ابحث عن مؤلفاته الأخرى. كما أصبح موقف ابن خلدون من العرب وموقفهم منه من أهم شواغلي الفكرية باستمرار.

وتشاء الظروف بعد ذلك ان اجتمع بالحصري في بغداد نفسها أثناء زيارته أو على الأصح عودته إليها، لأول مرة بعد عشر سنوات من نفيه عنها.

وقـد فوجئت في حديثي معـه بانـه لا يتكلـم العربية كما يتكلمها العرب في أي بقعة من بلادهم الشاسعة، فهو رغم وضوح لغته وسهولة تعبيره عن افكاره، يتكلم بنبرة فيها شيء من العجمـة، مما يدل على انه لم يتعلم العربية الا في سن متأخرة أو بطريقة المستشرقين، وقد علمت يومها من بعض تلاميذه الحاضرين أسباب ذلك وظروفه.

والغريب ان هذا التعثر اللغوي ـ ان صح التعبير ـ لم يمنع ساطع الحصري من ان يكون أكثر وأعظم المفكرين والكتاب العـرب حماسـة وغـيرة ودفاعا عن الثقافة العربية، والتراث العربي والأمة العربية كلها، فما كتبه في هذا المجال يفوق ما كتبه في أي مجال آخر، كما يفوق ـ كمية ونوعا ـ ما كتبه اي كاتب آخر على حدة.

وابتداء من عام 1957 قامت بيني وبينه مراسلات وتبادل هدايا الكتب من مؤلفاتنا ـ هو وأنا ـ وكان مفتاحها اهدائي له كتاب « العرب وابن خلدون » (1) كتحية له وتقديرا لما بذله من جهــد في دراسـة ابن خلدون والـدفـاع عنـه، والتعلق به . . حتى بلغ به الأمر ان كان لا يمضي كتاباته وكتبه الا بـ (**أبـو خلدون ساطـع الحصري**) مقدما دائما وبشكل بارز كنيته على اسمه. وهذا ليس جديدا أو طارئا عليه، بل هو قديم يعـود إلى تاريخ ولادة ابنه البكر، حيث اختار له من

الأسماء ـ خلدون ـ وهو الآن في الخمسين من عمره ، ولا شك في ان ذلك ناتج عن شدة حبه لابن خلدون واهتمامه به .

وقد تأثرت أنا بكل ذلك ، فاسميت ابنى خلدون وامضيت كثيرا من مقالاتي (**بأبي خلدون الصغير**) ومازلت احتفظ بذكرياتي عن الحصري ـ لاسيما رسائله ومؤلفاته المهداة ـ كأعز ما لدى من ذكريات وآثار .

بعد هذه اللمحة عن ذكرياتي وظروف معرفتي بالحصري وبعض كتبه ، أعود إلى عرض حياته ومؤلفاته ، وساكتفي بتقديم اطار وثائقي قصير عن حياته وقائمة كتبه وأبحاثه ، واختم ذلك بكلمة مختصرة عن كتاب واحد من كتبه ، وهو بالتحديد كتابه عن ابن خلدون .

معالم حياته الخصبة

ينحدر الأستاذ ساطع من أصل سوري حلبى ، وان كان قد ولد في اليمن وشبّ هناك ، ثم انتقل مع والده إلى مدن كثيرة من مدن السلطنة العثمانية متنقلا بين مناصب عديدة ادارية وتربوية ، كما انشأ كثيرا من المؤسسات التربوية والعلمية ، وقام بنشاط سياسي وفكري ، كان منطلق حياته ، كلها فيما بعد . .

ولا ننسى انه - في مختلف مراحل عمره الطويل - قد زار جميع الأقطار العربية، شرقية وغربية، كما زار الأندلس ومعظم الأقطار الأوربية، وكان بالخصوص كثير الزيارة والاقامة، لفرنسا وسويسرا، ولعل ذلك يعود لاتقانه الفرنسية أولا، ولميله واعجابه بالطرق الفرنسية والسويسرية في التفكير والتربية، أقول ميله واعجابه فقط، لأنني متأكد من انه كان من دعاة التفتح، والأخذ بالصالح من المفاهيم والطرق في التربية والتعليم بالخصوص، ولم يكن يكره شيئا في حياته كما كان يكره الانغلاق والانكماش ويحارب كل تعصب، مهما كان مصدره وكانت غايته وموضعه. كما كان مطلعا وعارفا بكل المذاهب والاتجاهات في حقول التربية والتعليم. ولكنه كان لا يختار أو يقتبس الا ما يؤدي إلى تحقيق تقدم أمته وتحقيق وحدتها وانسجامها وتطورها. وهو شديد الحرص على هذه الغايات قويّ الايمان بها لا يقبل بأيّ حال من الأحوال التخلي عنها أو التهاون فيها أو التساهل مع خصومها.

قلت انه سوري حلبي، والحقيقة انه يكاد لا يعرف من سوريا وحلب اكثر مما يعرف عن ليبيا ومصر . . بل لعلني اعرف عنهما اكثر مما يعرف هو . . لاسيما حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. فقد عاش اكثر من الثلث الأول من عمره الطويل. في تركيا، وعاش باقي حياته متجولا أو مقيما في

مختلف الأقطار العربية، ولم يكن حظ سوريا من اقامته بها بعد شبابه الا زهاء خمس سنوات.

وعلى هذا فهو عربي كامل المواطنة بصورة عملية حقيقية. وهذا ما نلمسه في كتاباته وأفكاره، اذ لا نجد أي نزعة اقليمية أو طائفية في مؤلفاته وأبحاثه، وقد حملني ذلك على نعته بالمواطن العربي الأول، عام 1956 حين اصدرت كتابي « **العرب وابن خلدون** » وتوجته باهدائه ـ كانتاج ـ إليه.

ولنعد إلى والده وميلاده كي نكون اطارا متكاملا عن نشأته وحياته يقول مؤلف حلبي آخر هو الصديق الأستاذ سامي **الكيالي** عن والد ساطع ما يلي:

هو: « .. محمد هلال الحصري. من رجال العلم، درس في الأزهر، نال اجازته العلمية. وعقب عودته إلى حلب عين قاضيا في الباب، ثم في حماه. ثم عين رئيسا لمحكمة الاستئناف في اليمن.

« وفي صنعاء .. ولد **ساطع الحصري** وقد تنقل مع أبيه ـ وهو طفل ـ من صنعاء إلى وطنه، إلى انقره، ثم إلى طرابلس الغرب ثم عاد إلى اليمن ثانية، ومنها إلى قونيه فطرابلس الغرب حيث عين (الوالد) فيها رئيسا لمحكمة استئناف الجزاء.

« وكـان ساطـع قد ترعرع ونما خلال هذه الفترات التي تقاذفت طفولته فدخل القسم الاعدادي في المدرسة الملكية في الآستانة وانقطع عن التجول مع والده » (2).

هذا ما يقـولـه سامي الكيالي عن الـوالـد وعن طفـولـة ساطع . . ولكن ماذا بعد ذلك ؟

لنـترك سامي الكيالي أيضا يحدثنا عن المرحلة الأولى من حياة ساطـع، وهي المـرحلة التي عاشهـا في ظل الخـلافـة العثـمانية، والتي بدأت من دراستـه في معـاهـدهـا الثانوية وبـالخصوص منذ انتهاء دراسته عام 1900 وكان يومها في العشرين من عمـره، ثم حتى نهاية الحـرب العالمية الأولى حيث انضم إلى الثورة العربية، وبارح تركيا عائدا إلى وطنه، ومن هنا بدا تاريخه الحقيقي ودوره الكبير في النهضة العربية والفكر القومي بالخصوص.

يقول سامي الكيالي :

« في سنة 1900 تخرج (ساطع) من المدرسة الملكية، وقد اختار سلك التعليم، فعين معلما لتدريس العلوم الطبيعية في « يانيا » التي اصبحت ـ فيما بعد ـ جزءا من بلاد اليونان، وقد بقي هناك خمس سنوات، ثم انتقل من التعليم إلى الادارة، فعـين (قائمـمقامـا ـ معتمـد ـ على قضـاء (معتمـدية) (روايشنـه) التـابع لولاية (قوصوه)، وهي اليوم جزء من

بلغـاريا . . . ومنها نقل إلى قائممقامية فلورينا التابعة لولاية (منـاستر) وهي تقع ـ داخل يوغسلافيا بالقرب من حدود اليونان » (3) .

وفي هذه الأثنـاء تكونت حركة تركيا الفتاة ، التي قام بها شبان اتراك ضد مظاهر الاستبداد والانحلال التي كانت تسود السلطنة العثمانية ، وكان مركز الحركة ولاية مناستر التي كان ساطع موظفا بها .

وكان كثير من شباب العرب يعلق على هذه الحركة آمالا عريضة لكونها وعدت بتحقيق العدل والحرية في جميع البلاد التابعة للخلافة . وعلى هذا الأساس ، انضم إليهم الحصـري رغم انه موظف في نفس الادارة والدولة التي يعمل على قلب أوضاعها .

وهكـذا « عمل مع هؤلاء الشباب الذين اعلنوا نزعاتهم الثورية ضد السلطان عبد الحميد ، فكتب وخطب » مؤيدا لهم حتى إذا تحققت أهدافهم سنة 1908 باعلان الدستور ثم بخلع السلطان عبـد الحميد في العـام الموالي ترك السلك الاداري . وانتقل إلى سلك التعليم ، فتولى مناصب تربوية عديدة ، منها تدريس علم الاجتماع في المدرسة الملكية التي تخرج فيها ، وتدريس فنّ التربية في دار الفنون ، وفي مدرسة

« دار الخلافة العثمانية » كما تولى ادارة دار المعلمين عام 1909 ، ثم تولى تنسيق واصلاح « دار الشفقة » (أي ملجا العجز) .

« وفي بداية الحرب العالمية الأولى ، بدأ مشاريعه التربوية الخاصة ، فأسس المدرسة الحديثة ، وانشأ فيها فرعا للأطفال ، سماه « عش الطفولة » ، ولعله أول محاولة لتأسيس رياض الأطفال في الدولة العثمانية ، قام بها مرب عربي ، ولرغبة الحصري في تعميم التعليم العصري ورياض الأطفال بالخصوص ، كون فرعا آخر لتخريج معلمات لرياض الأطفال ، سماه « دار المربيات » » (4) .

وإلى جانب هذه المعاهد والمؤسسات التربوية انشأ (باللغة التركية) مجلة علمية باسم « **انوار العلوم** » واخرى تربوية باسم « التدريسات الابتدائية » .

كما ألف عددا غير قليل من الكتب المدرسية باللغة التركية أيضا ، خاصة في العلوم . ومن هذه الكتب كتب في الحيوان والنبات ودروس الأشياء وقد ترجمت كلها للعربية وأصبحت كتبا مدرسية ـ لاسيما في عهد اشرافه على التعليم في العراق ـ حيث أعاد فيها النظر ونقح الكثير منها ، كما ترجمت بعض مؤلفاته التركية الأخرى ومنها كتاب عن « أفات الكحول » ترجمه الأستاذ طالب مشتاق (5) .

وخلال الحرب العالمية الأولى كان مستمرا ـ على ما يبدو ـ في أعماله التربوية تلك في عاصمة الخلافة، اذ ليست لنا تفاصيل عن حياته أثناء الحرب.

ولكننا نعرف ـ من المصادر التي ترجمت له ـ انه عاد لوطنه بعد الحرب مباشرة، وانه كان الاختصاصي العربي الوحيد عند اعلان استقلال سوريا وقيام الحكم العربي فيها، فتولى منصب مدير المعارف، ثم وزيرا للمعارف في حكومة الملك فيصل. ورغم قصر المدة التي عاشها الحكم العربي ـ بين عهدين من الاحتلال والحكم الأجنبي، العهد التركي أولا والفرنسي ثانيا ـ ورغم ان الحصري كان لا يكاد يتكلم أو يكتب بالعربية، ورغم ان جميع دواليب الادارة وبرامج التعليم في العهد العثماني كانت باللغة التركية رغم ذلك كله فقد ساهم الحصري في تحقيق انجازات عظيمة للغاية في أقل من عامين سواء في تعريب الادارة والتعليم تعريبا كاملا أو في انشاء عدد كبير من المعاهد والمؤسسات العلمية والتربوية في سوريا .

ولاشك في ان اختيار فيصل له ليكون المؤسس الأول للتعليم العربي الحديث في سوريا الفيصلية انما يعود لا لاختصاصه التربوي فقط، بل ولما كان يحمله من أفكار قومية ،وما ساهم به في دعم الثّورة العربيّة ضدّ الحكم العثماني.

وللأسف الشديد، فان عهد الاستقلال السوري لم يدم، اذ زحفت فرنسا على سوريا، واستولت على دمشق بعد معركة ميسلون المشهورة، وبسقوط دمشق يوم 24 ـ 7 ـ 1920 خرج فيصل وجماعته من سوريا، وكان بينهم ساطع الذي رافق فيصل بعض الوقت في أوربا، خاصة عند ذهابه لمؤتمر الصلح في فرساي حيث كان ساطع من المرافقين له، والمترجم بينه وبين مخاطبيه الأوربيين.

ونجده في عام 1921 مقيما في مصر. ولم تطل اقامته بها، اذ تولى فيصل من جديد عرشا جديدا، وكان هذه المرة في العراق. فدعاه من مصر ليتولى اعانته على النهوض بميدان التعليم والتربية في العراق . . فسافر بحرا إلى البصرة ومنها إلى بغداد، وفيها عاش عشرين عاما كاملة تقلب خلالها في مناصب كثيرة، ولكن معظمها كان تعليميا تربويا، أو متصلا بالحضارة والتاريخ.

ولدينا عن هذه الحقبة الطويلة وثيقة تاريخية هامة، في غاية الدقة والتفصيل، وهي مذكرات ساطع عن كل الأعمال والمسؤوليات التي تولاها في العراق وتقع هذه المذكرات في جزئين بهما حوالي ألف ومائتين وخمسين صفحة.

وفي صفحة واحدة لخص الحصري نفسه جميع المهام التي اسندت له في العراق فكانت كما يلي :

ـ مساعد لوزير المعارف، من 5 ـ 3 ـ 1922 إلى 16 ـ 1 ـ 1923.

ـ مدير عام للمعارف، من 17 ـ 1 ـ 1923 إلى 31 ـ 7 ـ 1927.

ـ أستاذ في دار المعلمين العالية، من 1 ـ 8 ـ 1927 إلى 30 ـ 9 ـ 1931.

ـ مراقب التعليم العام، من 1 ـ 10 ـ 1931 إلى 21 ـ 12 ـ 1931.

ـ رئيس (عميد) كلية الحقوق، من 22 ـ 12 ـ 1931 إلى 10 ـ 10 1934.

ـ ثم اضيفت إليه ادارة الآثار القديمة، من 11 ـ 10 ـ 1934 إلى 15 ـ 9 ـ 1935.

ـ ثم مدير للآثار القديمة ومدير التدريس والتربية العام، من 16 ـ 9 ـ 1935 إلى 11 ـ 9 ـ 1936.

وأخيرا ابعد عن حقل التربية والتعليم، واسندت إليه فقط ادارة الآثار القديمة، من 12 ـ 9 ـ 1936 إلى يوم 11 ـ 6 ـ 1941 حيث اسقطت عنه الجنسية العراقية ونفى من البلاد بعد فشل الحركة الثورية المسلحة التي قام بها رشيد على الكيلاني وجماعته.

وقد حرم من كافة حقوقه حين أبعد من العراق حيث طلب

منه مغادرة البلاد في خلال 24 ساعة وقد استمر منفيا عن العراق إلى عام 1951 حيث استطاع جماعة من تلاميذه وانصاره اثارة قضيته في مجلس النواب، واستصدار امر بالعفو عنه وارجاع كافة حقوقه إليه بما فيها اعادة الجنسية العراقية إليه ودفع معاشات التقاعد عن كامل المدة التي غاب فيها.

وكان لهذا القرار يومئذ صدى كبير في جميع الأوساط، خاصة بين رجال التعليم والفكر القومي. واذكر بهذه المناسبة، ان الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي، قد رحب بعودته للعراق، واعرب عن مشاعره في قصيدة قوية جميلة عنوانها «اقوى من المستحيل» وقد أهداها له، وهذا نصها كاملا:

عروبة أقوى من المستحيل نادتك بالأمس فكان الرحيل
أين جناحاك؟ فغاباتنا عبر الضحى يرتع فيها الدخيل
طاحونة كنا ولما نزل يشدها بالشمس ثور هزيل
قالوا: شعوب الأرض في ثورة فما لهذا الشعب غاف ذليل؟
يسوقه للقبر أطفاله ويشتم الأرذل فيه النبيل
وتنخر العثة ما ابقت الـ ـفيران في امجاده من اثيل
أين جناحاك؟ فغاباتنا نامت على سر اللصوص الوبيل
القمة الجرداء مهجورة والنسر بالمرصاد والمستحيل
يجيل عينيه. وماذا يرى؟ اكذوبة تربط جيلا بجيل

الفكـر في السوق ونخاســه دار به السوق. فضل السبيل
من أين ؟ والتاريخ في صمته يمالىء الموتى. ويخفى الدليل
الضاد لو يعلم انا هنـا فجر، لما تـاه بليـل طويـل
لاكان ضوء الشمس ان لم نخض في دمهم يوما، ونشف الغليل

* * *

عروبة أقـوى من المستحيـل نادتك بالأمس فكان الرحيل
قالوا : شعوب الأرض في ثورة فما لهذا الشعب غاف ذليل ؟

وقـد عاد للعراق فعلا، عام 1951 ولكنه لم يستقر به، بسبب مسؤولياته الثقافية في مصر آن ذاك، ولكنه ظل يزوره من حين لآخر، إلى ان وافته منيته في بغداد في شهر ديسمبر 1968، حيث دفن في تربته، وتحققت بذلك ـ في شخصه على الأقل ـ وحدة أفكاره القومية في حياته ومصيره، إذ انحدر من عائلة سورية، وولـد في اليمن وعـاش في معظم البلاد العـربية ومات في العراق، وهو القطر العربي الوحيد الذي عاش له واقام فيه وعمل من أجله اكثر من أي قطر آخر.

وحين ترك العراق عام 1941 عاش في سوريا ولبنان إلى ان أقـام الحكم الـوطني في سوريا سنة 1943 فانتدب من جديد ليدرس احـوال الـتربية والتعليم في سوريا، ويصلح أوضـاعهـا، فعمـل مستشارا فنيا لوزارة المعارف مدة ثلاث سنـوات وكـانت له يد طولى في « تغيير منـاهـج التعليم

بالخصوص تغييرا كبيرا »، كما وضع تقريرين عن أوضاع التعليم واصلاحه في سوريا.

وفي عام 1947 دعي إلى مصر حيث عمل أستاذا محاضرا في معهد التربية العالي للمعلمين، ثم أصبح مستشارا للادارة الثقافية في جامعة الدول العربية.

وفي عام 1951 أسس معهد الدراسات العربية العالية، التابع لجامعة الدول العربية. وأصبح هو مديرا له، وكان غرضه منه العمل على توحيد الفكر والثقافة القومية في البلاد العربية وهو معهد عال تبدأ الدراسة فيه بعد الاجازة في الآداب أو العلوم الاجتماعية او الاقتصادية.

وخلال عمله في هذا المعهد اصدر كتابا سنويا عن احوال التربية والتعليم في العالم العربي سماه « **حولية الثقافة العربية** » وقد أصدر منه خمس حلقات متوالية.

« ثم ترك ادارة هذا المعهد واكتفى بالتدريس والقاء المحاضرات ».

وأخيرا عكف في العراق على مراجعة حياته وأوراقه وكتابة مذكراته وتدوين تجاربه، إلى ان مات في شهر ديسمبر 1968 وهو مثابر على العمل والكتابة والتأليف، رغم بلوغه الثامنة والثمانين من عمره.

وحين يعود المرء إلى هذه الحياة الطويلة يجدها عريضة واسعة، ومليئة حقا بجليل العمل وعظيم الانتاج. حتى لكأن صاحبها لم يخسر فيها يوما واحدا من أيامها الزاخرة.

أسلوبه

وحين يلقي المرء نظرة على انجازاته، وأعماله وأيضا ابحاثه ومؤلفاته يأخذه العجب من هذه الشخصية الفذة، التي كانت حتى الأربعين من عمرها لا تكاد تعرف اللغة العربية، رغم اتقان صاحبها لغات اخرى، عرفنا منها بالخصوص التركية والفرنسية.

وهذا سامي الكيالي يقول انه حين « جاء إلى سوريا سنة 1919 كان لا يحسن العربية، ويكتبها بصعوبة، فعكف على دراستها بجد واهتمام، ومازال حتى استطاع ان يعبر عن آرائه بلغة تسودها العجمة والركاكة أحيانا إلى ان حسن بيانه، واصبح يعبر عن آرائه بكثير من السهولة والوضوح » (*).

وفعلا فان اسلوب ساطع الحصري يمتاز بالوضوح والدقة واستقامة العبارة، وتساوي المعنى باللفظ، ولاشك ان لاختصاصه في العلوم الطبيعية اولا والتربوية ثانيا، وميله إلى التاريخ والاجتماع، قد كون لأسلوبه تلك الخصائص وجعل له طابعا خاصا يميزه عن سائر الكتاب المعاصرين.

مؤلفاتـــه

وحديثنا عن أسلوبه يجرنا بطبيعة الحال إلى الحديث عن مؤلفاتـه في سائر فروع المعرفة التي انجذب إليها. ويمكن حصر كتبه وابحاثه في أربع ميادين رئيسية هي :

أولا : التربية.
ثانيا : الفكر القومي.
ثالثا : التاريخ.
رابعا : الاجتماع.

ولسنا في مقام التحليل لأي جانب من جوانب مؤلفاته أو آرائـه فيهـا، فضيق المجال والخطة المحددة لهذه الكلمة لا تسمح بذلك، لهذا فاني اقتصر على ذكر أهم مؤلفاته في تلك الحقول الأربعة، مرتبة بحسب تواريخ صدورها ما امكن، مغفلا الكتب المدرسية التي لها مكانة ثانوية ومجال آخر في نظرنا.

التربية والتعليم

فمن مؤلفاته في التربية والتعليم وما يتصل بهما من قريب أو بعيد، نذكر الكتب والأبحاث التالية :

آ) دراسـة نشرهـا في مجلته (التربية والتعليم) نقد بها

تقرير لجنة مونرو عن معارف العراق .

2) محاضرات في علم الاحصاء (1939) .

3) آراء وأحاديث في التربية والتعليم (1944) .

4) تقرير عن اصلاح المعارف بسوريا (1944) .

5) تقرير عن أحوال المعارف بسوريا (1945) .

6) أصول التدريس العامة ، وأصول تدريس اللغة العربية ، كتاب يقع في جزئين ، كل جزء بموضوع (1948) ولهذا الكتاب ـ خاصة ـ رواج وتأثير كبير على المعلمين في مختلف البلاد العربية ، وقد كان لسنوات عديدة المعين الأول لهم لاسيما في تونس وبقية أقطار المغرب العربي حيث لايزال متداولا بين المعلمين .

7) آراء وأحاديث في اللغة والأدب (1958) .

8) حول الوحدة الثقافية العربية (1959) .

9) **حولية الثقافة العربية** ، وهي دليل عام لأحوال وأوضاع التعليم في العالم العربي مستندا فيها إلى الارقام والاحصاءات الرسمية وقد أصدر منها خمس حلقات متوالية بين أعوام (1949 ـ 1954) .

10) أحاديث في التربية والاجتماع 1962 هذا . . عدا مجلاته التربوية التي سبق الحديث عن اصداره لها باللغة التركية أيام شبابه في الاستانة .

الفكر القومـي

أما مؤلفاته في الفكر القومي فنذكرها حسب تواريخ صدورها :

1 ـ آراء وأحاديث في الوطنية والقومية (1944) .
2 ـ محاضرات في نشوء الفكرة القومية (1951) .
3 ـ آراء وأحاديث في القومية العربية (1951) .
4 ـ العروبة بين دعاتها ومعارضيها (1951) .
5 ـ العروبة أولا (1955) .
6 ـ دفاع عن العروبة (1956) .
7 ـ ما هي القومية ؟ (1959) .
8 ـ حول القومية العربية (1961) .
9 ـ الاقليمية ، جذورها وبذورها (1963) .
10 ـ أبحاث مختارة (7) في القومية العربية (1964) .

ونـذكر الآن مؤلفاته المتعلقة بالتاريخ والاجتماع أو ذات الصلة بهما، مع العلم بان معـظمهـا قد كتب بروح قومية مستنيرة، وبمنطق يهدف إلى الدفاع عن التاريخ أو التراث العربي، قديما كان أو حديثا، مع الملاحظة بان كثيرا من كتبه الأخرى بها لمحات مماثلة :

1 ـ **كتاب دراسات عن مقدمة ابن خلدون**، الذي طبع الجـزء الأول منـه عام (1944)، وطبـع الثـاني عام (1945)، ثم أعيد طبعه مرتين منقحا، عامي (1953 ـ 1967)، وذلك بعد زيارته الثانية لتونس عام (1950)، حيث عكف على دراسة كل ما يتعلق بابن خلدون.وهـذا الكتاب هو أشهر كتبه التاريخية والاجتماعية، باعتباره جمع فيه دراسات متصلة بالعلمين، كما انه أوسع كتاب عربي عن ابن خلدون حتى الآن، وسنعود إليه بعد قليل.

2 ـ يوم ميسلون (1947)، وهو الكتاب الوحيد الذي بحث هذه الحـادثـة التـاريخية الحـاسمة، التي أدت هزيمة الجيش العربي فيها إلى ضياع استقلال سوريا الفيصلية وتركيز الاحتلال والحكم الفرنسي لها.

3 ـ صفحات من الماضي القريب (1948).

4 ـ آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع (1951).

5 ـ آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة (1951).

6 ـ البلاد العربية والدولة العثمانية (1957).

7 ـ مذكراته . . (1967 ـ 1968).

وآخـر ما صدر له مذكـراتـه عن العهـد الذي عاشه في العراق، وتولى فيه الاشراف على حظوظ التعليم والتربية، أو

المساهمة فيهما، وهو العهد الذي دام عشرين عاما. وقد أثبت الحصري في هذه المذكرات كل صغيرة وكبيرة عن هذه المرحلة من حياته. وقد طبعت المذكرات في جزئين كبيرين، الأول عام (1967) والثاني في شهر جوان (1968)، وهو آخر كتاب طبع له في حياته.

دراساته عن ابن خلدون

ونختم هذه الكلمة، بنظرة خاطفة عن كتابه الفريد حول ابن خلدون.

سبق ان تحدثت عن ظروف معرفتي لهذا الكتاب، وتعرفي بمؤلفه. وقد كان هذا الكتاب، فيما بعد، عمدتي الأولى في دفاعي عن ابن خلدون من ناحية ودراسة حياته وأفكاره من ناحية أخرى.

ورغم اهمية الموضوع والكتاب، فان قصر الوقت لا يسمح لي بان أتحدث (8) كما أحب وكما يجب، لذلك اكتفى بذكر ان الكتاب يقع في 650 صفحة ومزين بالوثائق والصور. وقد تحمل الحصري من أجله المشاق والعناء، فزار الأندلس والمغرب والجزائر وتونس، زيارة استطلاعية عام (1926) لمعرفة الأماكن والأجواء التي عاش فيها ابن خلدون، ثم زار

تونس مرة ثانية عام (1950) للتأكد من كثير من المعلومات وقد أقام بتونس هذه المرة عدة أسابيع ، وكان لها صدى كبير هام في معلوماته عن تونس (9) وفي تنقيح دراسته عن مقدمة ابن خلدون والتثبت من حقائق وأراجيف كثيرة حوله ، أشاع معظمها كتاب مشارقة (10) وإلى ان أعود إلى بحث هذه الدراسات والحقائق والأراجيف في مناسبة أخرى ، اختم كلمتي بنقل ملاحظة واحدة من الملاحظات الهامة التي كونها الحصري عن ابن خلدون أثناء زيارته الأخيرة لتونس .

يقول الحصري تحت عنوان (ابن خلدون في الذاكرة الشعبية) :

« ماذا بقي من حياة ابن خلدون وأعماله في الذاكرة الشعبية ؟

« نستطيع ان نقول ان الذاكرة الشعبية في مصر لم تحفظ عن ذلك شيئا ، وقبر ابن خلدون في القاهرة غير معروف الآن . »

« وأما الذاكرة الشعبية في تونس ، فانها لم تهمله أبدا . هناك يعرفه الناس ويعرفون الدار التي ولد وترعرع فيها ابن خلدون ، دار تقع في احد الشوارع المهمة من المدينة القديمة وهو شارع (تربة الباي) . . . وقد وضع على جانب بابها لوحة رخامية تذكيرا بمولد المفكر الكبير هناك .

« ويقع في آخر الشارع المذكور « كتاب صغير » تحت قبة جميلة، يسمى « مسيد القبة » ويروى ان ابن خلدون كان درس في هذا الكتاب.

« وأما قلعة ابن سلامة التي كتب فيها ابن خلدون مقدمته المشهورة، فموقعها معلوم لدى الجميع، انها تقع على بعد خمس كيلومترات من مدينة « فراندا » الحالية التابعة إلى مقاطعة وهران في الجزائر، واطلال القلعة شاخصة إلى الأبصار هناك » (*).

التعليقات

1) كان نص الاهداء : « إلى المواطن العربي الأول، إلى المفكر العربي الذي انصف ابن خلدون من أمته ومن التاريخ، فاحله المكان اللائق من أمجادها. إلى من تعلق حبه في ابن خلدون عن فهم وتمحيص ووزن، فقدم إليه اسمه وقلبه وعقله . . عرفانا منه وتقديرا، إلى الأستاذ ساطع الحصري ارفع هذا الكتاب (العرب وابن خلدون).

2) الأدب العربي المعاصر في سوريا ص 122 ـ 123 .

3) نفس المرجع ص 123 بتصرف زهيد.

4) نفس المرجع ص 123 ـ 124 بتصرف يسير.

5) مذكرات ساطع ج 2 ص 9 ـ 10 ، ومن كتبه التي ألفها بالتركية، ونقلت للعربية في عهده لتكون كتبا مدرسية : « علم الحيوان، قسم الفسلجة ». ترجمها عباس خماش، « علم النبات ـ قسم الفسلجة » ترجمة محمود نديم ».

6) الأدب العربي في سوريا ص 122 .

7) يضم هذا الكتاب فصولا مختارة من كتبه الأخرى في القومية العربية.
8) ألقى هذا البحث في الأربعينية التي أقيمت للفقيد بدار الثقافة ـ ابن رشيق ـ بتونس يوم 1969/2/28 .
9) من ذلك الفصل الذي عنوانه (قطوف لغوية في تونس) والمنشور في كتابه :

« آراء وأحاديث في اللغة والأدب » ص 158 ـ 179 طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت 1958 ، والملاحظ ان دار الطليعة ببيروت أيضا قد أعادت طبع هذا الكتاب سنة 1966 باسم « اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية » وللدكتور، ط. الخميري تعليق طريف حول بعض فصوله، « الفكر » س 4 ع 1 ص 11 ـ 13 .
10) راجع تفصيل ذلك في دراسات الحصري، وفي كتابي « العرب وابن خلدون » .

*** نشر في مجلة الفكر ـ س 15 ع 5 (1970/2).**

المراجـــع

1) ساطع الحصري : معظم مؤلفاته المذكورة في البحث.
2) سامي الكيالي : الأدب العربي المعاصر في سوريا ـ مكتبة الدراسات الأدبية ط. مصر 1959 .
3) أنور الجندي : النثر العربي المعاصر، في مائة عام ط. مصر 1961 .
4) الموسوعة العربية الميسرة ط. القاهرة 1965 .
5) وثائق خطية خاصة.

لمحات عن ساطع الحصري

ينحدر من أصل سوري ـ من حلب بالذات ـ ولكنه ولد في اليمن عام 1880 حيث كان أبوه قاضيا بمحكمة الاستئناف الشرعية بصنعاء، وانتقل مع أبيه إلى طرابلس الغرب، ثم إلى صنعاء، ثم إلى ليبيا، قبل أن يستقر هو بتركيا لمتابعة تعلمه الثانوي والعالي. وكانت اليمن وليبيا ولايتين عثمانيتين في هذا العهد.

وفي تركيا تخرج في معاهدها التربوية الحديثة، والتحق بسلك التعليم لمدة خمس سنوات 1900 ـ 1905، بإحدى مدن اليونان التابعة لتركيا، ثم أصبح حاكما إداريا لبعض المناطق من بلاد البلقان التابعة لتركيا يومئذ ـ يوغوسلافيا وبلغاريا اليوم.

انضم إلى حركة «تركيا الفتاة» المطالبة بالدستور والاصلاح ووضع حد لاستبداد السلطان عبد الحميد.

وعندما نجحت الحركة بإعلان الدستور 1908 وخلع السلطان 1909 استقر بالآستانة حيث أسندت إليه إدارة الكلية الملكية ومناصب تربوية أخرى، لما عرف به من اهتمام وتخصص في التربية والتعليم.

اختلف مع الحكم الجديد حين تبين له أنهم لا يهتمون بحرية العرب واستقلالهم، فاستقال من جميع وظائفه الحكومية، وأسس مجموعة من المعاهد التربوية الحرة، منها معهد لتخريج معلمات لرياض الأطفال، ورياض أطفال لأول مرة في العالم الاسلامي، كما أنشأ عدة مجلات ـ بالتركية ـ متخصصة في التربية والعلوم الطبيعية، حيث كان يواصل تجاربه العلمية في النبات والحيوان خاصة. كما ألف مجموعة من الكتب العلمية المدرسية التي عممت رسميا في تركيا والبلاد العربية التابعة لها.

حين انتهت الحرب العالمية الأولى 1918، وقام الحكم العربي في سوريا بقيادة الأمير فيصل، دعاه ليتولى شؤون التعليم، وأسند إليه وزارة التعليم وكان ساطع ـ حتى هذا الوقت ـ لا يكاد يعرف اللغة العربية، ولكنه بذل جهدا جبارا في إتقانها حتى أصبح من كبار الكتاب بها، وإن بقيت في لهجة نطقه لكنة تشبه لكنة بعض المستشرقين.

ورغم قصر المدة التي عاشها حكم الاستقلال في سوريا ـ سنتان ـ فقد استطاع الحصري خلالها أن يعرب الادارة ـ في ستة شهور ـ وبأن يتعلم العربية خلالها جميع الموظفين الذين كانوا ـ وهم الأغلبية ـ لا يحسنونها، حيث كانت التركية وحدها هي اللغة الرسمية، وأن يؤسس جميع مراحل التعليم، بما في ذلك كلية الطب باللغة العربية.

بعد احتلال سوريا من طرف الجيش الفرنسي وسقوط الحكم العربي، رافق الملك فيصل إلى مؤتمر فرساي للمطالبة باستقلال البلاد العربية، وكان مترجمه ومستشاره، حيث كان يجيد عدة لغات خاصة الفرنسية التي كانت لغة ثقافته العلمية والتربوية واعتماده في جميع مؤلفاته.

بعد فشل فيصل، استقر ساطع بعض الوقت في مصر، فلما أصبح فيصل ملكا على العراق دعاه من جديد سنة 1922 ليكون معينه في بناء العراق الذي كان وضعه التعليمي والاداري شبيها بوضع سوريا، لأنهما عاشا تحت الحكم التركي عدة قرون.

أقام ببغداد وحصل على الجنسية العراقية، ورفض منصب وزير، وتقلب خلال عشرين عاما في مناصب إدارية كبرى ذات صلة مباشرة بالتعليم والتربية والثقافة.

يعتبر المؤسس الحقيقي للثقافة والتعليم العصريين في العراق، لما أحدثه في البلاد من مؤسسات تربوية وثقافية، وبرامج وكتب، ولما تخرج عليه من أجيال.

في عام 1941 قامت في العراق ثورة مسلحة ضد الاحتلال البريطاني بزعامة رئيس الحكومة رشيد علي الكيلاني، ولما فشلت الثورة، طرد الاستعمار ساطع من البلاد

وجرده من جنسيته وجميع حقوقه، رغم أنه لم يقم بأي عمل مباشر، ولكن خطره الفكري والتربوي على وجود الاستعمار كان واضحا جدا. فانتقل إلى لبنان.

في عام 1943 تم إعلان استقلال سوريا فدعي من جديد لاصلاح أوضاعها التعليمية، فتولى ذلك إلى عام 1946.

ثم انتقل إلى مصر محاضرا في معاهدها التربوية العليا. وفي سنة 1953 تأسس معهد الدراسات العربية العالية، التابع للادارة الثقافية في جامعة الدول العربية فأصبح أول مدير له (1953 ـ 1966)، ووضع أساسه وبرامجه ونشر كتبه، كما أصدر خلال خمس سنوات (1949 ـ 1954) سلسلة من الكتب السنوية الكبيرة عن أحوال الثقافة والتعليم في العالم العربي باسم « حولية الثقافة العربية ». كانت الأولى من نوعها.

في عام 1951 عاد للعراق، وقد أعيدت له حقوقه المجمدة، وجنسيته، ولكنه ظل يتردد عليه وعلى البلاد العربية الأخرى، ويقضي الصيف في أوربا، خاصة في فرنسا، وسويسرا، إلى أن توفي في 24 ديسمبر 1968.

يعتبر ساطع الحصري أول وأكبر مربٍّ عربي عصري، له تأثير شامل في جميع البلاد العربية، سواء بكتبه التاريخية أو

التربوية أو القومية، وله تأثير خاص على معلمي اللغة العربية والتاريخ.

كان علمي التفكير. والاتجاه والأسلوب، كان لا يهتم بسياسة الحكومات العربية، وقد كرس حياته الطويلة في نشر التربية الحديثة وبث الشعور القومي، والدفاع عن القضايا العربية لاسيما ما يتصل بالتاريخ والثقافة.

كان يرى أن نشر التربية العصرية على أسس قومية، كفيل بخلق أجيال مسلحة بالعلم والحماس القومي، وان ذلك يؤدي إلى التحرر الوطني والوحدة القومية، ويقضي على جميع الفروقات ومظاهر التخلف التي أوجدتها عصور الانحطاط والحكم الأجنبي والشعوبية بأنواعها المختلفة.

ترك أكثر من ثلاثين كتابا في التربية والتاريخ والاجتماع والثقافة والقومية.

يعتبر أدق وأهم كاتب عربي درس حياة ابن خلدون ومقدمته، بمنهج علمي، كما دافع عن ابن خلدون وأحبه حتى سمّى ابنه « خلدون » وكان يمضي كتبه ومقالاته بلقب: « أبو خلدون ساطع الحصري »، وكتابه الكبير « دراسات عن ابن خلدون » من أغنى وأحسن ما كتبه العرب عن ابن

خلدون، وفيه فصول رد بها مطاعن الكتاب والمؤلفين المشارقة وفنّد آراءهم المغرضة.

زار تونس مرتين، وكانت الثانية عام 1950 لاستكمال معلوماته عن ابن خلدون ومجتمعه، وقد سجلها في كتابه عنه، لاسيما في طبعاته المتأخرة، كما درس التعليم واللغة والثقافة بتونس وكتب عنها في حولياته وبعض كتبه الأخرى.

كانت لي معه صلات شخصية منذ عام 1951، وتقديرا مني لدفاعه عن ابن خلدون، أهديت له كتابي: « العرب وابن خلدون » الذي طبع عام 1956 بتونس. (*)

* نشر في مجلة الرواد س 6 ع 7 (اكتوبر 1970).

المعجزة الاسلامية

في الجـزائر الشقيقة الباسلة، أدب عربي أصيل، وأدباء ممتـازون أفـذاذ برغم الكابوس الاستعماري البغيض الذي جثم على صدر الشعب البطل مائة واثنين وثلاثين عاما، عاث خلالها فسادا واستغلالا وانتهاكا للحرمات والمقدسات، ولم تتورع زبانية الاستعمار عن أي لون أو نوع من ألوان الارهاق والقهر وأنواع الاضطهاد والتنكيل.

وكان الدين الاسلامي واللغة العربية في مقدمة ما حاربه الاستعمار وتفنن في مطاردته ومحو آثاره بكل الوسائل. وتاريخ الاستعـمار الديني والثقافي في الجزائر يملأ وحده مجلدات لو كتبت لبلغت العشرات أو المئات.

وتكفي الاشارة هنا إلى أن الاستعمار الفرنسي في الجزائر كان يعتبر نفسه امتدادا ومواصلة للحروب الصليبية القديمة، وقد دشنه الملك شارل العاشر ـ يوم تهيّأت أول حملة عسكرية لاحتلال الجزائر بخطاب قال فيه :

« ان العمـل الـذي ستقـوم به الحملة ترضيـة للشرف الفرنسي سيكون ـ بمساعدة العلي القدير ـ لفائدة المسيحية كلها » ! !.

وجاء الكردينال (لافيجيري) فبارك هذا الجهاد الصليبي بنصائحه وأعماله التبشيرية، وأوصى بالخصوص بأن تعمل فرنسا (العظيمة) للقضاء التام على الاسلام والعروبة في المغرب العربي كله، حتى يتوطد وجودها وتتحقق أهدافها في فرنسة المغرب العربي أي جعله فرنسيا دينا ولغة وشعورا وكيانا.

وكان هذا الكردينال يرى أنه « **مادام الاسلام دينا لسكان المغرب العربي والعربية لغة لهم. فان الوجود الفرنسي سيكون دائما معرضا للخطر وللزوال** ».

ولم يتوان أبناء فرنسا في العمل بنصائح هذا الكردينال، وخاصة في الجزائر. حيث كانت امكانياتهم أكثر ودعائمهم أقوى وقدمهم أرسخ.

وحين يعود المؤرخ أو الباحث إلى الماضي القريب جدا إلى بضعة سنوات خلت يجد الجزائر غارقة ليس فقط في برك من الدماء بل في برك من الكبت الفكري والاضطهاد الديني والميز العنصري الذي يفوق في أنواعه ومداه ما يجري الآن ضد الأفارقة في جنوب افريقيا. ويكفي دليلا على ما نقول هذه الأمثلة التالية :

أولا - هدم عشرات المساجد، وتحويل عدد كبير من

الجوامع إلى كنائس ومؤسسات دينية مسيحية.

ثانيا ـ مصادرة جميع الأوقاف الاسلامية.

ثالثا ـ اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية، وتحريم استعمالها في جميع الدوائر الرسمية ومحاربة تعليمها وانتشارها لا في المدارس والمعاهد الرسمية فحسب بل وفي المدارس والمعاهد الخاصة.

رابعا ـ مقاومة وقمع جميع الحركات الدينية والثقافية ذات الصبغة الاسلامية أو العربية.

خامسا ـ عرقلة انتشار التعليم بين الجزائريين حتى ولو كان باللغة الفرنسية. وقد بلغ الأمر بالاستعمار أنه كان يعتبر حصول الجزائري على ادنى جزء أو مستوى من الادراك العقلي ـ فضلا عن العلمي ـ خطرا يهدد كيانه وحضوره الاستعماري.

خذ مثلا لهذه السياسة الحقود والقمع المسلط على فكر الانسان وثقافته، قصة تروى في الجزائر عن جزائري دعى أمام حاكم فرنسي في جهة تبسة ليختبر مستواه الثقافي حتى يسند إليه عملا يوميا عاديا للغاية، فعندما خرج الجزائري من مكتبه سجل الحاكم هذه الملاحظة : فكر خطير، انه يعرف الحساب إلى العشرة »!!

هذه القصة يذكرها الكاتب الجزائري المعاصر مالك بن نبي في كتابه (في مهب المعركة).

وهي ان دلت على شيء فعلى فزع الاستعمار من انتشار المعرفة بين أفراد الشعب الجزائري، حتى ولو كانت على هذا المستوى المحدود جدا.

ذلك ان الاستعمار يدرك أن المعرفة توقظ الوعي والوعي يقود إلى الثورة، والثورة تكتسح وجوده وتعصف به عصفا لا يبقى عليه ولا يذر، كما حدث فعلا وانتهى موكب العبيد وانطلقوا أحرارا يرددون مع روح ابن باديس :

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

وهكذا حققت الجزائر، المجاهدة معجزة جديدة للاسلام وللعرب في عصر لم يعد يؤمن الا بالمعجزات العلمية التي تطير بالانسان إلى القمر أو المريخ.

ولكن مؤرخي المستقبل، حين يؤرخون عصرنا ويحكمون على مميزاته حكما نزيها، لابد أن يقولوا عنه أنه كان عصر الفضاء وعصر استقلال الجزائر.

وإذا كنا نعتبر ثورة الجزائر وانتصارها الكامل معجزة اسلامية عربية فلأن بذورها كانت أيضا اسلامية عربية .

ومن يراجع بتعمق تاريخ الكفاح التحرري في الجزائر، يجد أن روحه كانت دائما اسلامية، وان انطلاقه كان دائما عربيا، من كفاح الأمير عبد القادر، إلى ثورة فاتح نوفمبر 1954 .

وهذا الامتداد والتواصل الاسلامي العربي هو سر قوة الجزائر وصمودها وعدم ذوبانها وتلاشيها المعنوي في بوتقة الادماج والفرنسة الاستعمارية .

أجل . . . لقد ضاع كيان الجزائر العادي، فلا دولة، ولا علم، ولا جيش، ولا أي وجود وطني آخر بقي قائم الذات إلى جانب الوجود الاستعماري في الجزائر، كما كان الحال بالنسبة لتونس والمغرب الأقصى. ومع ذلك بقى الشعب الجزائري شعبا عربيا مسلما.

وكل باحث ومؤرخ نزيه لايستطيع أن ينكر أن مرد ذلك إلى عمق الجذور الاسلامية والعربية في الجزائر.

ان مائة واثنين وثلاثين عاما لم تستطع أن تمحوا جاذبية الاسلام وأثره الوراثي العميق في نفس الفرد الجزائري .

فحتى أولئك الذين لم يعرفوا قط اللغة العربية ولم يتلقوا أي تعليم ديني، قد كانوا بوراثتهم وحدها صامدين بوجه الاستعمار الفرنسي.

أما الذين نفخت فيهم الحركات الوطنية أو الاصلاحية الدينية من روحها ودعوتها، فقد كانوا درع الثورة وأبطالها وعقولها المدبرة والمفكرة والقائدة.

والمؤرخ المعاصر للحياة الفكرية في الجزائر لا يعجب اطلاقا بعد فرنسة لغوية وثقافية دامت اكثر من قرن وربع، ان يجد شعراء وكتابا وقصاصين وعلماء أفذاذا يكتبون جميعا باللغة الفرنسية، انما العجيب الأعجب أن يجد في الجزائر كتابا وشعراء ومفكرين وعلماء ممتازين يفكرون ويكتبون باللغة العربية وفي المستوى العبقري الجهير.

وهذا التراث الجزائري الحديث، الأدبي والروحي، هو الذي صقل النفوس وأعدها نفسيا وعقليا للثورة، وهو الذي كان نبراسها وروحها طيلة سنوات الجهاد المباركة.

فالمسلم الجزائري الذي كان يستمع كل يوم في المسجد أو في الراديو لآيات الجهاد وأصوات الاسلام تحثه على الايمان والواجب المقدس، لاشك في استجابته إذا ما دعى بحكمة وهيأ بتؤدة للثورة والكفاح.

أفليس في الآذان وحـده نداء يومي ملح بشعـار الجهاد الاسلامي : « الله اكبر . . . الله أكبر . . » ؟

ومن هو المسلم الذي يرن في أذنيه وقلبه هذا النداء كل يوم . . . ثم لا يلبي واجب الجهاد حين يُدعى إليه . . . أو يُرغب فيه ؟

وهنا تبرز بوضوح أدوار ودلالات كثيرة، أهمها دور جمعية العلماء المسلمين في الجزائر ودور المصلح الفقيد عبد الحميد ابن باديس بالخصوص، ودلالة كلمات الجهاد والمجاهد التي كانت قاموس الثورة وشعارها النفسي العظيم .

ان الثـائر في الجزائر لم يوصف بأنه (مجاهد) صدفة ولا وصفت الثورة بأنها جهاد اعتباطا، انما كان كل ذلك عن قصد وبحافز وراثي عميق الجذور ونتيجة لصقل ووعي حديثين، كان لهما الأثر الحاسم في حركات الاحياء والبعث والثورة .

ان التأثير الروحي والفكر الخالق للثورة الجزائرية لم يؤرخ ولم يبحث بعد، لكن اشتاتا منه تتناثر بين الحين والحين هنا وهناك .

وقد كان عام 1961 عاما زاخرا بهذه الاقباس الثورية، واشتاتها الفكرية والأدبية .

ففي نهاية هذا العـــام صدرت كتب عديدة عن الثـورة الجزائرية وعن المعالم الفكرية والأدبية التي قادت إليها ، ومن هذه الكتب :

1) ديوان اللهب المقدس للشاعر الأستاذ مفدي زكرياء .

2) في مهب المعركة للمفكر الجزائري الأستاذ مالك بن نبي . الذي يمثل بشخصيته واتجاهه الروحي آية كاملة على فشل الاستعمار الفرنسي في الجزائر فشلا روحيا ومعنويا كاملا قبل فشله المادي والعسكري الأخير.

3) محمـد العيد آل خليفـة : « رائـد الشعـر الجزائري الحـديث » وهـو دراسة بقلم الكاتب الجزائري الأستاذ أبو القاسم سعد الله .

وقد نشر وطبع الكتاب الأول في بيروت ، والكتابان الثاني والثالث في القاهرة .

ورغم تفاوت هذه الكتب واختلافها موضوعا وأسلوبا فانها جميعا وثيقة الصلة بالتاريخ الروحي والفكري والأدبي للثورة . ومن هنا كان اهتمامي بها وتحدثي عنها .

وسنبدأ بكتاب مالك بن نبي لأنه أقرب دلالة على فشل الاستعمار في سياسة الفرنسة والادماج الفكري والثقافي التي سلكها في الجزائر.

مؤلفات مالك بن نبي

روح الاسلام

قلت من قبل أن من شواهد الصمود والتمسك بالشخصية العـربية الاسلامية في الجزائر وجود هذا الفريق من الأدباء والمفكـرين الجـزائـريين الـذين لم تستـطع سياسـة الادماج والفرنسة الاستعمارية ان تمحو من نفوسهم ما اختلط في دمائها وكيانها من أثر الاسلام التاريخي وارث العرب العريق فكانوا مثـالا حيا على الفشـل الاستعماري الذريع وهزيمة معنوية منكرة للثقافة الفرنسية والحكم الفرنسي في الجزائر.

وهؤلاء الأدبـاء والمفكـرون المتحـدث عنهم. هم أولئك الذين تعلموا فقط باللغة الفرنسية وجهلوا جهلا يكاد يكون تامـا اللغـة العـربية، لغة أجدادهـم وتاريخهـم ومستقبلهم. فكان أدبهم باللغة الفرنسية وكان أسلوبهم ومنطقهم أسلوبا فرنـسيا ومنـطقـا فرنسيا، بل ان منهم من لا يحسن حتى التحدث العادي باللغة العربية لطول ما عاش من زمن في فرنسا نفسها، واختلط بعقول أهلها وحياتهم وطرائق عيشهم وتفكيرهم.

ومع هذه الشخصية الثقافية المتفرنسة، بقي شعور هؤلاء الأدباء والمفكرين شعورا قوميا ينبع من صميم الشعب الجزائري ويترجم عن احساساته ويعبر عن آماله وآلامه وينم عن وراثة صحيحة قوية، هي وراثة الاسلام والعربية المفعمة بروح التحدي وارادته وزئير الأسد المغلول، وهي صفات الواقع الجزائري أيام الحكم الاستعماري البغيض.

وهكذا لم تستطع فرنسا بعد مائة واثنين وثلاثين عاما ان تجعل من هؤلاء المنصهرين في بوتقة لغتها وثقافتها، أناسًا من أبنائها أو كمواطنيها يشعرون شعورهم ويفكّرُون مثل تفكيرهم ويربطهم بها ولاءٌ قومي واحد، وتجاوب اجتماعي مشترك.

تراث جليل :

الأستاذ مالك بن نبي مؤلف كتاب « في مهب المعركة » مفكر حضاري تخصص في دراسة الحضارة الاسلامية وفهم معطياتها التاريخية والنفسية والاجتماعية وتعمق في أسباب الانهيار السياسي والاقتصادي والخلقي الذي أصاب مجتمعاتها لدى أحقاب طويلة مظلمة. ومن قرأ أو يقرأ مجموعة الكتب المختلفة التي ألفها ونشرها الأستاذ مالك بن نبي يدرك إلى أي مدى قد تميز أسلوب الكاتب وتفكيره بالفهم السديد والتحليل العميق لشخصية المجتمع الاسلامي في ماضيه وحاضره ومستقبله أيضا.

ومن خلال عناوين كتبه وأسمائها يمكن للقارئ الحصيف أن يفهم اتجاهه وحوافزه وآماله، فضلا عن اختصاصه وميوله ومشاغل نفسه الفكرية واهتماماتها الروحية والفلسفية. فمن كتبه المترجمة للعربية أو المؤلفة بها نذكر الكتب التالية:

1) شروط النهضة.
2) الظاهرة القرآنية.
3) وجهة العالم الاسلامي.
4) فكرة كومنولث اسلامي.
5) فكرة الافريقية الآسيوية.
6) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.
7) حديث في البناء الجديد.
8) مشكلة الثقافة.
في مهب المعركة.

وكل هذه الكتب تنم عن شخصية فذة وفكر خصب وقلب خيّر ونفس اعتصرها القلق والألم من أوضاع المجتمعات الاسلامية المختلفة ومن جمودها وسلبيتها تجاه نفسها وحضارتها من جهة وتجاه الحضارة الغربية المسيطرة على حظوظنا والمتحكمة في عقولنا من جهة خرى.

من هو؟

هذا ما يمكن أن يقال باختصار في تحليل فكر مالك بن

نبي « والتعريف بكتبه » أما عن حياته الزمنية ، « فقد ذكر أنه ولد في مدينة قسنطينة عام 1905 . وأنه نشأ في مدينة تبسة حيث استقر مقام عائلته فيها ، فأتم دراسته الثانوية بها ، وكان خلال دراسته الثانوية شديد الشغف بالمطالعة حتى أنه ـ وهو شاب صغير ـ قرأ جميع الكتب التي تحتويها مكتبة المدرسة . وهو فوق ذلك كثير التأمل يؤثر الصمت على الحديث والوحدة على الاجتماع .

وبعد أن جاوز المرحلة الثانوية غادر الجزائر إلى باريس حيث دخل كلية الهندسة ، ولكنه حينما تخرج في هذه الكلية مهندسا كهربائيا فوجىء بشيء لم يتوقعه ، فقد كانت جميع الأبواب أمامه مغلقة ولم يستطع حتى القيام بالتمرينات اللازمة لكل مهندس حديث التخرج . ذلك لأن الاستعمار الفرنسي أدرك الخطر من فتح الأبواب أمام هذا الطالب الجزائري الذي لم يكف أثناء دراسته عن الاتصال بالأحداث التي كانت تجرى يومئذ في العالم الاسلامي وعن التجاوب معها .

« هنا وجد طريقه يتحول به عن ميدانه المهني إلى ميدان آخر ، ميدان الفكر فقد عكف على دراسة الأسباب التي جعلت مجتمعه يعيش تحت سوط الاستعمار الغربي ، وقد خرج من هذه الدراسة بكتب كثيرة ، كتبها باللغة الفرنسية وكانت

في نفسه أمنية دائمة هي أن تترجم كتبه إلى العربية لغته القومية، وقد تحققت له هذه الأمنية فأصبحت جميع كتبه عربية اللسان كما كانت عربية الروح بل وأصبح هو يتحدث ويكتب ويؤلف باللغة العربية وذلك بعد هجرته للشرق العربي حيث لقى ترحيبا كبيرا وتقديرا بالغا، وبين عواصم مصر وسوريا ولبنان كان المفكر محل عناية الطلائع المتوثبة للنهضة العربية الحديثة. ثم عاد إلى وطنه بعد الاستقلال، ليواصل نضاله الفكري من أجل بناء مجتمع حديث » (1).

لقد وجد ومايزال يوجد عديد المفكرين، من الكتاب والمصلحين (2) الذين درسوا أوضاع المجتمعات العربية والاسلامية وكتبوا عنها عشرات الكتب ونظموا للنهوض بها عشرات الجمعيّات والهيئات المختلفة لكنهم جميعا لم ينهجوا النهج العلمي ولا تحسسوا حقيقة المرض المزمن كما يفعل الطبيب الاخصائي ولعل قصورهم هذا مرده إلى طبيعة تكوينهم الاجتماعي والثقافي وإلى نوع ثقافتهم بالخصوص.

أما مالك بن نبي « فقد جمع إلى عنصر المأساة النفسي في شخصيته وواقع مجتمعه ثقافة تكنيكية فنية تقوم على ضوابط ومناهج مدققة لا مجال فيها للاحتمالات والافتراضات الشخصية أو العقلية التي تميزت بها الثقافة الكلاسيكية الاسلامية.

وليس هذا عيبا يخص الثقافة الاسلامية القديمة بل هو طابع جميع الثقافات القديمة بما فيها ثقافة اليونان والرومان وجميع أوروبا في عصورها التاريخية الوسطى.

وقد مزج مالك بن نبي ثقافته العلمية بثقافة اجتماعية عميقة وشاملة، ثم صفاها بتأملاته الذاتية وتحليله العميق للأسباب والظواهر، واستنتاجاته الموفقة للخروج من المصاعب والمشاكل المتراكمة.

اقرأ ما يحلل به جوهر التخلف والانهيار الحضاري الاسلامي وكيف يحدده بكلمتين فقط، هما: « القابلية للاستعمار ». ولكن كيف صار العالم الاسلامي له هذه القابلية للاستعمار؟ يجيبنا مالك بن نبي عن هذا السؤال بقوله:

« ان المرحلة التي يمر بها المجتمع الاسلامي هي مرحلة مرضية تحتاج إلى دراسة نوع المرض، والأمراض الاجتماعية في نوعها جرثومة تنتقل من جيل إلى الجيل الذي يليه، وجراثيمها لا يمكن أن تكون غير ضرب من الأفكار. فدراسة الحالة المرضية التي يمر بها العالم الاسلامي هي في أساسها دراسة بعض الأفكار نستطيع تعريفها بنتيجتها التاريخية وهي « القابلية للاستعمار » وعلينا أن نحدد طبيعة هذا المرض تحت هذا العنوان العام. فإذا تسنى لنا تخليص العالم الاسلامي من

هذه الأفكار استطعنا أن نضعه في مكانه اللائق به من التاريخ وبذلك تتحقق القاعدة الأساسية لبناء حضارة في هذا المجتمع ».

هذا ما قاله المفكر الجزائري مالك بن نبي عن (طبيعة المرض) الذي قعد بالمجتمع العربي الاسلامي عن البناء الحضاري السامق، كما فعلت مجتمعات اخرى اخذت عنه واغترفت من مثله وقيمه وعلومه وحضاراته الماضية، فإذا هي في الثريا والسماك الأعزل بينما بقى هو في الثرى والحضيض الأسفل.

وليس من حافز للنهوض وباعث للارادة كالفكر الثاقب والرأي الحصيف والدعوة الحازمة القائمة على الوضوح والحق والعلم.

وهذا أول ما توصف به كتب وآراء مالك بن نبي لصراحتها ودقتها وارتكازها على المنهج العلمي، وقد جعلها تفوقها العلمي نبراسا وهدى للجيل في كل بلد عربي. وهذا واحد من مريدي الحقيقة العلمية وأنصار التقدم الحقيقي في لبنان يكتب مقدما ومعلقا في تصويره لكتاب (حديث في البناء الجديد) وهو كتاب من كتب مالك بن نبي. فيقول :

« إذا ما راجعنا البرامج الاصلاحية التي اقترحت منذ جمال

الدين حتى يومنا هذا فاننا نجد الاستعمار وكيفية التخلص منه والنهضة وكيفية الحصول عليها هما الأمران اللذان تدور حولهما البنود ويوضع لهما العلاج.

« من أجل ذلك كانت صيحة جمال الدين، ومن أجل ذلك كانت كتابات الكواكبي من بعده، وكانت مواعظ الشيخ عبده وتوجيهاته، وهكذا تتابع من بعدهم قوم آخرون يحاولون مرة بأقلامهم حل المشكلة ومرة اخرى بالتجمعات الحزبية وخلافها! .

« ولكن التاريخ يعلم اليوم انه ليس مما سبق من الجهود جهد هدى إلى رشد أو بلغ بالأمة إلى رقي، بينما أمم أخرى لم يمض على تحركها غير قليل قد وصلت إلى أهدافها سالمة وسارت في قافلة الحضارة في العالم!!؟

« ما الأمر اذن في سيرنا ؟ ما خطؤه ؟ ما تأخره ؟ عن القافلة وبعده عن هدفه ؟ ».

وجواب هذه الأسئلة وعشرات أخرى غيرها نجده مفصلا واضحا في كتب مالك بن نبي التي أخذنا عنها صورة عامة شاملة من خلال هذا التعريف كما تعرفنا بوضوح إلى شخصية صاحبها وأفكارِه ومنهجه في تلك الكتب نفسها.

في مهب المعركة :

وكتاب في مهب المعركة (3) يحتوي على أربعة أبواب تضمنت جميعها مقالات وأحاديث نشرت كلها باللغة الفرنسية وأكثرها نشر في جريدة الجمهورية الجزائرية حتى نهاية 1954 ، أي بداية الثورة الجزائرية . وقد تناول الكاتب فيها موضوعات كثيرة بعضها فكري وفلسفي والبعض الآخر سياسي ووطني ، وكتبت جميعها في مناسبات عديدة اقتضتها ظروف الأحداث في الجزائر، وفي المغرب العربي كله .

وقد جمعها المؤلف في أربعة أبواب كبرى وعنونها كما يأتي :

1) « الاستعمار تحت المجهر » وفيه حلل الاستعمار من الناحية النفسية ورد على من حاول تبرير الاستعمار كمركب نفسي ، وعقدة لا شعورية .

2) « في وحل السياسية » وفصول هذا الباب كثيرة ، تناولت أحداث الجزائر قبيل الثورة وخلع الملك محمد الخامس . وسياسة المؤامرات التي يقوم بها الاستعمار.

3) « في الحقل الاجتماعي » وهذا الباب خاص بالنواحي الاجتماعية ذات الصلات الوثيقة بالمخلفات القديمة من صور الانحطاط وبسياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر في الميدان الاجتماعي . والكتاب لا يتناول هنا الا الموضوعات

التي تحتاج إلى انقلاب جذري على أساس حضاري وعلمي ثابت.

4) « في حديث الثقافة » وفيه ثمانية فصول بحث فيها علاقة الثقافة بالتقدم والنهضة ومسؤولية الكاتب في بناء المجتمع وتدعيم القيم الجوهرية الخالدة.

هذا هو الكتاب في اطاره العام. أما في مجراه الداخلي، وعن الحافز الذي جعل المؤلف يجمعه ويترجمه ثم ينشره، فان المؤلف نفسه قد فسر هاتين الناحيتين من كتابه فقال في المقدمة :

« هذا الكتاب قد جمعنا فيه تحت عنوان « في مهب المعركة » بعض المقالات المترجمة التي كتبت فعلا في ظروف المعركة الواقعة بما يحيطها أحيانا من غموض عندما يريد الاستعمار أن يسدل الظلام على بعض الحقائق التي لم ير من صالحه أن تفشى، وعلى بعض المواقف المشبوهة التي ليس من مصلحته أن تعرف، وعلى بعض الأفكار التي لا يريد أن يرتفع إلى مستواها الرأي العام، وعلى بعض التوجيهات حتى لا تصير واقعا اجتماعيا.

« ونحن ننشرها لأنها تتصل بهذا الواقع من نواح مختلفة، من الناحية التاريخية عندما تصف ظروفا معينة مهدت للثورة

الجزائرية ، ومن الناحية العلمية عندما تضع جوانب الاستعمار الخفية تحت المجهر، ومن الناحية الاجتماعية عندما تحاول فك العقد وبعض المركبات التي نشأت في نفوسنا من مواجهة بعض المشكلات التي لازالت قائمة في البلاد الاسلامية مثل مشكلة المرأة ومشكلة التراب ، ومن الناحية الثقافية عندما تحاول توسيع الفكر عند شبابنا المثقف حتى يكون في موقفه ازاء بعض القضايا المتصلة بمصير الانسانية وبمصيرنا أكثر وعيا وأكثر فعالية » .

بهذه الفقرات والتحديدات عرف مالك بن نبي كتابه تعريفا دقيقا شاملا . أما موضوعاته وأفكاره فاننا سنقف بكم عند بعض الجوانب كمثل على تحليله وعرضه وأحكامه ، وعلى أسلوبه في البحث والكتابة والاستدلال والحكم :

في مقال له « عن المرأة المسلمة » يتناول دور المرأة في بناء مجتمع حضاري زاخر بالقيم العليا والمساواة والعدالة ، ويقارن بين وضعية المرأة في الجاهلية وعصور الانحطاط وبين مركز المرأة كما وضعها فيه الدين الاسلامي ، ويعلن الكاتب هنا بعض الحقائق التاريخية والاستنتاجات العلمية ويبث من خلالها آراء في غاية الحكمة والسداد والتبصر.

اقرأ معي ما يقول :

ان المجتمع الجاهلي كان كله تحت سلطة الذكر، فيه ما فيه

من قسـوة وفيه ما فيه من نزعـة التحطيم، حتى أن المولودة كانت توأد، يئـدهـا أبوها. وعندما جاء الاسلام أكبت في الذكر دوافع الجفاء والتحطيم ولم يترك له الا قدرة التغلب على النفس وقدرة التنظيم والتوجيه، فكون بذلك مجتمعا تتمتع فيه المرأة بكثير من الحقوق مقابل بعض الواجبات، حتى أن الفقـه الاسـلامي لم يفـرض عليهـا الا واجب الزوجية أما الـواجبات المنزلية مثل الغسيل والطبخ فانها ليست مطلوبة منها، كما أن الرضاعة ليست فرضا عليها. بل على الزوج أن يأتي بمرضعة لولده.

وقـد نتصـور أن هذه التسهيلات التي يقـررهـا الفقـه الاسلامي للمرأة غير معمول بها من الوجهة الواقعية لأنها ربما تبالغ في تحرير المرأة من أسر الحياة المنزلية، ولكن هذه المبالغة من الناحية النظرية تلفت نظرنا للحالة الحقيقية التي تقع فيها المرأة المسلمة اليوم، اذ يبدو أن المجتمع الاسلامي بقدر ما فقـد خصوبته وقوته في التنظيم قد عاد إلى الحالة التي كان عليها المجتمع الجاهلي من حيث الشدة والعقم.

« اننا لا نئد البنات اليوم، لأن قانونـا أخلاقيا ورثناه عن الاسلام لازال يمسكنا، ولأن قانونا جنائيا يوقفنا عند حدنا. ولكن إذا لم ندفنهن على قيد الحياة في التراب فاننا ندفنهن في الجهـل، ولكن هذا الـوأد الجـديد لا ينسينـا ما تركت لنا

الحضارة الاسلامية في عصرها الذهبي من تقاليد تعلي من شأن المرأة، ومن أسماء لنساء لامعات تبقى آثارهن كمعالم الطريق لحركة نسائية اسلامية مجددة.

« اننا نجد في سماء الأدب الأندلسي اسم ولادة يلمع حيث كانت تشرف على (صالون أدبي) كان يجتمع فيه فحول الأدباء والشعراء قبل أن يلمع اسم مدام « دي مبوليه » في الأدب الفرنسي بقرون.

« كذلك بقي اسم رابعة العدوية يرفرف في أذهان الأجيال المؤمنة من المسلمين وهم يذكرون قصتها عندما وقفت بشارع من شوارع بغداد وكان يمر موكب حافل يشيع جنازة الرازي الفيلسوف فسألت : لماذا احتشد الناس وراء هذا الميت ؟ فرد عليها بعضهم : انه وجد البراهين التي تدل على وجود الله! فقالت العدوية : وهل وجود الله في حاجة لبراهين هذا الرجل ؟ وفي عهد أقرب منا أليس الفضل فيما تمتعت به البلاد التونسية من وسائل الصحة منذ عهد بعيد يعود إلى عزيزة عثمانه التي وهبت للبلاد جهازها الصحي الأول ؟

« ويجب أن نقول من ناحية أخرى، ان أوروبا تدين للمجتمع الاسلامي بالثقافة التي انتشرت فيها خلال العصور

الوسطى ونشرت في أرجائها تلك الفكرة التي تجعل تقدير المرأة من تقاليد الفروسية. ولكننا نرى أوروبا اليوم في طريقها إلى وضع « الفارسة مكان السيدة » وتضع بالتالي المخنث مكان الرجل.

« ان هذا التغير حدث بلا شك بسبب التهور - الذي يطلقون عليه - « تحرير المرأة » كما يصفه فيكتور مارغريت في كتابه (لاغرسون) أي البنت المسترجلة وكان يصفه في مرحلته الأولى مبشرا بظهور المجتمع الذي تسوده نزعات الأنثى في أوروبا، وفي الوقت ذاته ألغت تركيا الحجاب والحروف العربية . .

« والآن . . وقد اتضحت القضية تماما يجب علينا ان نعيد للمرأة الكرامة التي وهبها لها الاسلام عندما أنقذها من عادات الجاهلية القاسية. ولكن فلنعد لها كرامتها لنجعل منها (السيدة) التي توحي إلى الرجل العواطف الشريفة لا (الفارسة) التي تسيطر عليه ».

هكذا ينهي مالك بن نبي رأيه في قضية المرأة المعاصرة وما يجب أن يكون عليه مركزها الجديد في مجتمع متكامل متحضر.

وكأنه يخشى على المرأة المسلمة من حالتين متناقضتين حالة

الانحـطاط التي ورثتهـا من عصـور الـظلام والتخلف الحضاري، وحالة التقليد الأعمى لما عليه المرأة الأروبية من أوضاع فيها الصالح والنافع والمشرف، وفيها الفاسد والضار والمنحرف.

ولاشـك أن تيار المـدنية الغربية مسيطر اليوم بقوته على المجتمعات في العالم وأن ما فيه من اغراء وجاذبية يدفع المرأة بالخصوص نحوه كما تندفع الفراشة نحو النور المحرق الوهاج.

ولعل مالك بن نبي ـ كما في موقفه (المعتدل الوسيط) بين حالتي التزمت والاندفاع ـ يردد من جديد ما سبق أن حذر منه فقيد الأدب التـونسي ونصير المرأة المرحوم الطاهر الحداد في كتابه « امرأتنا في الشريعة والمجتمع ».

والفرق بين الأمس واليوم أي بين عصر الحداد وعصرنا هو أن حق الاختيار وحق البناء قد أصبح بأيدينا فعلينا اذن أن نختار بتعقل وبصيرة وأن نبني مجتمعنا ومستقبلنا بوضوح ونظام.

والاختيار البصير والبناء المنظم هما خلاصة أفكار مالك بن نبي وفلسفته الاصلاحية ومذهبه العلمي في التحرر والنهضة. (*)

---

1) بتصرف عن « تصدير » عمر كامل مسقاوي الذي قدم به كتاب « حديث في البناء الجديد » لمالك بن نبي ص 6 ـ 8.

2) انظر المرجع نفسه ص 9 ـ 17.

3) ص 240 نشر مكتبة دار العروبة ـ القاهرة 1961.

* نشر في مجلة المعرفة (الجزائر) س 2 ع 19 (ماي ـ جوان 1965).

مالـك بـن نبـي
مرآة مجتمع وظاهرة شعب

« نظمت عشية أول أمس بدار الثقافة ابن خلدون مائدة مستديرة لتأبين فقيد الفكـر الاسـلامي مالـك بن نبي وقـد شارك في هذه المائدة الدكتور التهامي نقرة والأستاذ الهادي البالغ والبشير العريبي وأبو القاسم محمد كرو.

وقد اخترنا كلمة الأستاذ أبو القاسم محمد كرو لنشرها وذلك لما تضمنته ونرجو ان نتمكن في المستقبل من مزيد التعريف بهذا الرجل الذي كرس حياته في سبيل بعث تفكير اسلامي نظيف وخلق نظرة عصرية لدى المجتمعات الاسلامية ».

وفيما يلي كلمة الأستاذ كرو :

نشـأ في الجـزائـر قبل الاستقلال كتّاب ومفكرون عجز الاستعمار الفكري الفرنسي عن فصلهم من جذورهـم ، منهم مالـــك حداد ، ومـولـود فرعـون ، مولـود معمـري ، ومنهم بالخصوص مالك بن نبي ، فهؤلاء وأمثالهـم ، يمثلون في الواقع الظاهرة الكبرى في قوة جذور الشخصية الحضارية للشعب الجـزائري ، والدليل القاطع على ما في شخصيته من مناعة وابعاد تاريخية عريقة صلبة .

ان حياة مالـك بن نبي في مثـل ظروفه وظروف مجتمعه ووطنـه، ليست حياة عادية، كحياة اي كاتب أو مفكـر في مجتمع عربي آخر يعيش في ظل الحرية والسيادة الوطنية، بل هي حياة غريبة وحادة في ظروف اكثر غرابة وحدة، وفي شعب مقهور مصفد بالاغلال المادية والفكرية والسياسية كلنا ـ او اكثرنا ـ يعلم ان مال بن نبي كاتب جزائري ومفكر اسلامي، تخصص في دراسة الحضارة الاسلامية وفهم معطياتها وابعادها التـاريخية والنفسية والاجتـماعية، وتعمق أسبـاب الانهيار السياسي والاقتصـادي والخلقي، الذي أصاب المجتمعات الاسلامية مدى احقاب طويلة مظلمة، ولكن من لم يقرأ جميع مؤلفات مالك بن نبي، وبوجه خاص ترجمته الذاتية وكتابه الأساسي « شروط النهضة » لا يمكنه ان يفهم مالك بن نبي كظاهـرة من ظاهـرات التحـدي الحضـاري في الجـزائـر المستعمرة . . . أي « الجزائر الفرنسية » كما كانوا يزعمون .

ان حياة مالك بن نبي ومؤلفاته تمثلان أصدق تمثيل وأقواه جوهر وروح الشخصية الأصلية للشعب الجزائري .

اننا لا نستطيع هنا ـ وليس من مرامي هذا الحديث ـ ان نقـدم لكم تفصيلا عن هذه الحياة ولا لمحـات عنهـا وعن مؤلفـاتـه، اننـا نرمي إلى ابراز مالك بن نبي كظاهرة مناعة وتحدي في شخصية الجزائر العربية المسلمة .

ومع ذلك لابد من بعض السطور عن هذه الحياة.

ولد مالك في مدينة قسنطينة عام 1905، ونشأ في مدينة تبسة حيث استقرت عائلته فيها. فاتم دراسته الثانوية بها، وكان خلال دراسته الثانوية شديد الشغف بالمطالعة حتى انه ـ وهو شاب صغير ـ قرأ جميع الكتب التي تحتويها مكتبة المدرسة (وكان مع ذلك كثير التأمل، يؤثر الصمت على الحديث، والوحدة على الاجتماع.)

وبعد ان جاوز المرحلة الثانوية غادر الجزائر إلى باريس، حيث دخل كلية الهندسة، ولكنه حينما تخرج في هذه الكلية مهندسا كهربائيا فوجىء بشيء لم يكن يتوقعه لقد كانت جميع الأبواب أمامه مغلقة، ولم يستطع حتى القيام بالتمرينات اللازمة لكل مهندس حديث التخرج (ذلك لأن الاستعمار الفرنسي ادرك الخطر من فتح الأبواب أمام هذا الطالب الجزائري، الذي لم يكف أثناء دراسته عن الاتصال بالأحداث التي كانت تجري يومئذ في العالم الاسلامي وعن التجاوب معها.

هنا وجد مالك طريقه يتحول به عن ميدانه المهني إلى ميدان آخر، ميدان الفكر، فعكف على دراسة الأسباب التي جعلت مجتمعه يعيش تحت سوط الاستعمار الغربي، وقد خرج من هذه الدراسة بكتب كثيرة، كتبها باللغة الفرنسية، وكانت

في نفسه امنية دائمة هي ان تترجم في يوم من الأيام إلى العربية لغته القومية، وقد تحققت له هذه الأمنية فاصبحت جميع كتبه عربية اللسان كما كانت عربية الروح، بل وأصبح هو نفسه يتحدث ويكتب ويؤلف باللغة العربية، وقد تم ذلك كله خلال هجرته إلى الشرق العربي، حيث لقي ترحيبا كبيرا وتقديرا ممتازا، وبين عواصم مصر وسوريا ولبنان، كان المفكر الجزائري محل عناية الطلائع المتوثبة للنهضة العربية الجديدة.

لقد وجد ومازال يوجد عديد المفكرين، من الكتاب والمصلحين الذين درسوا أوضاع المجتمعات العربية والاسلامية بوجه عام، وكتبوا عنها عشرات الكتب، ونظموا للنهوض بها عشرات الجمعيات والهيئات المختلفة.. لكنهم جميعا لم ينهجوا النهج العلمي ولا تحسسوا حقيقة المرض المزمن كما يفعل الطبيب الاختصاصي ولعل قصورهم هذا مرده إلى طبيعة تكوينهم الاجتماعي أو الاقتصادي وإلى نوع ثقافتهم بالخصوص.

أما مالك بن نبي فقد جمع إلى عنصر المأساة النفسي في شخصيته وواقع مجتمعه. ثقافة تكنيكية فنية تقوم على ضوابط ومناهج مدققة لا مجال فيها للاحتمالات والافتراضات الشخصية أو العقلية التي تميزت بها غالبا الثقافة الكلاسيكية الاسلامية، والثقافات القديمة الأخرى.

لقد مزج مالك بن نبي ثقافته العلمية بثقافة اجتماعية ودينية عميقة وشاملة، ثم صفاها بتأملاته الذاتية وتحليله العميق للأسباب والظواهر، فكانت استنتاجاته غالبا موفقة للخروج من المصاعب والمشاكل المتراكمة.

اقرأ ما حلل به جوهر التخلف والانهيار الحضاري في العالم الاسلامي فستجده يحدده بكلمتين فقط، هما « القابلية للاستعمار » والقابلية للتخلف ولكن كيف صار العالم الاسلامي له هذه القابلية للاستعمار وللتخلف ؟ يجيبنا مالك بن نبي، عن هذا السؤال بقوله :

« ان المرحلة التي يمر بها المجتمع العربي والاسلامي هي مرحلة مريضة تحتاج إلى دراسة نوع المرض، والأمراض الاجتماعية في نوعها جرثومة تنتقل من جيل إلى الجيل الذي يليه وجراثيمها لا يمكن ان تكون غير ضرب من الأفكار، فدراسة الحالة المرضية التي يمر بها العالم الاسلامي هي في أساسها دراسة بعض الأفكار، تستطيع تعريفها بنتيجتها التاريخية وهي « القابلية للاستعمار » وعلينا ان نحدد طبيعة هذا المرض تحت هذا العنوان العام، فإذا تسنى لنا تخليص العالم الاسلامي من هذه الأفكار استطعنا ان نضمه في مكانه اللائق به من التاريخ وبذلك تتحقق القاعدة الأساسية لبناء حضارة في هذا المجتمع. »

هذا ما قاله المفكر الاسلامي مالك بن نبي (عن طبيعة المرض) الـذي قعد بالمجتمع العربي الاسلامي عن البناء الحضاري السامق، كما فعلت مجتمعات اخرى اخذت عنه واغترفت من مثله وقيمه وعلومه وحضارته الماضية، فإذا هي في الثريا والسماك الأعزل بينما بقي هو في الثرى والحضيض الأسفل.

وليس من حافز للنهوض وباعث للارادة كالفكر الثاقب والرأي الحصيف والدعوة الحازمة القائمة على الوضوح والحق والعلم.

وهـــذا أول ما توصـف به كتـب وآراء مالـــك بن نبـي « لصراحتها ودقتها وارتكازها على المنهج العلمي وهذا واحد من مريدي الحقيقة العلمية وانصار التقدم الحقيقي في لبنان يكتب مقـدمـا ومعلقا في تصويره لكتاب (حديث في البناء الجديد) وهو كتاب من كتب مالك فيقول :

« إذا ما راجعنا البرامج الاصلاحيه التي اقترحت منذ جمال الدين حتى يومنا هذا. فاننا نجد الاستعمار وكيفية التخلص منه. والنهضة وكيفية الحصول عليها هما الأمران اللذان تدور حولهما البنود، ويوضع لهما العلاج.

« من أجـل ذلك كانت صيحة جمال الدين، ومن أجل

ذلك كانت كتابات الكواكبي من بعده، وكانت مواعظ الشيخ عبده وتوجيهاته، وهكذا تتابع من بعدهم قوم، آخرون يحاولون مرة بأقلامهم حل المشكلة ومرة اخرى بالتجمعات الحزبية وخلافها ا

« ولكن التاريخ يعلم اليوم انه ليس مما سبق من الجهود جهد هدى إلى رشد أو بلغ بالأمة إلى رقي، بينما أمم اخرى لم يمض على تحركها غير قليل قد وصلت إلى اهدافها سالمة وسارت في قافلة الحضارة في العالم ! ! ؟

« ما الأمر اذن في سيرنا ؟ ما خطؤه ؟ ما تأخره عن القافلة وبعده عن هدفه ؟ وجواب هذه الأسئلة وعشرات اخرى غيرها نجده مفصلا واضحا في كتاب مالك بن نبي.

ان من يتابع خطى مالك الفكرية في مؤلفاته وفي حياته يلاحظ انه اجتاز بها ثلاث مراحل كبرى :

1 ـ مرحلة التعلم إلى التخرج ثم الصدمة.

2 ـ مرحلة رد الفعل معتمدا على جذوره الحضارية، ضد غطرسة الحضارة الحديثة التي علمته العلم ثم منعته من ان ينفع وينتفع به.

3 ـ وأخيرا مرحلة التعرب في الفكر واللغة والاتجاه.

ولئن كانت المرحلة الأولى، مقصورة على تكوين شخصيته وميولـه، فان المـرحلة الثانية كانت مرحلة تبشير وللحضارة الاسلامية واحياء وتجدد للفكر الاسلامي .

ان بعض النقاد يرون في مالك سلفيا، وشيخا محافظا، يمشي حاسر الـرأس، ويرتدي بزة غربيّة برغم كونه يكتب بلغة اجنبية . لكن الذين يعرفونه جيدا ويقرأونه ككل يدركون انه عكس ذلك تماما .

نعم هو ليس ثوريا، ولا متطرفا في آرائه أو دعوته لاحياء الحضـارة الاسـلامية وتجـديدهـا . هو ليس هذا . . ولا ذاك . . هو مالـك بن نبي . . مفكـر ينـظر للمجتمـع الاسـلامي كعـالم اجتماعي يحلل المـاضي والحاضر ويرسم للمستقبـل في اعتـدال ورصـانـة، هما طبيعة المفكر وصفة أساسية في كل عالم اجتماعي .

وربـما كان يحلم بعـالم اسـلامي متحـد ودولـة عظمى للاسلام . والحال ان أي سبب سياسي أو اجتماعي أو لغوي أو جغـرافي غير موجـود لتحقيق ذلك ؟ ولعله ادرك صعوبة ذلك أو استحالته فأصبح منذ استقراره في الشرق اي بعد عام 1955 يتحدث عن صورة اخرى . . اقرب للتحقيق صورة مجتمع عربي ذي ثقافة عربية جديدة متجهة إلى العصر لكن بروح الاسلام .

وهذه هي مرحلته الثالثة إلى سنه 1962 حين تم تحقيق النصر للثورة في الجزائر وقد انصرف مالك بعد هذا التاريخ يبني مع العاملين جزائر الاستقلال . .

ان مالك بن نبي يمثل بحياته وفكره ارادة الثورة الجزائرية المستمرة في تجسيم عروبة الجزائر لا بشخصيتها وجذورها فقط، ولكن بلسانها ولغتها أيضا، فالرجل لم يكن يعرف الكتابة بالعربية ولا يتكلم بها بطلاقة إلى ما بعد الخمسين من عمره ولكن ارادة الثورة وفكرة الانبعاث عميقة في نفسه، فإذا هو يتعلمها ويتقنها - ثم يكتب بها بل ويخطب ويحاضر.

ان مالك بن نبي - في نظري - سيبقى لأجيال قادمة، مرآة مجتمع وظاهرة شعب وتعبيرا عن ارادة فريدة فذةكانت في شخصه وامته أقوى من حضارة الاحتلال وقوة الغزو وعطرسة المتحضرين.

ان نداء مالك لاحياء الحضارة الاسلامية وتجديدها ودعمها بأخلاق الاسلام وعقيدته وعدالته، لن يذهب سدى. ولن تموت فكرة أو تندثر دعوة كان مبعثها الصدق، وهدفها الانسان وآفاقها المستقبل غير المنتهي . (*)

---

* ملخص كلمة قيلت في ذكرى الأربعين التي اقيمت لتأبينه يوم 1973/12/21 وقد نشر اكثرها في جريدة العمل عدد 73/12/23.

نظرات في أدب العقـاد

مهما تكن مناهج الباحثين وآراؤهم مستقبلا، فان هناك في حيـاة العقـاد وتاريخه مقدارا عظيما جدا من المجد الفكري والمكانة الأدبية لا يمكن لأي باحث، مهما كان مذهبه وكانت مقاييسه، ان يتنكر لها أو يجحد جدارة العقاد بها.

وأنـا شخصيـا اختلف مع العقـاد في كثـير من الأمـور واستنكر عليه كثيرا من السلوك الفكري والأعمال الأدبية، ولكن ذلك لا يعني قط انني استهين بمكانة العقاد. وانال من فضله وجهـاده في خدمة الثقافة العربية، بل بالعكس فانا اعتبر الجيل المعاصر والذي كان قبله، جيلين مدينين في كثير جدا من نواحي المعرفة إلى العقاد، وانني لأزعـم بان مؤرخي الأدب العـربي الحـديث، والفكـر العـربي المعاصر، حين يكتبون عنه يوما ما كتابة منصفة، سيتأكدون من ان النصف الأول من القرن العشرين قد كان عصر نهضة واثبة في الثقافة العـربية، وان العقاد قد كان من كبار بناتها ومهندسيها بما يستحق معه تسمية العصر باسمه. والحق ان العصر المذكور قد كان عصر العقاد باعتباره كان ركنا رئيسيا فيه، ومدرسة

مؤثرة في جميع المنتسبين إليه، برغم اختلافهم في الاتجاهات والمذاهب الأدبية والاجتماعية والاقتصادية.

هذه هي النظرة العامة الشاملة التي انظر بها للفقيد عباس محمود العقاد.

أما إذا اردنا تفصيلا لهذه النظرة فانني الخص اهم نظراتي المفصلة في حياته وشخصيته في الملاحظات التالية :

نضج مبكـــر

الملاحظة الأولى : ان العقاد قد خالف في نشأته الأدبية، جميع المألوفات القديمة، حيث ظهر أديبا ناضجا منذ بداية طريقه الفكري وانتاجه الأدبي. وكلنا يعلم ان معظم الكتاب والشعراء يمرون عادة بمرحلة التقليد والاقتباس والمحاولات الأدبية المختلفـة. اما العقاد فقد ظهر في انتاجه الأول قمة سامقة وعملاقا مخيفا، وكان أسلوبه وفكره في مستوى رفيع من الكمال والنضج.

وفي هذه النـاحية نسجـل ان العقـاد ظهر كمؤلف عام 1912 حين نشر في عام واحد ثلاثة كتب، هي « خلاصة اليومية » و « الشذور » و« الانسان الثاني أو المرأة ».

ومنذ عام 1912 ، والعقاد لم ينقطع عن الانتاج حتى بلغ ما انتجـه زهاء المائة كتاب، عرف الناس منها قائمة مطولة تضم واحـدا وتسعين كتابا، وهناك من المقدمات والبحوث التي عرف بها كتبـا مترجمة ما يصل بعدد كتبه كلها إلى رقم المائة. هذا فضلا عن مقالاته المتناثرة في المجلات والجرائد العربية، والتي تعدُّ بالآلاف.

وحسبكم برجل يكون هذا هو انتاجه الفكري والأدبي. ويكون له من الاثر والمكانة ما كان للعقاد في جيله وعصره.وان أي تقدير او عرفان لصنيع كهذا سيكون حتما دون الواجب المؤكد والمستوى اللائق الحق.

الفكـر والنسـل

والكل يعلم ان العقاد لم يتزوج لصدمة اصابته في شبابه. ولذلك لم يترك أولادا يحملون اسمه بين الناس. ولم يكن هذا يحزنه أو يقلقه، وهو في ذلك مصداق ما قاله الشاعر السري الرفاء حين لوحظ عليه مثل هذه الحال :

يقولون ذكر المرء يبقى بنسلـه
وليس له ذكر إذا لم يكن نســل
فقلت لهم نسلي بدائع حكمتـي
فان لم يكن نسل فانا بها نسلــو

وطبعا، فان مائة كتاب هي اكثر نفعا وفائدة في اي عصر وشعب من مائة ولد يتركها شخص واحد، خاصة إذا كان المؤلف ينتمي إلى شعب يعاني الفاقة والتخلف وكثرة النسل.

انتـاج العقـاد

والملاحظة الثانية : ان هذه المائة كتاب. تفتح لنا نافذة للنظر في انتاج العقاد نظرة خاطفة عاجلة.

فنحن نجد تباينا كبيرا في موضوعاتها. وتنوعا موسوعيا في محتوياتها. واختلافا ظاهرا في مستواها.

فعشر هذه المائة دواوين شعرية. وسيأتي بعد قليل الحديث عنها. وثلّث هذه المؤلفات كتب غيبية تتصل بالماضي البعيد جدا.. من شخصيات وثقافات عربية أو اسلامية. أما الباقي فهو استيعاب وهضم للثقافة الغربية.

وحين ننظر إلى العقاد من خلال هذا الانتاج ـ من حيث موضوعاته وقيمته الأدبية والفكرية ـ نجده فيها جميعا كما بدأ في فجر حياته الأدبية.

فقد أشرنا من قبل إلى انه بدأ عملاقا، ولكنه حين مضى به الزمن خمسين عاما إلى الأمام، وارتفع رقم كتبه من واحد

إلى مائة، لم يحدث عنده ذلك التطور الذهني الصاعد الذي نجده عند مفكري الغرب وأدبائه، بل ان الارتفاع عنده قد توقف بعد كتاب (الديوان) الذي أصدره بمشاركة زميله الفقيد ابراهيم عبد القادر المازني عام 1921 . أما انتاجه المتكاثر بعد الديوان فانه زاد في عرض الجبل لا في ارتفاعه.

وقد حافظ العقاد على هذه الحالة من عام 21 إلى سنة 1942 حين بدأ ينشر كتبه العبقرية التي كانت بحق عبقريات جديدة أضيفت إلى الثقافة العربية، لاسيما وان كتب السيرة المحللة نادرة جدا في المكتبة العربية.

وبعد العبقريات، التي لم تكن كلها ـ مع الأسف ـ في مستوى واحد، انغمس العقاد في مرحلة ذهنية خطيرة، يمكن نعتها بمرحلة الاغتراف والاجترار.

تحول العقاد

وقد تحول العقاد خلال هذه المرحلة من رائد فاتح، إلى عقبة عائقة في طريق التيارات الأدبية الحديثة والانتفاضات الفكرية الزاحفة مع الأجيال العربية الصاعدة.

وهكذا تحول العقاد إلى ماض ثقافي يتكلم، ودخل في

صراع فكري ومذهبي حاد مع الأدباء الشبان، وكان ـ مع الأسف ـ رجعيا، في صراعه مع طلائع الغد.

أسلوب العقاد

على ان العقاد، الذي توقف بعد الديوان مدى عشرين عاما فلم ينتج خلالها كتابا آخر يدانيه، إلى ان نشر كتبه العبقريات فوضعته هذه في مستوى جديد.

العقاد الذي كان مجددا في مرحلتيه الأولى والثانية ـ مرحلتي الديوان والعبقريات ـ والذي اقتصر في مرحلته الثالثة والأخيرة على هضم الثقافة الغربية ونقلها إلى العربية.

العقاد هذا، قد كان هو هو . . في جميع مراحله الذهنية والأدبية . . من حيث أسلوبه وبيانه الانشائي المحكم. وهي الظاهرة المشتركة التي تبرز واضحة في جميع كتبه النثرية.

ومن هذه الناحية وحدها استمر العقاد في تأثيراته الأدبية على الأجيال الناشئة. ولاشك ان معظم المثقفين العرب ان لم يكن جميعهم، قد تأثروا قليلا أو كثيرا بأسلوبه فوق ما تأثر به تلاميذه ومريدوه في آرائه واتجاهاته.

شاعريـة العقـاد

والملاحظة الثالثة : ان العقاد قد كان ناظما للشعر وليس شاعرا، وقد ترك لنا احد عشر ديوانا، ولكنها جميعا ـ حسب رأيي ـ لم تعط للعقاد أية قيمة اخرى، فوق ما اكتسبه ككاتب وناثر. ويبدو لي ان العقاد لو تجنب قول الشعر واحجم عن نشره لما خسر شيئا من مكانته وتقدير الأجيال له.

انانيـــة عنـــود

والملاحظة الرابعة : ان العقاد الذي أضاء زوايا كثيرة في عالمنـا الفكـري والأدبي، كانت من قبـل مظلمـة ومهملة، والذي ارتفع إلى مستوى قمة وعملاق وكوكب يستضاء به، قد كان انـانيا مغـرقا في انانيته، ينطوي على غرور بالنفس شديد، وعلى اصرار عنيد في محاربة خصومه والمخالفين له في الرأي.

وقـد شهـد التاريخ، بانه لم يكن دائما على حق في هذه الصرامة وذاك الغرور وتلك العداوة . . التي قد تصل إلى حد تحريض الصنـائـع والانصـار لهدم المعـارضـين لاتجـاهـاته والمخالفين لارائه.

وقد يكون له الحق في ان يتشبّث باعتقاداته الفكرية والأدبية، ولكن ليس له الحق على الاطلاق في ان يحارب مواطنيه المخالفين له في الرأي كما يحارب الانكليز المحتلين للقتال.

ولا شك ان التاريخ سيذكر العقاد في هالة كبيرة من الاجلال والتقدير والاكبار، ولكنه لن ينسى له قط عداءه العلني وغير العلني، للاشخاص والأفكار التقدمية، وللكتاب الأحرار الذين كانوا يسعون بصدق لبناء ثقافة جديدة ومجتمع تقدمي اشتراكي متحضر.

ولقد أصاب العقاد بعدائه عددا غير قليل من اهل الفكر والأدب التقدميين، في مصر خاصة . . ولم تخف حدة حربه لهم حتى بعد انتصار الاشتراكية في معظم اقطار العالم، وفي بلاده أيضا.

وانني لاذكر انه وقف رجعيا عملاقا في وجه الأدباء والشبان وحتى الكبار، من ذوي الميول المخالفة لميوله، وخاصة منهم دعاة الاشتراكية والالتزام. أمثال سلامة موسى والشرقاوي ومحمود العالم وعبد العظيم انيس. ومن قبل هؤلاء حارب الدكتور المرحوم احمد زكي أبا شادي.

ومعارك العقاد الأدبية مع الأخير بالذات، لم تكن معارك أدبية ترتفع فيها نفس العقاد عن الحزازات والاحقاد الشخصية، بل كانت اكثر من ذلك. كانت معارك عدائية بلا قانون ولا مبادئ.

واخطر ما في معارك العقاد انه كان فيها ذاتيا لا موضوعيا وانه كان يحرض ويحرك فيها جنودا من انصاره واللائذين به.. وكثيرا ما يختفي بارائه وتوجيهاته خلف ما يكتبونه وينشرونه بين الناس.

وختاما، قد تكون هذه الملاحظة الأخيرة الكاشفة لنفسية العقاد وسلوكه الأدبي، مصداقا لقول الشاعر:

« كفى المرء نبلا أن تعد معائبه » !!

(*) نشر في مجلة الرواد (طرابلس) س 1 ع 10 (1965/9). وأعيد في مجلة الشعب 1967/6/1.

سلامة موسى
في دراسات سيكولوجية

من ادق المقاييس الأدبية والاجتماعية لحياة وتراث الأدباء، هو تأثير هؤلاء في حياة معاصريهم تأثيرا يتجلى ليس فقط في أسلوب الأدباء اللاحقين وتفكيرهم، ولكن أيضا في حياة المجتمع نفسه، وفي تطوره الذهني والاقتصادي واهتماماته العقلية والفنية والاجتماعية. وبقدر ما يكون الأديب أديبا هادفا متطلعا في اخلاص إلى تطوير مجتمعه وبنائه بناء حضاريًا . . بقدر ما تكون قيمته الأدبية ومكانته في التاريخ.

ومن أبرز خصائص هؤلاء المؤثرين، ان أدبهم في مجموعه يحدث ثورة فكرية أو اجتماعية أو أدبية رائدة في عصر الأديب ومجتمعه، بل وفي العصور والمجتمعات الموالية لعصره ومجتمعه.

والأدب العربي كغيره من الآداب العالمية الأخرى يحتاج في كل عصر إلى هؤلاء الأدباء الثوريين الذين يجددون اتجاهاته ويغيرون ما وهن من قيمه ومفاهيمه. وحين تكون الأمة في حالة ركود وتخلف شامل تكون حاجتها إلى هؤلاء الرواد اشد

من أي حاجات اخرى في حياتها، ذلك ان هؤلاء هم الطليعة الحافزة لكل نهضة وفي كل ميدان.

والتاريخ الأدبي عند العرب لا يحفل كثيرا بهؤلاء الأدباء والمفكرين الثائرين المجددين. فعلى كثرة الشعراء والفلاسفة والكتاب، لا تجد اشباها ولا كثرة متفوقة في الميادين التي تفوق فيها الجاحظ، والمتنبي، والمعري وابن رشد والغزالي وابن خلدون.

ان كل واحد من هؤلاء يمثل ثورة رائدة في حقله الخاص، ولكنهم جميعا قمم شامخة في تراثنا العلمي والأدبي والفلسفي على اختلافهم في الأسلوب والموضوع وتفرقهم بين العصور والأجيال.

رواد النهضة الحديثة

وفي عصرنا الحديث نجد قلة يسيرة من هذا الطراز الفذ من الأدباء والمفكرين الذين قامت نهضة العرب السياسية والاجتماعية والفكرية على هدى نداءاتهم وأفكارهم وثوراتهم الرائدة.

وليس جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده وخير الدين التونسي، وقاسم أمين وطه حسين والشابي والطاهر الحداد،

الا امثلة معـاصرة من الثـائـرين الـرواد الـذين دفعوا حياة معاصريهم خطوات شاسعة إلى الامام.

ولئن وجـد بينهم من لم يكن له تأثير مباشر في جيله فان الزمن لم يذهب بتراثه وثورته ادراج الرياح، اذ ان بذورهم ما لبثت ان نمت وأينعت وآتت ثمارها في الأجيال التالية . . .

وما قاسم أمين والطاهر الحداد وأخيرا سلامة موسى الا امثلة حية لهذا الفريق من الأدباء والمفكرين الذين اهملوا في حياتهم، وبخست أفكـارهم واتجاهاتهم في حين كانت هي ذاتها تسرى في عروق الأجيال الصاعدة سريان الدم في الشرايين.

وكلنا يعلم قصة الطاهر الحداد وتاريخ قاسم أمين وكيف رميا في عصرهما من طرف الرجعية بالكفر والمروق عن الدين. ومـات الـرجلان ونسيهما الناس نسيانا كاملا ولكن الزمن لم ينس الـرجلين ولا أفكارهما الرائدة الثائرة . . ومن ينظر اليوم إلى حياة المجتمع والمرأة في مصر وتونس بل في سائر انحاء البلاد العربية يدرك إلى أي حد قد بعث الرجلان من جديد، وإلى أي حد نحن اليوم مدينون لهما ولأمثالهما من رواد نهضتنا الحديثة.

كفاح سلامة موسى

هذا عن قاسم أمين والطاهر الحداد، اما سلامة موسى فان قصته لم تكتب بعد، وحياته وتراثه وخاصة ثورته على الاقطاع والرجعية والملكية والاستغلال ودعوته الجريئة إلى تحرير المرأة والمجتمع من رواسب القرون الماضية، ومن سيطرة الأوهام والخرافات والتقاليد الفاسدة . . سلامه موسى في كل هذا وفي جميع نواحي ثورته لم يعرف بعد المعرفة الدقيقة المنصفه، ولا ادرك الجيل الحاضر مدى الجهاد الفكري الذي جاهده مدة خمسين عاما تميزت فيها حياته الذهنية بالتحرر والثورة وتميزت فيها حياته اليومية بالمتاعب والمشاغبات والبؤس.

ولست مبالغا في وصف سلامه موسى بانه الكاتب العربي الوحيد في عصرنا الذي تميز أدبه بأفكاره البناءة وباتجاهاته الشعبية وبروحه العلمية وأسلوبه السهل الممتنع.

كتب العقاد

وحين يدرس تاريخ الأدب العربي المعاصر باحثون نزهاء سيجدون ان العقاد مثلا لم يترك من الأثر في حياة امته الا في

نطاق ضيق محدود يكاد ينحصر في طريقته في التعبير، وبعض اتجاهاته المبكرة في النقد.

ومن الغريب حقا ان كتب العقاد التي تجاوزت الخمسين كتابا يبحث اكثرها في قضايا قديمة ميتة لا تعيشها جماهيرنا اليوم ولا تزيد في تراثنا الحديث كثيرا أو قليلا فهي في معظمها كتب غيبية لا تعالج اية ناحية من نواحي حياتنا المعاصرة ومشاكل مجتمعنا الحديث في صراعه ضد الاستعمار والاستغلال، وفي كفاحه لبناء تقدمه العلمي والصناعي والاجتماعي والاقتصادي.

مفكر تقدمي

وعلى عكس هذا تماما نجد كاتبا جهيرا خطيرا هو الفقيد المغبون سلامه موسى . . لقد ترك سلامه موسى زهاء أربعين كتابا ليس بينها كتاب واحد في تلك الموضوعات الغيبية إلى تخدر ولا تنبه الوعي، وتربط القارئ بعصور لا يراها ولا تعيش معه مشاكلها، ولا يستفيد شيئا من كونها كانت كذا أو كذا . .

ان كتب سلامة موسى تمتاز مثل أفكاره بانها كتب علمية وشعبية ورائده وثائرة، وعصرية تقدمية.هي علمية لأنها تعالج

موضوعات هي من اختصاص العلم والعلماء، مثل الوراثة ونظرية التطور واصل الانسان، وعلم النفس والاشتراكية والتربية.

وهي شعبية لأنها في أسلوبها بسيطة واضحة وسلاستها تمكن جميع القراء من فهمها والاستفادة منها، ولأنها تعالج قضايا حيوية تهم جميع افراد الشعب، وهي رائدة ثائرة، لأنها تهدف إلى بناء مجتمع جديد يقوم على التآخي والمساواة بين الأفراد وبين المرأة والرجل بوجه خاص.

وهي عصرية تقدمية لأنها تعالج قضايا الانسان، بروح عصرية تدعو للتقدم والنهوض على أساس علمي قوامه الصناعة والاشتراكية والديمقراطية.

وكان سلامة موسى دائما يطمح في الارتفاع بمجتمعه إلى مستوى المجتمعات المثالية الممتازة التي دعا إليها افلاطون والفارابي وحللها سلامة موسى في كتابيه « الانسان السبرمان » و « احلام الفلاسفة » والكتاب الأخير يمتاز بالطرافة والواقعية معا.

الكاتب النفساني

ومن أبرز خصائص مؤلفات سلامة موسى اتجاهها السيكولوجي، وعلاجها لقضايا المجتمعات والشعوب

العربية السياسية والاجتماعية والأدبية على أساس سيكولوجي في ضوء علم النفس.

وبالرغم من ان سلامة لم ينل شهادات اختصاص في هذا العلم، ولا تولى تدريسه في الجامعات كما يفعل حاملوا شهادات الدكتوراه في هذا العلم وفروعه المتعددة الا انه قد برع في استخدامه في بحوثه ودراساته الاجتماعية والأدبية براعة لا يجاربه فيها احد. وقد استطاع بفضل مطالعاته وتجاربه الذهنية والاجتماعية ان يؤلف كتبا عديدة في مناحي علم النفس تعد من خيرة الكتب لا في العربية وحدها بل وحتى بالقياس إلى مثيلاتها في اللغات الأخرى.

وكتب سلامة موسى في علم النفس ليست من نوع الكتب التقريرية الجافة التي تشحن بالقوانين والنظريات والأحكام القواعدية، بل هي كتب تخاطب العقل والنفس بحقائق الواقع الانساني في ثوب علمي وباسلوب مشوق جذاب.وما كتبه « محاولات سيكولوجية » و « العقل الباطن » و « التثقيف الذاتي » و « عقلي وعقلك » و « كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » و أخيرا « دراسات سيكولوجية » ليست هذه الكتب الا ثمرات ناضجة لحياة عقلية واجتماعية حافلة.

كتاب دراسات سيكولوجية

ووقفة قصيرة مع الكتاب الأخير، تعطينا صورة كاملة عن اتجاهات سلامة موسى وافكاره العلمية والاجتماعية والتقدمية.

عالج سلامة موسى في هذا الكتاب موضوعات تتصل باللغة والأدب والفن، واخرى تتصل بالسلوك والعواطف والأمراض النفسية والانحراف والتعلق بالغيبيات. ولكنه في علاجها لم يخرج عن دائرة علم النفس ومشاكل الانسان في مجتمعه. خذ مثلا هذه الطائفة من عناوين فصول الكتاب (العواطف المضغوطة والسلوك الشاذ. المرضى الذين يعلموننا النفس السليمة في المجتمع السليم. مرضى النفس وعلاجهم. اللغة أعظم أدواتنا الاجتماعية. كيف نتعلم العبقرية. الايمان بالأرواح مرض. السعادة ان نمارس الحياة. لا تكن في حرب باردة مع نفسك. كيف نتعلم السعادة . .).

وهذه العناوين توحي بلا شك بنوع الاهتمامات التي يكرس الكاتب لها وقته وتشغل تفكيره، وهي - كما نرى - من اخطر وأوكد المشاكل الاجتماعية والنفسية ضرورة للعلاج والبحث ونبصّر الناس كافة بحقائقها وحلولها. اذ ما من احد

في الأرض الا وفي نفسه كثير أو قليل من قضايا أو مشاكل أو عقد لا يعالجها الا علم النفس. لهذا اراني مصيبا حين أحث على دراسة هذه الكتب وارشاد القراء لها خاصة الشباب المقدم على الحياة بقوة جريئة أو خوف معيق، فهو يحتاج إلى فهم الحياة أولا وفهم المجتمع ثانيا وفهم نفسه وقدراته ثالثا.

وكمثال على قيمة هذا الكتاب النفسي الموجه، كمثال على اسلوبه وموضوعاته، وطريقته، أسوق لكم منه المقتطفات التالية :

مع فرويد

عندما يقول أحدنا انه درس فرويد، فانه لا يعني بذلك التسليم بكل ما قاله وزعمه عن النفس البشرية كما ان من درسوا داروين أو انشتاين أو سارتر وهيجل لا يسلمون بكل ما قاله هؤلاء اذ ليس الدرس حفظا عن ظهر قلب، وليست السيكلوجية رقية نتلوها على المريض فيشفى وانما هي تقليب للفكرة أو للفكرات ومناقشتها. بل قد يكون الدرس بالانعطاف بها إلى وجهات اخرى غير وجهتها الأصلية. بل أزيد على ذلك وأقول اننا ننتفع احيانا بالخطأ كما ننتفع بالاصابة عند المفكر العظيم.

« واخطأ فرويد أو ما يزعمه البعض انها اخطأ قد بعثت مئات المفكرين في انحاء العالم المتمدن على بحث النفس البشرية وهم يوافقون فيها فرويد أو يناقضونه ولكنهم في كل ذلك يبحثون.

« وماذا نقول في رجل - يعني فرويد - يبدأ بحوثه بقوله « ان لكل اتجاه أو حركة. أو سلوك علة. و أننا إذا كنا نجد رجلا مستقيما وآخر شاذا، ثم رجلا صالحا وآخر مجرما، ثم امرأة مستهترة واخرى متحفظة فاننا يجب ان نبحث عن العلة في هذه الحالات : هل هي في العائلة ؟ ام في المجتمع، أم في الوراثة، أم في الوسط ».

« لقد قال هو - اي فرويد - انها في العائلة، في علاقة الطفل بابويه في السنوات الأولى من العمر.

« ونستطيع ان نخالفه هنا، ولكننا لا نستطيع ان نخرج بذلك من المشكلة وهي : لماذا يختلف الناس في سلوكهم ؟

وهذا السؤال هو سؤاله. وهو في صميم السيكلوجية التي تبحث (النفس) في ارتفاعها وانخفاضها، وسلامتها ومرضها، واستقامتها وانحرافها ».

وهكذا يمضي سلامة موسى يبحث في علل هذه القضايا متفقـا احيانـا مع فرويد صاحب المذهب التحليلي في علم النفس ومخالفا اياه احيانا اخرى، وهو لا يخرج في كلا الحالين عن طرافته وعلميته وحبه للانسان المتكامل السوي.

حنـوه الانسانـي

وسلامه موسى في هذا الكتاب كما في سائر كتبه الأخرى يحنـو على الانسـان، ويحاول ان يسمو بعواطفه ويبصره إلى منـاهج التآخي الاجتماعي والتعاطف بين الناس مع علاج النفس من ادرانها وعقـدهـا وانـانيتهـا، خذ لهذا مثلا هذه السطور القليلة من فصل عنوانه (النفس السليمة في المجتمع السليم)، قال سلامة موسى :

« كان المثـل الـروماني يقول : العقل السليم في الجسم السليم » وبعض الناس يظن ان هذا المثل حكمة، مع انه يخلو من الحكمة، ولو عكس لكان أقرب إلى الصحة. ذلك اننا نجد الكثيرين من المرضى بالدرن أو السكر أو النقرس أو الرومتزم، لا تؤثر امراضهم في سلامة عقولهم. بل لعل هذه الأمراض تزيد عقولهم يقظة « ولكن العقل المريض كثيرا ما يؤدي إلى مرض الجسم. كما نرى مثـلا في من يتـوهم وهما

خاصا يجعله يعزف عن الطعام ، أو يخشى الافلاس أو الموت فيبقى في قلق يؤدي إلى هزال الجسم .

« والعقل مع ذلك ليس كل شيء لأننا لا نسلك في الحياة بما لنا من عقل دائما وانما بمالنا من نفس .

« نحن نستطيع بالعقل ان نجمع أو نطرح الارقام ونحل مشكلة حسابية وكيمائية ولكننا بالنفس نحل مشكلة روجية لأننا هنا لا نعتمد على منطق الارقام وانما على القيم الروحية ، اي الانسانية أو الاجتماعية ، وما تحمل من معاني الشرف والمروءة والخدمة « ولكن ما هي النفس ؟ » .

النفس والمجتمع

يمضي سلامة موسى مجيبا عن السؤال فيحلل كيان الانسان النفسي وعلاقته بالمجتمع وتأثير المجتمع على الفرد تأثيرا يراه سلامه موسى حتميا وفعالا . فهل هو مصيب في ذلك . . ؟

نقرأ أولا ما يقوله جوابا عن سؤاله : (ما هي النفس ؟)
« هي كياننا الاجتماعي ، وهي العقل والعاطفة معا ، وهي موقف معين نتخذه نحو الكون والدنيا ، وهي مجموعة عقائدنا

المؤرثة والمكسوبة، وهي القيم الروحية والاخلاقية التي نحترمها ونتعلق بها، وهي احساساتنا الفنية وأذواقنا، وكل هذه تنتهي بتعيين اتجاه عواطفنا ومنهج العيش الذي نحيا به، والنفس لذلك أكبر من العقل.

« ولكن هذه النفس انما تتكون بالمجتمع. وإذا لم يكن هناك مجتمع نعيش فيه، فليس هناك نفس أي ليس هناك عواطف اجتماعية او عقائد أو قيم اخلاقية أو احساسات فنية .. الخ ».

هكذا يحلل سلامه موسى النفس البشرية إلى عناصر تكاد تكون جميعها مكتسبة من البيئة وهي كما يقول علماء النفس إرجاع ذاتي لحافزات من المجتمع نفسه.

وتبدو النفس في رأي سلامة موسى اقرب إلى الشخصية الاجتماعية وما يصدر عنها من سلوك في الحياة تجاه الآخرين، وما قد تقوم به من ردود فعل مختلفة نحو حوافز المجتمع ومنبهاته.

مناقشة هادئة

ونحن قد لا نجد حرجا في قبول مفهوم سلامه موسى عن النفس، لكننا نتردد كثيرا أمام ، احكامه الحتمية في كون

الانســان ليس أكثـر من كونه « مرآة تنعكس عليها تأثيرات الوسط الذي يعيش فيه » .

صحيح ان للوسط الاجتماعي تأثيرا فعالا في طبع شخصية الفرد وتكييف سلوكه لكن الوسط ليس هو المؤثر الوحيد في شخصية الانسان واتجاهاته .

ولـو اننـا تغـافلنـا عن عنـاصر الوراثة لبقي تأثير البيت والمدرسة ، وهو تأثير حاسم قد لا يستطيع الفرد الخلاص منه مدى الحياة . هذا فضلا عن التفاوت الطبيعي بين الأفراد .

ولكن سلامة موسى لا يرى في كل هذا شيئا مذكورا فلا عجب بعد هذا ان تركزت بؤرة الاهتمام عنده في الوسط وحده وان جعل لكل تأثير اجتماعي رد فعل حتمي هو في نظره الداء الوبيل الذي لا يعالج الا بطريقة جذرية هي قلب المجتمع المريض أو المنحرف رأسا على عقب ، والثورة على جميع ما فيه من قيم ونظم وعادات :

ومثـل هذا الالحـاح على تأثـير الوسط الاجتماعي يكرره سلامه موسى ويتحصن به في كثير من تحليلاته النفسية لسلوك الأفـراد ودراسـاته الاجتماعية لحياة معاصريه فهو مثلا يحلل سلوك الفرد المنحرف بقوله :

« . . ان النفس تمرض احيانـا بالجنـون أو الاجـرام أو

الشـذوذ . . وهـذه الأمـراض جميعهـا هي استجابة النفس لوسط اجتماعي معين . ذلك ان المجتمع السليم يجب ان يخلو أو يكاد يخلو من الأمراض النفسية .

« ولكن إذا كان المجتمع قد أفشى الفاقة فبعث الحرمان ، فانه يحيل عددا كبيرا من الأفراد إلى مجرمين يخطفون ويسرقون ويغتالون .

وإذا طغى الخوف والقلق فان الأفراد يفرون إلى المستقبل فإن أفراده . . يفرون منهما إلى الخمر أو إلى أي مخدر اخراسوا من الخمر . .

« وإذا طغى الخوف والقلق فان الأفراد يفرون إلى الجنون . بحيث يخترع كل منهم ، وهو على غير وجدان بما يفعل ، جنونا معينـا يرتـاح إليه ويستقر عليه حتى يقضي سائر عمره وهو سكران بخمر نفسه يغيب بها من أسباب القلق والخوف .

« وإذا كان هذا المجتمـع يفصـل بين الجنسين ، ويجعل الزواج مع ذلك مستحيلا الا بعد سن الثلاثين فان النفس المحرومة عندئذ تشذ « وتمارس الانحراف » .

« وهـذا كلام واضـح ، فالاجـرام والجنون والشذوذ هي جميعها امراض نفسية تعود إلى احوال معينه في المجتمع اي تعود إلى مجتمع غير سليم .

فإذا توافر العمل والكسب للجميع زالت جرائم السرقة والاغتيال والنصب.

ـ وإذا توافر الاختلاط بين الجنسين وامكن الزواج في سن مبكرة زال الشذوذ والانحراف ».

الانحراف والرأسمالية

وكأن سلامه موسى تذكر اخر الأمر، ان هذه الحتميات الثنائية المتناقضة ليست صحيحة مطلق الصحة اذ هناك مجتمعات ليس بها من الفاقة والحرمان ما تعانيه مجتمعات متخلفة، ومع ذلك يكثر فيها الاغتيال والسرقة والشذوذ مثل المجتمعات الرأسمالية، كأن سلامه موسى تذكر آخر الأمر كل هذا فطفق يستثنى بقوله :

« ولكن هذا لا يعني انه قد يكون هناك واحد أو اثنان في المائة يقعون في احد هذه الأمراض لأسباب اخرى محلية مثل نظام العائلة او نشوء مركبات سيئة أيام الطفولة أو نحو ذلك ».

ان هذه النسب الضئيلة التي تذكرها سلامة موسى لا تؤكد نظريته المتطرفة في تأثير الوسط الاجتماعي على الفرد. بل العكس قد يكون صحيحا ففضلا عن ان البلاد الرأسمالية

مثل امريكا وبريطانيا مصابة بنسب عالية من الأمراض التي يتحدث عنها سلامة موسى ، فضلا عن هذا فان الفرد الواحد احيانا قد يكون له من التأثير على مجتمع كامل في قلب أوضاعه وقيمه وعقليته ما لا يقاس به تأثير المجتمع على الفرد. وليس هتلر الا مثال حي وبارز في كل الاذهان.

رائد لغوي

لنترك الآن حتمية الوسط الاجتماعي كما يراها سلامة موسى ولنقف قليلا عند أفكاره الرائدة حول اللغة ودورها في حياة الانسان وتفكيره، فان هذا البحث هو ـ في اعتقادي ـ من ملامح عبقرية سلامة موسى وتفوقه في التحليل النفسي والاجتماعي.

يقول سلامة موسى تحت عنوان : نحن نفكر بأفواهنا .

« . . . عنوان المقال نحن نفكر بأفواهنا » قد نقلناه عن تريستان تازارا، ومعناه اننا نفكر بالكلمات التي تنطق بها السنتنا، وإذا لم تكن لنا كلمات نفكر بها، فاننا عندئذ لن نستطيع التفكير الا بمقدار ما يفكر الثور أو الجمل.

« لقد انتهى المفكرون المتعمقون إلى ان الناس والأشياء والطبيعة والكون ليس لها أي معنى أو مغزى الا في وجداننا وكلماتنا ».

« ان اللغة عند كثير من الناس هي كل التفكير الذي يفكرونه، وعندنا جميعا هي التي تكيف التفكير وتكسبه طرازه وشكله.

ثم ان نمونا الفكري وتطوره انما هما نمونا في اللغة وتطورها.

« ونحن نعين سلوكنا مع الناس في صور اخلاقية مثل المروءة، الانسانية، الحب البغض، الشماتة .. وهي جميعا صور تثير عواطفنا وتوجهها وتكيف احساسنا وتصرفنا. فإذا فقدنا هذه الكلمات فاننا نفقد أيضا هذه العواطف والاحساسات ولا يبقى منها الا مقدار ما يجد ثور أو جمل منها.

« .. هناك من يزعمون ان اللغة مرآة للأفكار، ولكن الواقع انها أكبر وأخطر من ذلك، اذ هي صياغة للأفكار من ناحية، وتفسير للأفكار من ناحية اخرى « ان اسلوبنا في التفكير هو في صميمه اسلوبنا في التعبير، لأننا لن نستطيع ان نفكر اكثر مما تعطينا الكلمات من معان. وعلى قدر النقص في معاني الكلمات يكون النقص في تفكيرنا.

لقد قال (وينجشتين) حدود لغتي هي حدود عالمي ».

« انا أتكلم لثلاث غايات :

« الأولى : ان أتفاهم مع الآخرين.

« الثانية : ان اتفاهم مع نفسي حين اخلو وأقول انا افكر. والحقيقة انني استحضر الكلمات التي تعين تفكيري وتصوغ احساسي.

« والغاية الثالثة هي ان اللغة تعين موقفي من الناس والأشياء والكون. وهي هنا فلسفة وعلم وأدب وفلكيات وطبيعيات . . الخ.

« واللغة هنا تزيد وجداني. اي كيف اجد نفسي في كل هذه الأشياء ؟

« ان جوليان هكسلي يقول « ان تطور الانسان قد توقف بسبب اللغة ».

« ويكاد يكون صادقا، ذلك ان الزواحف حين شرع بعضها يجرب الوثوب في الهواء كي يأكل الفراش الطائر صار جلدها ينبت ريشا فصارت طيورا.

« ولكننا لن نطير، لأننا بما عندنا من ثقافة (اي كلمات) قد عرفنا كيف نطير بالحديد والنار. فالثقافة البشرية اي اللغة البشرية قد قامت مقام التطور العضوي في أجسامنا.

الارتقاء واللغة

« وهكذا ندرك، ان الارتقاء الثقافي اي اللغوي قد عاق ـ وسوف يعوق ـ التطور العضوي. ولكني اعتقد مع ذلك ان كبر المخ في الانسان يعود إلى اللغة، لأن هذا العضو احتاج إلى ان يكبر كي يحتفظ بالصور العديدة التي أوجدتها الكلمات، وهذا يعني ان التطور الجسمي قد وقف ولكن تطور المخ لن يقف ».

ثم ينهي الكاتب بحثه بقوله :

« من احسن ما في سارتر ـ صاحب الفلسفة الوجودية ـ عنايته باللغة ومواصلة البحث في ممكناتها. وقد قال سارتر : « ان صناعة الكاتب هي الكلمات » اي الأفكار وقال أيضا : « انا لا أثق بما لا يمكن التعبير عنه »، وهو يعنى اننا ما دمنا نعجز عن التعبير فاننا نعجز عن التفكير.

« ومن آراء سارتر في اللغة اننا نتغير ثم نجر اللغة خلفنا ونغيرها.

« واعتقادي ان التفاعل اللغوي يضفي على الكلمات القديمة معاني جديدة، ثم تعود هذه الكلمات بمعانيها الجديدة فتحدث طرزا جديدا في الفكر والعاطفة، فيكون التجدد الاجتماعي والثقافي.

« ولكن . . إذا سلمنا بهذا فاننا نحتاج إلى ان نعالج حياتنا ومجتمعنا وفلسفتنا واخلاقنا من الكلمات المريضة التي تحدث لنا اوضاعا مريضة من الأخلاق والاجتماع والحياة والفلسفة » .

بهذا الرأي البناء الجريء ختم سلامة موسى بحثه في دور « اللغة » الفعال في تطور المجتمع الثقافي والاجتماعي بل وحتى السياسي. او لم تفعل كلمات : الاستقلال، وتحرير المرأة وتقرير المصير، فعلها في تطور المجتمعات والشعوب وتغيير مجرى التاريخ في افريقيا وآسيا ؟ بل وفي اوروبا نفسها ؟

أجل ! لقد عملت عشرات بل مئات ان لم نقل الاف الكلمات عملها العظيم في بعث أمم عديدة، ودفع شعوب شتى خطوات رائعة إلى الأمام .

وما دامت الكلمات لها كل هذا الدور الخطير، فان الفضل يعود إلى اولئك الذين يصنعون الكلمات كما قال سارتر. اي إلى أمثال سلامة موسى . (*)

---

* نشر في مجلة الثقافة (تونس) س 1 ع 4 ـ 5 (جويلية / أوت 1963) .

ذكرى عادل زعيتر

هنالك كلمة رائعة تنسب إلى الفيلسوف الفرنسي الشهير « فولتير ». وهي قوله : « إن كلمة ثناء واحدة أسمعها في حياتي هي أجدى عندي من مائة كتاب تؤلف لتكريمي بعد وفاتي » !.

أجل إن كلمة ثناء واحدة يسمعها الأديب في حياته أجدى له من عشرات الكتب تؤلّف عنه بعد وفاته. ولكن الأديب العربي كُتب عليه أن يعيش منسيّا مهملاً في حياتِه وبعد مماتِه. فقديما كانت صناعة الأدب محنة لصاحبها تجلب له الهمّ والبؤس. فكان يقال عن كل عالم أو أديب يناله الشقاء والبؤس : أدْركته حرفة الأدب.

وما كان يجري على الأدباء الشرفاء في ازهى عصور الحضارة الاسلامية من بغداد إلى القيروان فقرطبة. مازال يجري إلى اليوم. ومازالت آثاره تظهر باشكال مختلفة في كل جيل بل في كل عام من تاريخ نهضتنا الفكرية المعاصرة.

فقبل حوالي سنتين (١) توفي الكاتب الفلسطيني الكبير الأستاذ عادل زعيتر. فكتبت عنه جريدة الأهرام المصرية خمسة أسطر. وكتبت عنه جريدة اخرى في قطر عربي آخر عشرة اسطر. ولم يصل خبر نعيه حتى الآن إلى أقطار عربية

أخـرى . . وهكـذا أدركت حرفـة الأدب عادل زعتير لا في حياته فقط، ولكن بعد موته أيضا.

ولم يسكت الغيارى على الحق والشرف من أصحاب القلم والـفـكـر عن هذه المـحـنـة الجـديدة بل المحـنـة المضاعفة . . فكتب الأستاذ كامل الشناوي مقالا عن هذه الخسـارة المـاحقـة والاهـانـة الـلاحقـة، وكـان مقـالـه بعنوان : خمسون كتابا وخمسة أسطر. قال فيه بالخصوص : « في خمسة أسطر. وفي صفحة الوفيات على وجه التحديد نشرت جريدة واحدة هي « الاهرام » نعى أستاذ جليل كبير. عالم أديب ظل أربعين عاما يغذي المكتبة العربية بامهات الكتب العالمية. وقد بلغ عدد هذه خمسين كتابا صدر بعضها في طبعات فخمة انيقة. وبعضها الآخر في طريقه إلى الصدور . .

هذا العالم الأديب هو الأستاذ عادل زعيتر، وقد نقل إلى اللغة العربية في مدة أربعين عاما آثار الكتاب العالميين. امثال أيميل لودفيج وغوستاف لوبون، وفولتير وجان جاك روسو، ومونتسكيو.

وكان يقوم وحده باخراج ما يترجمه من كتب، وكان في كثير من الاحيان يطبع هذه الكتب على نفقاته الخاصة، وليست

هي بالكتب التي تجذب القراء إليها، فهي ليست من كتب الاثارة والتشويق. وانما هي كتب تمتاز في شكلها وجوهرها بالرصانة.

وكان عادل زعيتر حريصا على نقل الكتب والكتاب والجو إلى لغتنا بدقة وفهم. وقد جشمه ذلك انتهاج أسلوب صعب معقد. ولكن هذا الأسلوب رغم صعوبته وتعقيده ينطوي على امانة لا يستطيعها كثير من الناقلين والمقتبسين.

ومنذ سنوات قليلة عهدت إليه اللجنة الدولية لترجمة الروائع ـ وهي لجنة تابعة لمنظمة اليونسكو ـ عهدت إليه بترجمة ـ روح الشرائع ـ لمونتسكيو. والعقد الاجتماعي لروسو. . وكتاب روسو هذا يعد احد الأسس الضخمة التي نهضت عليها الثورة الفرنسية، وقد وصفه المؤرخ الاسكتلندي توماس كارليل فقال: «لقد وجدت الثورة الفرنسية انجيلها في كتابات روسو».

اما كتاب روح الشرائع لمونتسكيو فهو يقع في اكثر من ألف صفحة ويعد اعظم كتاب فرنسي في القرن الثامن عشر، وقد جمع بين الفلسفة والتشريع وحكمة التاريخ والنقد الدستوري.

هكذا كتب الأستاذ كامل الشناوي في جريدة الجمهورية بعد وفاة عادل بخمسة أيام فقط، وان هذا وحده وخاصة عبارته الأخيرة التي قال فيها : « ان هذا الرجل احد أساتذتي الذين اخترتهم لجامعتي الخاصة، وقد لقنني اصعب الدروس في السياسة والأدب والاجتماع وانا مدين له بالكثير من ثقافتي القليلة. لم أره ولم التق به. وحين قرأت نعيه اليوم طفر الدمع من عيني كما لو كنت اقرأ نعي صديق » !

ان هذه العبارة الأخيرة برهان على ان الحق لا يموت. وان صانعي الخير لا يمكن ان ينساهم الأخيار المنصفون فضلا عن التاريخ العادل النزيه. وهكذا كان لهذا الصوت الكريم صداه فتنادى الأدباء المثقفون إلى أقلامهم وعواطفهم. وكان الأردن أسبق الاقطار العربية إلى العمل بحكم انتساب الفقيد إليه، فتكونت لجنة كبيرة جدا لتأبين عادل زعيتر في مسقط رأسه. واعلن عن موعد الاحتفال ومكانه وكان التجاوب الفكري والأخوي بعيد المدى قوي العاطفة صادق الشعور نبيل المظهر.

وفي اليوم الرابع عشر من مارس 1958 كانت مدينة نابلس مسقط رأس الفقيد تعيش امجد يوم في تاريخها الحديث. وتستقبل عددا كبيرا من أدباء الأردن والأقطار العربية الذين حضروا من سوريا ولبنان والعراق ومصر

ليشاركوا اهل الفقيد في احزانهم وليعبروا بخطبهم وقصائدهم عن عرفان شعوبهم والمثقفين منهم بوجه خاص بما اسداه عادل زعيتر من جليل الخدمات نحو الثقافة العربية المعاصرة ونحو فكرها المتحفز وأدبها الجديد.

وليست حفلة التأبين هذه الا اقل واجب يقوم به العرب الأحياء نحو عالم فذ من علمائهم، وكاتب قدير ادرك بمنتهى السداد والرشد حاجة امته الحقيقية من الفكر والأدب فترك التأليف ـ وكان من اقدر الكتاب عليه ـ وترك لذائذ الحياة جميعا وامجاد الأرض كلها لينقل إلى لغة قومه وفكر امته كنوز الامم الأخرى وروائع الفكر الانساني.

من هــو

لا يوجد اليوم مثقف عربي واحد لا يعرف عادل زعيتر من خلال كتبه المترجمة ولكن قليلا منهم من يعرف حياته وآثاره كلها وقد احسنت لجنة التابين صنعا حين اصدرت كتابا جامعا يقع في 272 صفحة من الحجم الصغير. وقد حوى الكتاب كل ما قيل في حفلة التـابين ومعظم ما كتب عن الفقيد في كبريات الصحف العربية مع تقديم موجز عن حياة عادل ومؤلفاته.

وانه لمن المفيد هنا ان نقتبس لكم بعض ما جاء في هذا الكتاب :

ولد عادل بن الشيخ عمر زعيتر في مدينة نابلس بفلسطين سنة 1897 وتلقى تعليمه الابتدائي بنابلس والثانوي في بيروت وانهى العالي في الكلية السلطانية باسطنبول. دعى عادل عام 1916 إلى الجندية وتعين ضابطا احتياطيا في الجيش العثماني. ولما اضطهد الأتراك عرب الشام والعراق هرب عادل من الجيش التركي وانضم إلى جيش الثورة العربية. فصدر حكم غيابي من الأتراك يقضي باعدامه. وعندما احتل الفرنسيون سوريا عام 1920 غادرها عادل واستطاع ان يلتحق بكلية الحقوق من جامعة باريس. وفي اثناء دراسته بفرنسا شرع يترجم كتب غوستاف لوبون الذي اذن له شخصيا بذلك.

وفي عام 1925 انتهى من دراسته بفرنسا وعاد إلى فلسطين ليشتغل بالمحاماة وتدريس العلوم التشريعية في معهد الحقوق بالقدس. وللفقيد مواقف مشرفة في معارك الحرية العربية. وخاصة في الدفاع عن عروبة فلسطين.

أما خارج بلاده، فقد عين 1953 عضوا في المجمع العلمي العراقي وفي عام 1955 في المجمع العلمي السوري

وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر نوفمبر 1957 آصيب بنوبة قلبية ودع بها الحياة. وهو في الستين من عمره.

أما الكتب التي ترجمها الفقيد فتزيد عن خمسين كتابا نشر منهـا حتى الآن ستة وثلاثون كتابا والبقية ماتزال مخطوطة لم تنشر بعد.

ويكفي هذا الـرجـل شرفا، ان كبار المثقفين العرب قد سعوا بأشخاصهم من مسافات بعيدة ليحضروا يومه التاريخي في مسقط رأسه. وكان من بين الذين حضروا حفلة التابين وتكلمـوا فيهـا الـدكتورة عائشة عبد الرحمان المعروفة ببنت الشاطىء والأستاذ عادل الغضبان الذي مثل دار المعارف التي نشرت معظم كتب الفقيد، والشاعر محمد عبد الغني حسن. وهؤلاء الثلاثة حضروا بالطائرة من القاهرة، أما العراق فقد شارك باسمـه الـدكتـور مصـطفى جواد ومثل سوريا باسم المجمـع العلمي قدرى طوقـان ومثلت الأدبـاء المهجـريين كتابات الشاعر الكاتب نظير زيتون أما لبنان فشارك بصحافته في هذه الذكرى، وخاصة جريدة الحياة التي نشرت مقالات عديدة وارسل صاحبها خطابا تلي في احتفال التابين.

ويكفي دلالـة عن فحـوى ما قيل في الحفل من خطب وقصائد ومقالات ذكر بعض عناوينها : فمن المقالات ما كتبه

الأستـاذ وديع فلسطين بعنوان « كان جامعا ومجمعا » ومقال نشرتـه جريدة الحياة بعنـوان « أكبر المنتجين العرب » . أما خطب الاحتفـال فيكفي منها خطاب بنت الشاطئ وعنوانه « رد إلى الترجمة اعتبارها » وقد جاء فيه قولها بعد ان تعرضت لقصة أول لقاء بينها وبين الفقيد . « وانصرفت من حضرته يومئذ . وانا اعده أستاذا لي ومن ذلك اليوم لم أعد اطالع آثاره مطالعه القارئة الناقدة وانما هي قراءة التلميذة الدّراسة .

أما الشاعر محمد عبد الغني حسن فقد كان آية رائعة من البيان والفكر والعاطفة . وهذا مقطع واحد يشهد بذلك كله . قال :

أقمتم لشمس العبقرية مغربـا
فكيف دفنتم في دجى القبر كوكبا
ورحتم تنادون الأحبـة بعده
لينظموا في ساحة الحزن موكبـا
فرفقا باضلاع يضعضعها الأسـى
وكن على الأحداث بالأمس صلبـا
تعالوا نقاسمكم على الراحل الأسى
ونتخذ السلوان في الخطب مذهبـا
ولما دعوت الصبر بعدك عقنـي
وعز على الصبر بعدك مطلبـا

وهيهات تنسيني العشيــات عادلا
وتبعد عن قلبي حبيبا مقربــا
وقد كان ملء الكون غيبا ومشهــدا
وملء فجاج الأرض عطفا ومنكبــا

هذا وقـد ختم الكتـاب بمقتطفات من مذكرات الفقيد الوطنية . ونتف من بديع بيانه في كتبه المترجمة . وكلها تدل على ان عادل زعيتر قد كان حقا مصداق البيت الرائع الذي قاله عنه الشاعر محمد عبد الغني حسن :

تصــوغ معانــي الخالديـن بلاغــة
وتسكبهــا للضــاد لحنــا معرّبــا

رحم الله عادل زعيتر وجعله قدوة للعاملين في حقل الثقافة العربية . (*)

1) كتب هذا المقال وأذيع عام 1960 بعد وفاة عادل بعامين لمناسبة صدور كتاب « ذكرى عادل زعيتر » عنه .
* نشر في مجلة عبقر عدد 5 (مارس 1962) .

السياب كما عرفته

في الساعة الثانية بعد ظهر أول يوم من أيام عيد الاضحى الموافق للثالث عشر من شهر تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ثمان وأربعين وتسع مائة وألف هبطت طائرة عراقية قادمة من القاهرة، هبطت فوق أرض المطار ببغداد، بعد أن كادت تسقط براكبيها من الجو أثناء دورانها حول المطار للنزول، بسبب كثرة الجيوب الهوائية، ولكن آجال راكبيها لم تنته بعد فنزلوا سالمين. وكنت أحد رفاق ستة كانوا بين ركابها، وكنا جميعا وعضوان آخران أول بعثة علمية من أبناء المغرب العربي تستقبلها معاهد العراق العليا، فتجددت بذلك أواصر الأخوة وروابط العلم بين شعب الأطلس الاشم وشعب وادي الرافدين الخصيب . . تلك الأواصر والروابط التي انحدرت مع التاريخ والسلالة، وجمعتها وزادت من لحمتها وحدة اللغة والتراث، ووحدة المصير والولاء للأمة الواحدة التي تنتمي إليها وتعتز بالانتساب لها شعوب البلاد العربية كلها.

أجل .

عادت تلك الروابط من جديد بعد ان فصم عراها ومزق شملها الانقسام والتجزئة وعصر مديد من الظلام والاستعمار. فكانت قرونا ثقيلة كئيبة، سادها الظلم والطغيان وتحكم فيها الجهل والانكماش. حتى غدت الشعوب العربية

غريبة عن بعضها منقسمة على نفسها، يكاد لا يعرف احدها الاخر لطول ما باعدت بينهم المحن وفرّقت شملهم سياسة الاستعمار وملوك الطوائف، تلك السياسة التي ندد بها وقاومها احرار العرب منذ فجر النهضة . . وهذا شاعر العراق الخالد المرحوم معروف الرصافي . . . يشهر بها . . ويذكر بروابط التاريخ واللغة وبلحمة الدين والتراث بين تونس وبغداد فيقول، وقد مضى على قوله اربعون سنة، يقول :

أتونس ان في بغداد قوما ترف قلوبهم لك بالوداد
ويجمعهم واياك انتساب إلى من خص منطقهم بضاد
ودين اوضحت للناس قبلا نواصع آيه سبل الرشاد
فنحن على الحقيقة أهل قربى وان قضت السياسة بالبعاد

نعم : قضت سياسة الاحتلال والاستعمار بالبعاد والتفرق . . ولكن اين هي اليوم سياسة الاستعمار ؟ . . . وأين هي حواجزه وحدوده ؟ بل أين هو الاستعمار نفسه ؟ لقد انهار وانهزم . . . ولسوف يتحطم ويندثر إلى الأبد في يوم قريب آت لا ريب فيه. . . يوم تستعاد فلسطين المغتصبة، ويلتئم شمال العرب في وحدة تامة وكيان متحد.

بغداد زين البلاد

إذا كنت قد رأيت بغداد من الجو وهبطت أرضها المباركة في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم الثالث عشر من أكتوبر سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وألف . . .

ففي الساعة الخامسة تماما من مساء السادس عشر من حزيران (يونيو) سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وألف تحركت بنا سيارة ضخمة من سيارات الصحراء، متجهة صوب دمشق، تاركة وراءها عاصمة الرشيد. فخرجت ونفسي تغمرها الكآبة وعيني يطل منها الدمع، أسفا وحزنا على فراق شعب عربي كريم، خلفت بينه مئات من الاخوان الاعزاء والأصدقاء الخلص. اولئك الذين يشعرون - هم والشعب معهم - يشعرون شعورنا ويتألمون لآلامنا ويفرحون معنا ويحترقون شوقا إلينا وحنانا إلى اللقاء السعيد الذي تتم فيه اماني العرب الكبرى ووحدتهم الشاملة.

أجل. تركت بغداد، ولسان حالي يردد قصيدة طويلة للشاعر التونسي عبد الرزاق كرباكه خاطب بها زميله العراقي معروف الرصافي في عام 1929 حين ترك الرصافي بغداد ساخطا غاضبا على حاكميها الطغاة وحظه المنكود بينهم، فأثار

ذلك حمية العرب الأحرار، وفي طليعتهم شاعرنا كرباكه حيث يقول :

فيما فرارك والعراق كما ترى زين البلاد، وأهله زين الورى ؟
اني لاعرف مبدأ تعنى به يا سيد الشعراء لن يتغيرا
صبرا اذن، اما تمانع نيله واحزم، وحاول ان تنال وتظفرا
ان العظيم إذا عنى لهامة في نفسه، لبس الجلادة مشعرا
لن تعمل الصدمات في مجهوده سعيا لغايته، ولن يتقهقرا
شيخ الرصافة جل ما تصبو له أتريد ان تلقاه سهلا أيسرا ؟
أين البطولة عند ذاك، وأين ما يلقى المجاهد وهو يقتحم الذرى ؟
أنت الذي أدمى الحياة دعاية للاتفاق، مناديا مستنفرا
ترتد عنها اليوم في يأس وقد قرب الجناء نتاجها وتهصرا

إلى أن يقول :

معروف. راجعها العزيمة مرة وأنا الضمين بان تفوز وتظهرا
هذا قرارك قد أثار حفائظا في الشرق، تكبر من صنيعك ما جرى
في تونس في مصر في سورية في فاس، في بغداد في أم القرى
هبت أعاظمها تفور وكلها أمل إليك، بان تؤوب وتصدرا
اني أبارك ما أرى من هزة وأجل هذا الجامع المتجمهرا
الخير في تلك الافاضة والمنى انا نرى هذا التوثق في العرى
اكرم بظاهرة الجماعة بعدما عز الوفاق، وعز ان نتصورا
ياما أجلك مطلعا ظهرت به تزهو بلاد الشرق ما بين الورى
فارأس طليعتها الجريئة شاديا معروف! واعتزم الكمال مظفرا

وإلى العلا ان الجلالة في العلا   وإلى الذرا ان الكرامة في الذرا

وأعيد مطلع القصيدة هكذا :

فيما فرارك والعراق كما ترى   زين البلاد وأهله زين الورى

لأقول : اني لم أبارح بغداد - وأيضا العراق - فرارا من أي شيء، وانما بارحتها لأن مهمتي فيها كانت قد انتهت، فتركتها إلى حيث اقوم بواجبات اخرى وحياة جديدة. بارحت بغداد بعد اقامة خمسة وأربعين شهرا تمكنت خلالها من تكوين فكرة واسعة وانطباعات كثيرة، وجمعت اثناءها ذكريات عديدة وربطتني بكثير من أدبائها ورجالاتها روابط اخوية عميقة وصداقات قوية لا تمحى أبد الدهر.

كيف عرفت السياب ؟

وبين هؤلاء الأحباء الأعزاء يقفز الآن اسم الشاعر الفقيد المرحوم بدرشاكر السياب الذي نحتفل الآن بذكراه الأربعين.

فكيف تعرفت به ؟ وما مدى هذا التعرف وأثره ؟ وما موقف السياب من كفاح العرب ؟

لقد بدأت كلمتي بالاشارة إلى انني كنت عام ثمانية وأربعين أحد افراد أول بعثة علمية من المغرب العربي إلى بغداد . . . وذلك كي أوضح لكم الظروف الأولى التي تعرفت فيها إلى شعر السياب-أولا ثم إلى صاحبه بعد ذلك.

ففي نوفمبر من هذا العام 1948 التحقت طالبا بدار المعلمين العـالية، وما ان تعرفت على أوضاعهـا وأندمجت في أجوائها حتى وجدت زهور شعر السياب تعبق في ارجائها، ذلك ان السياب كان قد تخرج في دورة العـام نفسـه في نفس المعهـد، ومازالت ذكرياته وأنفاسه حية في أرجاء الدار، كما لايزال طلاب وطالبات الصفوف الموالية يرددون قصائده في اعجاب وطرب شديدين.

والحق ان شاعـرية بدر السياب كانت قوية جدا منـذ نعومتها، أو قل منذ بواكيرها الأولى.

ومما يزيد في قوة تأثير شعره انه ـ ككل الشعراء ـ بدأ حياته الشعرية بالغزل. وقد الهبت شاعريته وأضاءت قلبه كوكبة من حسان الطالبات، زاملنه في الدراسة، وتهافتن على شعره تهافت الفراش، وان لم يتهافتن على صاحب ذلك الشعر. وتلك هي مأساة الشـاعـر الأولى حيث احترق في أتون من الخيبـات المتلاحقة وحيث انجذب عن طريق احداهن إلى الحـركـة الشيوعية، التي كانت تتنـافى مع مزاجـه وعـروبته ومستقبله ايضـا. على ان ظروف حياتـه الاقتصادية ونشأته القروية في احضان البؤس والحرمان.. كل ذلك جعله أيضا يعتقد ـ وهو لم ينضج بعد ـ ان الشيوعية هي الطريق الوحيد للخلاص من البؤس وتحقيق المجتمع الأفضل.

ازهار ذابلة

في دار المعلمين العالية اذن نضجت مواهبه الشعرية، فظهر ديوانه الأول عام 1947 بعنوان « أزهار ذابلة » وفي هذا العنوان وحده ما يدل على شعور المرارة واليأس الذي سيطر عليه. فقد اصابه الاخفاق في جميع علاقاته الغرامية وانتهت كافة تجاربه في الحب إلى الهجر والقطيعة والانفصال ... ولكن شعره كان أسعد حظا منه مما جعله يحسد شعره ويستهل ازهاره الذابلة، بمقدمة شعرية رائعة تلخص لنا حياته العاطفية بما انطوت عليه من حرمان وخيبة ويأس.

ديوان شعر ملؤه غزل بين العذارى بات ينتقل
أنفاسي الحرى تهيم على صفحاته، والحب والأمل
وستلتقي أنفاسهن بها وترف في جنباته القبل
ديوان شعر ملؤه غزل بين العذارى بات ينتقل

* * *

وإذا رأين النوح والشكوى كل تقول : من التي يهوى ؟
وسترتمي نظراتهن على الصفـ حات بين سطوره نشوى
ولسوف ترتج النهود أسى ويثيرها ما فيه من نجوى
ولربما قرأته فاتنتي فمضت تقول : من التي يهوى ؟

* * *

ديوان شعري ، رب عـــذراء اذكرتها بحبيبها النائـــي
فتحسست شفـــة مقبلـــة وشتيت أنفـــاس وأصـــداء
فطوتك فوق نهودهـــا بيـــد واسترسلـت في شبـــه اغفـــاء
ديوان شعري ، رب عـــذراء اذكرتهـــا بحبيبهـــا النائي

* * *

يا ليتني أصبحت ديوانـــي لافر من صـــدر إلـــى ثـــان
قدبت من حسـد أقـول لـه : يا ليت من تهـــواك تهواني ؟
الك الكؤوس ولي ثمالتهـــا ولك الخلـــود ، وانني فان ؟ !
يا ليتني : أصبحت ديوانـــي لأفـــر من صـــدر إلى ثـــان

* * *

سابيت في نوح وتسهيـــد وتبيـــت بين وسائـــد الغيـــد
اولست مني ؟ انني نكـــد ما بال حظك غيـــر منكـــود ؟
زاحمت قلبي في محبتـــه وخرجت منه غير معمـــود
أأبيت في نوح وتسهيـــد وتبيت تحت وسائـــد الغيـــد

بهذه القصيدة سمعت لأول مرة باسم صاحبها الشاعر بدر شاكر السياب ، وكانت أغنية الشبان والشابات ، يحفظونها عن ظهر قلب ، ويرددونها في كل مناسبة ، وقد جذبتني قصائد اخرى من نوعها إلى الاهتمام بالشاعر والسعي للتعرف عليه شخصيا ، فقد لمست في شعره العاطفي - ولم أكن قد عرفت غيره بعد - قوة زاخرة من الاحساس والشاعرية ، وهما أساس كل شعر خالد وفن أصيل .

وتصورت في خيالي ان يكون صاحب هذا الشعر وسيما مترفا ناعما ليقول مثل هذا الشعر العابق المثير. ولشد ما كانت دهشتي حين رأيت بدرا السياب وقد قصدت زيارته ذات يوم في مكتب عمله بمديرية التجارة العامة ـ شابا قصير القامة، نحيف البنية اسمر اللون، مضلع الوجه، كبير الأنف، غائر الوجنات، واسع الفم، تظهر على محياه وملامحه متاعب المرض وخطوط الالام والحرمان والشقاء.

وكان بدر في هذا الوقت شيوعيا، وفي الثالثة والعشرين من عمره، ولكنه كان يقول الشعر في الغزل وفي الخيبات العاطفية التي تصيبه اكثر مما يقوله في مجالات اخرى. ومنذ هذا الوقت ربطتني به مودة صادقة رغم اختلافنا في العقيدة السياسية.

ولكن بدر لم يطل به الوقت حتى وعى مصيره وعاد إلى حضيرته، فأصبح شاعرا قوميا من الطراز الأول.

ولعل أبرز ما يسجل له باعجاب في هذه المرحلة انه لم ينغمس في الشيوعية إلى الأعماق، بل كان يميل إليها بحكم ظروف حياته واندفاع شبابه، فلما نضج فكره واستيقظ ضميره جاهر بانسلاخه عنهم، ونادى بعروبته، وسخر مواهبه وشاعريته للدفاع عن شعبه وعن قضايا العرب جميعا.

ومما يدل على ذلك ان آثاره الكثيرة المعروفة من دواوين وقصائد متناثرة، لا يوجد فيها قصيد واحد أحمر اللون أو النزعة أو الأفكار.

نعم، عالج في كثير من شعره قضايا الحرية، وناصر السلام العالمي وندد بالاستغلال والاستعمار والامبرياليّة ... ولكن هذه القضايا كلها هي من صميم كفاح القومية العربية.

ولذا كان بدر شاعرا ممتازا من شعراء الكفاح القومي لا في العراق وحده بل في كافة ارجاء الوطن العربي.

ومما يحمد له ويشكر عليه أيضا، ان بعض شعراء العراق المعاصرين له والمعدودين من جيله قد تذبذبوا بين النزعات السياسية المختلفة. فترى الواحد منهم في الصباح قوميا ثم تراه في المساء شيوعيا، ثم تراه في اليوم الموالي ماسونيا ثم يعود قوميا ثم ينتمي إلى نحلة اخرى ثم يعود قوميا أو يبقى شيوعيا، ولكن إلى حين. واذكر من هؤلاء مثلا عبد الوهاب البياتي والجواهري على اختلافهما في درجات التنقل ودواعي التبديل.

تـراث السيـــاب

لقد ترك بدر تراثا شعريا زاخرا، سجل فيه كفاح جيلنا من أجـل الحـرية والوحدة والاشتراكية. وانه ليعد بحق مصورا لآلام الجـماهـير الكـادحة في العراق ونصير الحرية والسلام والعدالة في كل مكان من العالم.

وهـذه دواوينـه المـطبـوعة تشهد بمدى نضاله المتواصل وصموده الشجاع في جميع الظروف.

فرغم المرض الخبيث الذي نشأ معه منذ طفولته التعيسة البائسة حتى قضى عليه ولما يتجاوز الأربعين من عمره، رغم مرض السل الذي كان ينهش شبابه وصحته وقلبه، فانه ظل إلى آخر لحظة من حياته يقف بعمله وبشعره في طليعة الأحرار المكـافحـين عن آمـال الأمـة العـربية في الـوحـدة والحرية والعدالة، وعن حق الانسان حيث ما كان في أن يحيا حياة الكرامة والشرف.

لقد تعرض السياب في حياته القصيرة إلى السجون والمنافي والـطرد من عمـله اكثر من مرة في عهود العراق المختلفة، ولكنه صمد وثبت في عقيدته وأستمر يناضل عن مبادئه غير مكترث بكل ما أصابه.

غاب مع الفجر

وحين بدأ العراق يشم رائحة الحرية والاستقرار من جديد، كان الموت يقف بالمرصاد لشاعرنا، فانشب فيه مخالبه بعد ان عذبه بالالام والسعال والوحدة سنوات عديدة. وهكذا افل بدرنا بعد جهاد طويل للظلم وللمرض.

ولكن هل يأفل البدر حقا ؟

انه قد يغيب بدر السماء ليعود فيضيء من جديد، ولكن (بدرنا) لا يأفل ولا يغيب أبد الدهر، لأنه ينبض بالحياة ويشرق بالضياء في كل قصيدة من قصائده بل في كل بيت وكلمة من اشعاره.

واننا اذ نحتفل اليوم بذكراه الأربعين، فانما نقوم بواجب العرفان والتقدير لمن شق الطريق أمام شعرنا الحديث نحو دنيا جديدة من الأوزان والتعابير فهو في نظري أسبق من نازك الملائكة ومن عبد الوهاب البياتي في تجديد قوالب الشعر وأوزانه واتجاهاته. (1)

ونحن في تونس بل في المغرب العربي مطالبون بان نحي في خشوع واجلال وعرفان ذكرى الشاعر الخالد، لا لأنه شاعر عربي رائد فقط، بل ولأنه وقف معنا بشجاعة وصدق في جميع

معارك الحرية التي خاضها شعبنا في تونس والجزائر والمغرب الأقصى .

وان ما قاله السياب عن معارك كفاحنا في المغرب العربي ليكون وحده ديوانا كاملا، جديرا بأن نعتز به وبان نقوم نحو صاحبه بفروض الاكبار والتقدير.

هـذا هو بدر شاكـر السياب : شاعـرا منـاضلا، ومحبا متعوسا . . . ورائدا مجددا، وقدوة فائقة للصبر والطموح والثبات .

رحـم الله بدرا، فقد اضاء سماء أدبنا الحديث بروائعه وسيظل يضيئها أبد الدهر، ما بقي الانسان العربي فوق هذه الأرض، وكان له تاريخ وضمير. (*)

1) وليس هو أيضا أول من ابدع الشعر الحر.

* قيلت في ذكـرى الأربعـين التي اقـامتهـا جمعية « رابـطة القلم الجديد » بتونس، ونشرت في مجلة الاقلام (بغداد) س 2 ع 7 (مارس 1966).

ثورة المغرب العربي
في شعر السياب

ديـوان شعـر ملـؤه غـزل

بين العـذارى بـات ينتقـل

أنفـاسـي الحـرى تهيـم علـى

صفحاتـه، والحـب، والأمـل

وستلتقـي أنفاسهـن بهـا

وتـرف في جنباتـه القبـل

ديـوان شعـر ملـؤه غـزل

بيـن العـذارى بـات ينتقـل

* * *

يا ليتنـي أصبحـت ديوانـي

لأفـر من صـدر إلـى ثـان

قد بـت من حسـد أقـول لـه

يا ليـت من تهـواك تهوانـي

ألـك الكـؤوس ولـي ثمالتهـا

ولـك الخلـود وانني فان

يا ليتنـي أصبحـت ديوانـي

لأفـر من صـدر إلـى ثـان

هكذا بدأ شاعرنا بدر شاكر السياب ـ حياته وشاعريته، فارس غرام وهيام وان يكن في عالم الأماني والأحلام، وقد خلبته فتنة هذه وابتسامة تلك من الزميلات الطالبات.

وبعد طواف طويل بينهن وتجارب فاشلة في حبهن .. ادرك ان رسالته، ليست بين احضان هند وليلى وانما هي بين احضان امة كاملة بتاريخها العريق، وحضراتها الشامخة، وبالأخص بين عمالها الكادحين وجماهيرها الرازحة في كلاكل العبودية والفقر والجهل.

وما هي الا فترة قصيرة حتى استرجع حقيقته واستعاد بصيرته، فإذا هو في طليعة المناضلين والثائرين، يذود القهر والاستعمار، وجميع أسباب الفناء عن امته.

ورغم صحته المتدهورة باستمرار، ومحن الاضطهاد والتنكيل التي تطارده هنا وهناك، فقد استطاع السياب، بفضل عروبته الأصيلة، وعبقريته الباهرة وصموده الشجاع، ان يثابر في جلد وصبر عجيبين على أداء رسالته، رسالة النضال والشرف حتى الرمق الأخير من حياته.

أجل! لقد تحول السياب من حب الحسان من النساء إلى حب الحرية والوطن، وجميع المكدودين البائسين والتعساء المضطهدين.

أي انه تحرر من عبودية الجسد لكي يكرس نضاله وشاعريته وكل حياته ومواهبه للنضال عن الانسان، الانسان العربي، والانسان المستضعف المقهور في كل مكان.

وإذا كان السياب في شعره الغزلي ذا موهبة فائقة وجاذبية فاتنة، وانغام ساحرة ومعان خلابة بهيجة، فانه اكثر ابداعا، واجمل صورا، وأقوى شاعرية في اشعاره الاجتماعية والانسانية وقصائده النضالية والقومية.

ولست في موقف يسمح لي بان أحدثكم عن نضاله القومي أو حياته الشخصية بكل ما انطوت عليه من اتراح وآلام ومن محن وأوجاع مهلكة، ولا انا أيضا في مجال يتيح لي الفرصة أو الوقت الكافي للحديث عن كل اشعاره القومية وقصائده النضالية.

لذلك اراني مدفوعا إلى تحديد المجال، والاقتصار على جانب واحد من حياته أو شعره القومي، لاعطاء صورة عن مشاعره وأصالته ومدى بره وصدق شعوره نحو قضايا امته من الخليج إلى المحيط.

نحن في تونس بل في جناح العروبة الأيسر كله، نكن للسياب عاطفة خاصة، ونحمل لشاعريته وذكراه اسمى معاني التقدير والاكبار، وجليل مشاعر البر والعرفان.

لا لأنه عبقرية باهرة من عبقريات أمتنا الخالدة فحسب، ولا لأنه رائد عظيم من رواد الحرف المناضل والكلمة الشريفة فقط، وانما لأنه كان أيضا احد الشعراء العرب القلائل الذين تجاوزوا آفاقهم الضيقة واقليمهم المحدود ليستوعبوا بعمق وصدق كبيرين كل الثورة العربية، وكل الكفاح القومي، على مدى الوطن العربي كله، وبعمق التاريخ العربي كافة، وباتساع الجماهير والملايين من أبناء الأمة العربية شرقا وغربا، وخليجا ومحيطا.

ولئن كنا في تونس، خاصة، وفي ليبيا والجزائر والمغرب الأقصى عامة، نذكر بالتقدير كل الشعراء العرب، وشعراء العراق منهم بوجه خاص، الذين صمدوا معنا بقصائدهم، وهتفوا للحرية والوحدة والاستقلال الوطني أيام الثورة المسلحة الدامية في كل أقطار العرب الغربية امثال على الحلي والبياتي وخالد الشواف وكاظم جواد وكثيرين آخرين فاننا نحو السياب بالخصوص نشعر بعاطفة مفجوعة، ومشاعر طافحة بالحزن والأسى، لأن الموت قد سلبنا اياه ولما يبلغ الأربعين بعد فخسرنا بفقده طاقة نضالية جبارة، وعبقرية شعرية فائقة وجنديا من جنود الكفاح القومي، وثائرا في طليعة الثوار الأحرار . . وشاعرا مجددا، جمعت شاعريته إلى عناصر الجمال في الأسلوب والتفنن في التعبير والرقة في الاحساس. صدق

الشعور وطهارة الضمير وشرف المضمون. ونبل الغاية وقومية التفكير.

ومما يزيد في المنا بفقده وفداحة الخسارة فيه. ان كان رحيله عنا. ونحن في غمرة نضال شاق وطويل. من اجل تحقيق آمال امتنا العربية في الوحدة والحرية والتقدم. ولتحريرها من الصهيونية والتهافت الاقليمي الممزق لأهدافها والمبدد لقواها والمهيء لأعدائها جميع الفرص للتدخل في شؤونها وللحكم في مصيرها.

وكان السياب نفسه فضلا عن هذه الظروف العصيبة لأمته، كان قد اهتدى إلى رسالته الحقيقيّة، ونضج فكرا وشاعرية، وتخلص نهائيا من الذبذبة وعدم الرؤية الواضحة، تلك المرحلة التي كثيرا ما ينزلق إليها الشباب نتيجة قلة التجربة والاطلاع المؤدية إلى صعوبة التمييز والاختيار.

وإذا كان تراث السياب مرآة بكل ذلك، فانه زاخر بانسانيته وقوميته، مليء بشواهده لقضايانا ونضالنا ضد الاستعمار والرجعية والامبريالية، وجهير بندائه للتقدم والنهوض، وهتافه للحرية والعدالة، ومناصرته المثابرة للشعوب المستضعفة والجماهير الكادحة.

ولن أطوف بكم في جميع شعره ونثره، وانما سأكتفي بالاشارة إلى باب واحد من أبواب ديوانه الكبير « **انشودة المطر** » حيث نلتقي بين صفحات 69 و89 باربع قصائد من شعره القومي والثوري، وهي قصائد وقف بها مناضلا عن امته وثورة أبنائها ضد الاستعمار في الجناح الأيسر من الوطن العربي، في تونس والجزائر والمغرب الأقصى، تلك الثورة التي اندلعت آخر مرحلة من مراحلها عام 1952 ولم تنته الا سنة 1963 باستقلال الجزائر وتحقيق الجلاء عن بنزرت.

القصيدة الأولى عنونها السياب بـ « **يوم الطغاة الأخير** » وفيها يصف بخياله لحظة وداع ثائر فيقته عند التحاقه بصفوف الثوار. وهو يعاهدها ويعدها في نفس الوقت بان فجر الحرية ساطع لا محالة فوق جثث الطغاة، ومكتسح في النهاية ظلامهم الملعون ووجودهم الدخيل، انه يوم الطغاة الأخير ونهاية ليلهم الطويل .. ببزوغ شمس النصر على أرضنا المطهرة الحرة :

« إلى الملتقى .. » وانطوى الموعد
وظل الغد
غد الثائرين القريب
يدا بيد من غمار اللهيب
سنرقى إلى القمة العالية

وشعرك حقل حباه المغيب
ازاهيره القانية

* * *

تقولين لي : « هل رأيت النجوم
وكم اشرقت قبل هذا المساء
على عالم لضخته الدماء
دماء المساكين والأبرياء ! »
تقولين لي : « هل رأيت النجوم
تطل على أرضنا وهي حرة
لأول مـــــرة ؟ »
نعم ، امس حين التفت إليك
تراءين كالـهجس في مقلتيك
واذ يستضيء المدى بالحريق
فيندك سجن ويجلى طريق
لنا الكوكب الطالع
وصبح الغد الساطع .

وتنتقل بنا صفحات المطر ـ مطر الثـورة والحرية وكل القيم الانسـانية ـ من موقف الثائر الحامل للسلاح والمصمم على النصر، إلى موقف ثائرة عربية في الجزائر العربية وقد وقعت أسيرة في قبضة الاعداء ـ أعداء العرب ، وأعداء الحق والحرية ـ فإذا هي في أسرها أقوى من أعدائها وهم في جبروتهم ،

مدججون بالسلاح والنار وبالقنابل الذرية، ومسندون بالحلف الأطلسي والاسطول السادس، ومع ذلك تتحداهم جميلة بوحيرد، وهي جسد نحيف لطيف، محمول على نقالات التعذيب والارهاب، ينوء بأبشع ما يأتيه الانسان ضد أخيه الانسان . . لتقول سرا واحدا. . أو اسما واحدا من أسرار الثوار أو أسمائهم، فلا تبوح، ولا تنطق . . وإذا باسريها. ومعذبيها، هم الأسرى الحقيقيون وهم المعذبون. أسرى الضمير العالمي، المعذبون بأصوات الاستنكار والعار في كل مكان من الأرض.

وكان موقفا رهيبا، وتاريخا رائعا . . تكشفت فيه حقارة الاستعمار، ومثله القائمة على امتهان الانسان واستغلاله وقهره، وبالمقابل تجلت للعيان اصالة العرب ومثل حضارتهم القائمة على تحدي الظلم والاستعمار، وكل صور الاستغلال والتعذيب والقهر . . ومتمثلة كلها في صمود فتاة عربية واحدة لم تبلغ العشرين ربيعا هي جميلة بوحيرد.

والسياب اغدق في قصيدته « إلى جميلة بوحيرد » كل حبه للأمة التي تنتسب إليها جميلة، وكل نقمته أيضا.

الحب لأن هذه الأمة، فيها بطلات ثائرات مثل جميلة، والنقمة لأن كثيرين من أبناء الأمة نفسها كانوا يتفرجون على

دماء جميلة وهي تنزف تحت سياط التعذيب ولا يفعلون شيئا، بل ان الجماهير نفسها، كانت دون ما يريده السياب في وعيها بالمأساة، وحماستها للقضية.

ان جميلة في روعة صمودها واستبسالها، هي مسيح بشري جديد.

ان جميلة تعود بالفداء من السماء إلى الأرض، من أساطير الديانات إلى واقع الانسان في الحياة.

اذ لم يعد روح الله هو الحامل للصليب، بل الانسان ابن الأرض، انه جيل البذل والثورة في أرض العرب، الحامل لعبء الفداء الأبدي دفاعا عن الفقراء والمستضعفين في الأرض المبشر بغدها الأفضل وبالعدل والخير والحرية.

جاء زمان كان فيه البشر
يفدون من أبنائهم للحجر
« يا رب عطشى نحن، هات المطر!
روّ العطاشى منه، روّ الشجر
وجاء حين عاد فيه البشر
يفدون بالانعام ما تحبس
السماء في أعماقها من قدر
وجاء عصر سار فيه الاله

عريان، يدمي، كي يروي الحياه
واليوم ولى محفل الآلهة
اليوم يفدي ثائر بالدماء
الشيب والشبان، يفدي النساء
يفدي زروع الحقل، يفدي النماء

* * *

يا أختنا المشبوحة الباكية
أطرافك الدامية
يقطرن في قلبي ويبكين فيه
لم يلق ما تلقين انت المسيح
أنت التي تفيدين جرح الجريح
أنت التي تعطين . . . لاقبض ريح
يا أختنا، يا أم أطفالنا
يا سقف أعمالنا
يا ذورة تعلو لأبطالنا
ما حزّ سوط البغى في ساعديك
الا، وفي غيبوبة الأنبياء
احسست ان السوط، ان الدماء
ان الدجى، ان الضحايا، هباء
من أجل طفل ضاحكته السماء
فرحان في أرضه
وبعضه فرحان من بعضه

أحسسته يحبو على راحتيك
سمعته يضحك في مسمعيك
يهتف : « يا جميلة
يا أختي النبيلة
يا اختي القتيلة
لك الغد الزاهي كما تشتهين » .

وهكذا كان . . فها هي جميلة باقية على قيد الحياة، تنعم في وطنها الحر بالحياة كما تشتهي . . وبقيت بطولتها وقصيدة السياب عنها انشودتين من ملاحم العرب المعاصرين، ستروريان للأجيال وللتاريخ، بطولة فتاة واحدة وعبقرية شاعر واحد، من عطاء امتنا الزاخر بالبطولات والعبقريات في كل العصور ومن كل الأجيال.

من قاع قبري أصيح
حتى تئِنّ القبور
من رجع صوتي، وهو رمل وريح
من عالم في حفرتي يستريح
مركومة في جانبيه القصور
وفيه ما في سواه
إلاّ دبيب الحياه
حتى الأغاني فيه، حتى الزهور

والشمس الا انها لا تدور
من عالم في قاع قبري أصيح
لا تيأسوا من مولد او نشور

هذا المقطع من قصيدته التي جعلها « رسالة من مقبرة » وأهداها إلى المجاهدين الجزائريين.

وهو يرمز بالمقبرة إلى مجتمع الأموات فوق الأرض، وهم السادرون في حياة الذلة والحرمان، المستنيمون إلى جلاديهم ومستغليهم، القابعون في عصور الظلام والتخلف والاستكانة والجمود، تلك العصور التي لا تدورُ فيها الشمس، شمس العلم والحرية، وأنوار الايمان بالانسان والثورة.

ولكن ها هي الثورة تزحف من وهران، من الجزائر، وها هي الشمس تطلع من الغرب . . . انه بشير وهتاف بنهاية الظلام والعذاب وحياة القبور :

هذا مخاض الأرض لا تيأسي
بشراك يا أجداث، حان النشور
بشراك . . في وهران أصداء صور
سيزيف القى عنه عبء الدهور
واستقبل الشمس على « الأطلس » !

في هذا المقطع الأخير، تظهر لنا موهبة السياب في استخدام الرموز والأساطير، وشحنها بأفكار عصرية، ومعان مبتكرة، انه ليس من شعراء الرمزية ولكنه فريد وحده بين جميع شعرائنا في براعته ومقدرته العجيبة على اتخاذ الرموز والاشارات الدينية والتاريخية والحضارية والأسطورية، واعطائها دلالات جديدة وتطويعها لأي موضوع أو صورة شعرية يرسمها في شعره.

ولا يتركنا السياب في هذه القصيدة عند حدود الجزائر ووهرانها الثائرة فقط، بل يثير باهة واحدة الملايين الغافية في أقطار العرب الأخرى قائلا :

آه لوهران التي لا تثور

فوهران الثانية رمز للبلاد الأخرى التي لم تعلن الثورة بعد كي تطهر نفسها وأوضاعها من الادران.

ومرة أخرى يعود بنا إلى أعماق الماضي، وأمجاد التاريخ العربي، حين عمت الثورة كلا من تونس والجزائر والمغرب الأقصى، فإذا شاعرنا ثائر مع الثوار « في المغرب العربي » وهو عنوان قصيدته الرابعة، التي امتلأت جوانبها بمشاهد التاريخ والحضارة العربية، ورموز الاسلام ومقدساته، ومعالمه الدينية، وهو يستخدمها ـ كعادته ـ أدوات للاثارة والاستنفار، محركا بها الحمية والنخوة.

وكان يطوف من جدى
مـع المـد
هتاف يملأ الشطـآن « يا ودياننا ثوري !
ويا هذا الدم الباقي على الأجيال
يا ارث الجماهير
تشظ الآن واسحق هذه الأغلال
وكالـــــزلازل
هز النير، أو فاسحقه واسحقنا مع النير

ولبي نداء الأجـداد، أحفادهم في المغرب العربي، فأثار ذلك اعجابهم وارتياحهم، رغم ان أحفادهم على الأرض لم يكونوا جميعا يدا واحدة، ونضالا واحدا، ليكون ربهم معهم جميعا. اما الآن فانه مع الثوار والأبطال:

وكان الهـنا يختال
بين عصائب الأبطال
من زند إلى زند
ومن بند إلى بند

وإذا كان الله مع العرب في المغرب لأنهم ثوار أبطال، فانه ليس معنـا في يافا وفلسطين السليبة، لأننا كنا نخاف اسم الثورة، ونخشى ان نموت ثائرين، فإذا الموت والمهانة نصيبنا مستسلمين مذعورين :

اله الكعبة الجبار
ندرع أمس في ذي قار
بدرع من دم النعمان في حافاتها
اثسار
اله محمد واله ابائي من العرب،
تراءى في جبال الريف يحمل
راية الثـوار
وفي يافا رآه القوم يبكي في
بقايـا دار
وأبصرناه يهبط ارضنا يوما من
السحـب
جريحا كان في أحيائنا يمشي
ويستجـدي
فلم نضمد له جرحـا
ولا ضحـى
له منا بغير الخبز والانعام عن عبد

ولكن هل يدعو هذا لليأس ؟ كلا ! ان السياب لم يعرف اليأس في نضـالـه عن أمتـه، وهو دائما يحارب جميع مظاهر الاستخـذاء والاستكـانـة والاستسـلام، لأنها أرض اليأس الخصيبة التي قادت العرب إلى الضياع والتيه في عالم مشحون

بالصراع والقتـال من أجـل البقـاء والغلبة . ونحن لم يمت الهـنا . لنفنى وننقرض ، بل هو حي كامن فينا ، وحين نصنع الثورة ونكتب التاريخ بالدماء يكون معنا ، لأن ماضينا يحي ذلك ، ولأن مستقبلنا لن يكون الا به . . انها رسالتنا المتجددة كلما مات فينا ثائر قام ثائر . وكلما تحول الأحياء إلى أموات فوق الأرض . . جاء تجددت الحياة فكـان النشور وكان الأبطال الثوار ، صنـاع المجد والحضارة ومجددوا الأمة ومنقذوها من الضياع والانقسام والحضيض :

اذّاك الصاخب المكتظ بالرايات
وأدينـــا ؟
أهذا لون ماضينا
تضوّأ من كوى « الحمراء »
ومن آجرة خضراء
عليها تكتب اسم الله بقيا من دم فينا ؟
انبر من اذان الفجر ؟ ام تكبيرة الثوار
تعلو من صياصينا . . . ؟
تمخضت القبور لتنشر الموتى
ملايينـــا
وهب محمد والهـه العربي والأنصار
ان الهـنا فينا . (*)

---

* ألقي في المهرجان العربي الذي أقيم بمدينة البصرة يوم 24 ـ 1 ـ 71 في الذكرى السابعة لوفاة السياب . ونشر في جريدة المسيرة عدد 24 ـ 1 ـ 72 .

فهرس الكتاب

الصفحة

مقدمة 5
الأدب التونسي وصداه في الشرق 7
الأدب العربي من الوثنية إلى التطور 45
ملامح الماضي 53
عوامل التطور ومراحله في أدبنا الحديث 67
بين الجديد والقديم 75
النزعة الافريقية في الأدب الحديث 83
النقد عند العرب 99
حول "النقد في مجلة الفكر" 105
شكسبير في الأدب العربي 115
المسرح التونسي ومشكلته الأولى 123
هل كان المربد بمستوى التاريخ 129
ألفية لابن هانئ الأندلسي 133
الشعر والعام الجديد 141

مع الرواد

ساطع الحصري كما عرفته 153
لمحات عن ساطع الحصري 179

المعجزة الاسلامية 185
مالك بن نبي ـ مرآة مجتمع وظاهرة شعب 209
نظرات في أدب العقاد 219
سلامة موسى في دراسات سيكولوجية 229
ذكرى عادل زعيتر 251
السيّاب كما عرفته 261
ثورة المغرب العربي في شعر السيّاب 275

كتاب المعارف
يصدر عن دار المعارف

سلسلة كتب للجيب يشترك في تأليفها أشهر الكتاب في الشرق والغرب.
السلسلة التي يستفيد منها الشباب والشيوخ على السواء بفضل ما تقدمه من موضوعات متنوعة.
تصدر عن دار المعارف للطباعة والنشر بسوسة/ تونس في طباعة أنيقة تهدف إلى رفع مستوى الكتاب العربي شكلا ومضمونا.

الكتاب القادم
المنتخب في تاريخ أدب العرب
مصطفى بادر زيد

تم طبع ثلاثة آلاف نسخة من هذا الكتاب.
تدمك: 6 _ 070 _ 712 _ ISBN 9973
الثمن: 2.500 د. ت. أو ما يعادلها بالعملات الأخرى.

To: www.al-mostafa.com